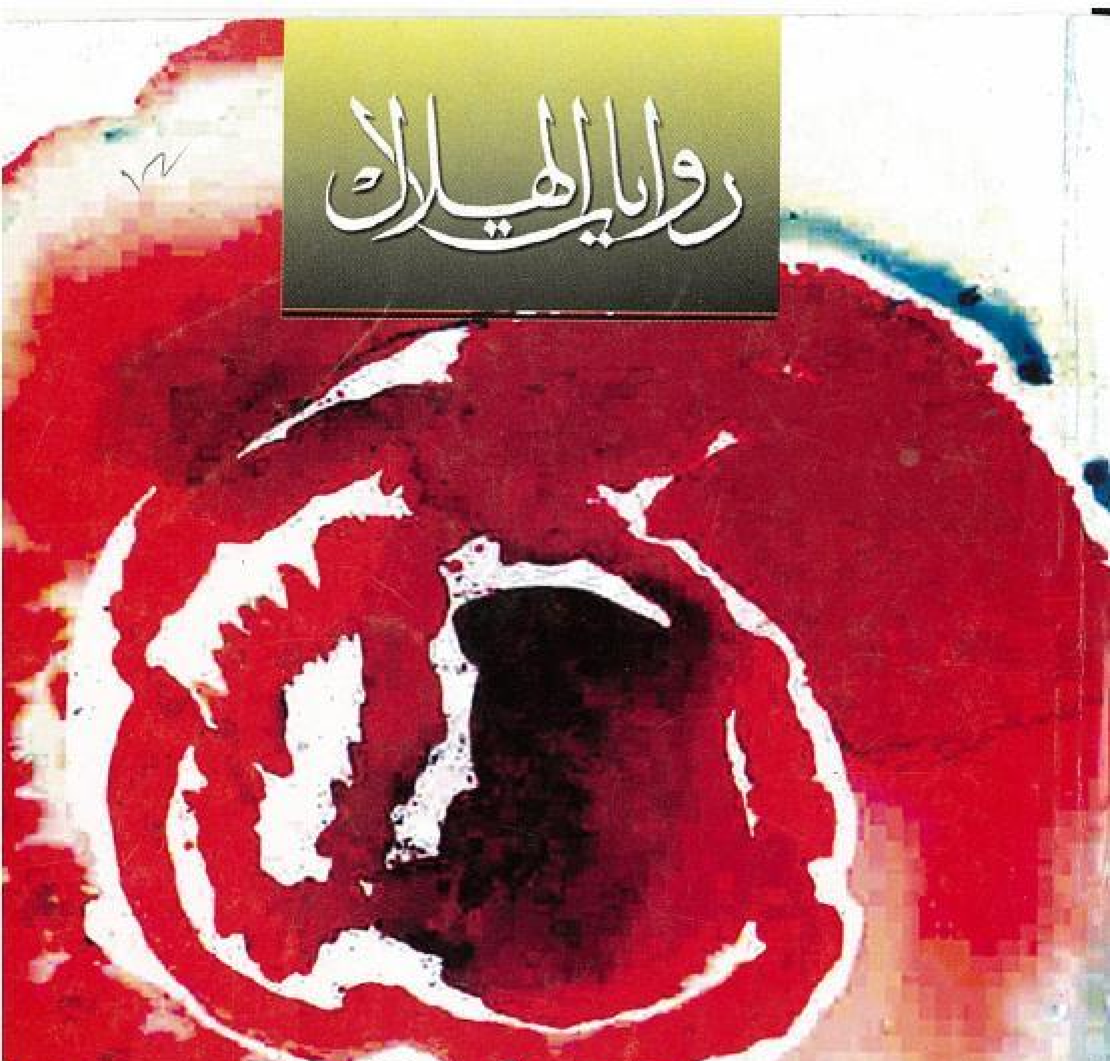

روايات الهلال

نبيذ أحمر

أمينة زيدان

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

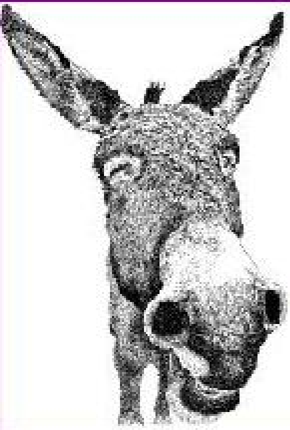

أبو عبدو البغل

الأفعال العظيمة لا تستلزم أوقاتا طويلة

إلى ابنتى ..
هاميس و فرح حاتم عبد العظيم
وسهى ..... التى لم أنجبها
أحبكن ...
أمينة

مدخـــل

أربعون عاما من البطء

هذه المرة مختلفة عن سابقاتها ، فأنا لم أهرب ولم أتوار بمرآة أمى أو أذعن لخالى كما حدث فى كل مرة استسلاما لمقولة أبى الأبدية. . .

– كن كالنخيل عن الأحقاد مرتفعاً يرمى بحجر فيلقى خير أثماره

لا، ليس مجددا ، فلو مُسّ النخيل برفق سيلقى خير أثماره ، وسيهوى البلح الأبريم الأسمر وقد سواه هواء الأعالى النقية.

هذه المرة فعلت شيئاً مختلفاً وصحيحاً إلى حد جعلنى أتخلص من تأثيرات تجربتى بعصام ، ولكن باستثناء الكوابيس التى أقتلع نفسى منها ببطء مروع ، وأنا أبلغ حد الاختناق الحقيقى وأشرف على الموت للحظات طوال ؛ حتى أفيق وأدرك أننى الآن بعيدة تماما عن تلك الأزمنة ، التى تراوحت بين عفريت لخالى وعفريت لعصام وآخرلأندريا .

هذه المرة اعتمدت قرارا حقيقياً بالبدء من جديد ، وذلك بعد تنفيذى لكل أحكام العقوبات لما يقرب من عشرين عاماً كاملة فصلت بين طفولتى الطارئة وتجاوزى لسن الأربعين بأشهرلازمتنى خلالها كوابيس ، ظلت تتردد عند كل غفوة . . .

جدتى تزورنى وهى تدق جسدى بالعصا التى تتكئ عليها بعماها ، فى تتابع دائرى ، تدسه فى الوحل القانى ، وأنا أحاول أن أبقى نظيفة . . . "حاجة كده زى العجل فى بطن أمه" .

أبى وهو يركض بساقه المبتورة المتهدلة فى سرواله ، باحثا عن بلد جديد يرمى فيه بوطنيته ، وأنا أحاول اللحاق به للصق ساقه بفخذه ، هو يسرع

فى الرحيل وأنا أتعثر كالأعباء ،فيما يقف أسعد عاقدا ذراعيه وهو يدعى نصف ابتسامة ، متهكماً على قلة حيلتى فى اللحاق بأبى. . . أو بأى شىء ، التفت للخلف مندهشة من وجوده المتكرر فى كابوس أبى . . . فأصبح من الذين ينظرون للخلف طيلة حياتهم ببلاهة .

أخى سليم طفل يحبو . . . يتوقف ليقلب فى خرائه الذى انطلق منه لا إراديا . . . يتذوقه ، ليصاب بنزلات معوية مزمنة ، تعاوده على فترات ، وتبقيه على هزاله وهذيانه طوال الوقت خوفا من أن تفاجئه نوبة الإسهال فيقرر ألا يغادر البيت ... ألا ليعود سريعاً ، و يجتاز حجرته المغلقة عليه دائما ، عابر بنا فقط لدخول الحمام، وأنا أنتفض مدعية التقزز والضجر اللذين يبقياننى بعيدا عنه لا أحاول مساعدته .

و أمى . . . التى أحاول جذب انتباهها بشد ثوبها ، وهى محض صورة منعكسة على كل المرايا . . . ولا وجود لها فى واقعى.

ثم خالى الذى «تقولش عامل ربنا . . . عمال يوزع عذابه ، ويقول للناس حبونى وخافونى" ، وأنا فى الحقيقة أحبه ، ليس كحائط قوى. . . ولكن كفكرة مغايرة لا تتفاعل إلا حين يغيبه المخدر فى زقاق نفسه . . . عندها يبدو حقيقيا ، لا أريد أن أخشاه . . . كل ما أردته كان ، العدل الحرية ، المساواة – قياسا على شعار الثورة الفرنسية ، وربما البلشفية . "وكمان يا أخى الإنسانية" .

وأخيراً أندريا ، يشاهد كمحايد يبتسم ، فهو يعشق السينما التلقائية ، ويهيمن على كل زوايا المشهد . . . بعينيه وابتسامته ، أراقب وجهه أحاول اكتشاف مدى إجادتى للدور الذى منحنى ولا أعتقد أننى أديته يوما . . .

حتى بلغت هذه اللحظة التى تجاوزت فيها الصفر الرابع بقليل ومازلت أعانى طبولا تدق برأسى ، تعلو وتهبط بى ، وهى تصعد أصواتها ، لتتفق

ومؤثرات صوتية للمهاة ، أكون فيها كل االشخصيات، أقاوم محاولة التخلص من أطرها ، لأصنع بداية هادئة مستمدة من الدور الذى أعرف أن علىّ تأديته ، بغض النظر عما يرغب الآخرون ، فأخط على لوح المرآة بالمداد الأحمر الكحولى . . .

- تذكرى أن تقولى . . . لا . . . لا . . .لا

لا التباس فيها ، وبخط أصفر كتبت :

- كونى حذرة

- لا تخشى شيئا

وفى السطر الأخير

- العدل والرحمة وليس الذكر كالأنثى هى آياتك.

★★★

أيها المحترمون إياكم وإساءة الظن ، إن لمحتم صدفة امرأة تخلع ملابسها وتعرض جسدها لضوء الليالى المقمرة ، فهى غالبا امرأة فى الأربعين، وحيدة وتهيب بالقمر أن يكشف لها من تكون .

الفارق بين الحقيقى والمعلن شاسع إلى حد الاغتراب . . . يا إلهى من يوقف ألم التيه فى صحارى الروح ، بينما الظلم يتجول كجواد من نار ، يدك التعادلات الكونية ، ويفجر الخراب الذى أرقص بهدوء على أطلاله ،حتى يداهمنى النوم .

أسارع بالعودة إلى منتصف كل شئ ، أختنق برائحة القهوة والغاز المتسرب من الموقد ووقع سن الأربعين ، حيث وقفت أمام المرآة فلم أعرف نفسى ، أطلت التحديق ، يممت بوجهى شطر اليمين وشطر اليسار، بسطت الثنيات حول عينىّ وشفتىّ، حتى تنازعنى الضجر وطنين ذبابة تحلق بوجهى فى المرآة ،أردت أن أبكى وأن أشعر بأن العالم كله متواطئ ضدى ، بدعوى

الحب والصداقة والزواج والأخوة والصدفة أحياناً ، أقرر أخيرا بعد اقتحامهم لنوافذ مرانى اليومى على قولة لا ، أن آخذ بنصيحة أمى

– لا تتكئى على أى جدار . . . فقد تفاجئك الغارة وينهار .

ذلك ما كنته بعد إطلاق سراح عصام ، ربما لحظة إلقائه بالطلقات الثلاث أمام خالى وبعض الشهود ، فعل ذلك بغير مقاومة وبكل ثقة وارتياح ، فلم يضطر خالى إلى تكرار الضغط ليحصل كلاهما على التوقيع النهائى لورقته ، وأنا بطبيعة الحال حصلت على ما أعتقده عادلا ، فتاريخى وإياه لا يسمح بأى مراجعة ، ورفض كلينا للآخر بات مؤكدا ، الغريب أننى شعرت كمسيح مقيد بصليبه العائم فى خليج الظلم ، لا أعرف جريرة عقوباتى ، التى تتجمع الآن بثقوب روحى ، أرفع وشاحاً أسود فوق رأسى وأهرم فى كل يوم مائة عام ، ولا أكل من حفر قبر ، أزينه بالخدر والكسل المرصع بالمرارة وأرمى فيه بذاكرتى.

أعود بعد حمام دافئ إلى قرار آخر بالرحيل ، الهرب الآن ليس فعلا سلبيا ، بل هو محو شطر من عقود الغياب فى حيوات زائفة تمر بى على شاشة سوداء هلامية ، لم يكن هنا شىء يمكن فعله حيالها غير الانتظار، فربما تأتى الأيام بلحظة نورانية تكشف عن ثغرة للحصار ، اكتفيت لزمن بالنوم المتقطع على اللهاث والصراخ المكتوم .

الآن أصبح لزاما علىّ أن أخرج ، أواجه الجميع ، أبحث عن نفسى بارتياد الأماكن القديمة بدءاً بعشة خيرية التى أزالها صاحب الأرض وبنى عمارة كبيرة ممتدة الشرفات أسكن أبناءه أدوارها العليا ، فيما تصدر هو الطابق الأول ، أمر بالجامعة ،مقر الحزب وكل الأصدقاء ، حتى أسعد وريبيكا وغيرهما ، بحث دائم عن سلالة أنتمى إليها.

إذا كان بإمكان المياه أن ترفع السفينة ، فبإمكان الحياة أن تحتملنى .

★★★

كامرأة قوية أعود لبيت أبى ليمسك بيدى ويبكى أمى . ألقت بنفسها من الشرفة التى تطل على الحارة الضيقة وسقطت ميتة على أرضية الشارع الإسمنتية التى رصفها عمال الحى فوق قطع البلاط الفرنسية الصغيرة . كم من المرات افتقدت التماعها ووقع المطر على زلاقتها ، ما أدركناه أنا وأبى كان غير ما فهمه وصدقه أخى وخالى وبقية المعزين ، فقد اعتقدوا أنها سقطت بينما كانت تعلق الثياب المثقلة بالماء فوق حبال الغسيل التى أكلتها الشمس ورطوبة الصيف ، فكان حادثا مأساويا لا يفتقر الصدق ، لأن أمى بالفعل كانت تنشر الغسيل ، وربما قررت فى لحظة أن لا شىء يجدى ولا شئ يزيل الأوساخ ، فهى اعتادت أن تمرش الملابس بيديها فى كمية مهولة من مسحوق الغسيل مرة بعد مرة، دون أن تصل بها إلى المستوى المطلوب من النظافة ، وحتى حين تجف الملابس على الحبال ، تؤكد أن التراب أضاف إلى وسخها السابق وسخاً ، فتعاود غسلها ، وذلك ما أقر الدكتور شوقى بأنه وسواس قهرى ، ولم تكن أقراصه تفيد ، لأنها اعتادت أن تبصقها خلسة ، بعد أن يدسها أخى تحت لسانها عنوة.

بسهولة أمكننى تمثل إلقاء أمى لجسدها من سور الشرفة العالى ، ورؤيتها مرتطمةً فوق الدماء التى سالت من أذنيها وامتدت حتى مدخل البيت، شممت الروائح الأخيرة وسمعت الصخب ، اللذين أحاطا بأمى لحظة ما قبل موتها . كل ذلك أدركته رغم تأخرى المستهجن عن مراسم الغسل وطقوس الدفن ، وتفويت حضور جنازة القبر ، ذلك لأننى كنت قررت الرحيل، فى اللحظة التى سقطت فيها على الأرض ميتة فى نحولها ، الذى لم يحم عظام رأسها من التكسر ، لم أكن أستجيب لرنين الهاتف المُلح بقسوة ،

لأننى كنت أحاول استجماع قواى لحمل حقائبى والرحيل بشكل نهائى ، كى أبدأ من البداية هناك عند أمى وأبى وأخى ، الدقات على بابى كانت تبدأ محمومة ثم تنتهى لصمت ، لم يكن من حافز يدفعنى إلى التحرك من سريرى . لكن ما إن انتهى خالى من تلقى العزاء الرسمى على القبر ، حتى ركب سيارته وسافر أربع ساعات متواصلة ، وصل إلى بابى ودق علىّ بصوته الغاضب

– افتحى يا بنت الكلب .... أمك ماتت .

– بجد ؟

أقول فيصفعنى ويجذبنى من شعرى ، ويلقى ذهولى وانسحاقى بما يقوله داخل سيارته الجديدة ، كانت تلك أول مرة أركبها ، أركض فيها إلى الاتصهار ولا أحدد شيئا ، لا أرى ، لا أفهم ، أحاول تذكر شكل أمى ، فلا أعثر على ملامحها ، تلك التى كانت تطل بإلحاح مريب كلما واجهت المرآة ، نظرت إلى يده القابضة بعنف على المقود بينما الثانية تنتقل بالسجائر فى دورات سريعة وعصبية أثارت توترى .

تطير العربة فى الفضاء وتنقلب لتستقر بعد ثلاث دورات على حافة شريط ضيق يفصل بين الطريق الإسفلتى وهاوية ممر السيل ، حينها أطلت علىّ أمى بطولها ، وهى تغيب فى وقفة طويلة تبتسم من وراء زجاج السيارة، الذى عرفت فيما بعد أنه من الفيبر الشفاف ، فهو لم يتحطم ، و لم يفقدنى انبعاجه المشقق أى لمحة من وجهها ، المطل برعاية مجانية فى مواجهة موت مجانى ، أخرج من السيارة فاقدة كل احتياطىّ من التوازن ، أبحث عنها لأضمها ، وهى تهيم بعيدا بعيدا مع الشمس التى تسقط خلف الجبل ، أبكى وأهيل رمال الصحراء على رأسى وأجأر كالحيوانات المنحورة ،

– ماااامااااه أمييى .

كأننى كنت بحاجة لهذا الموت كى أتحول لحيوان ليس لديه أدنى حرج من اطلاق نفير ألمه، أراجع حسابى معها ، وكم من المرات صددت حضنها، كم من فرص ضيعتها دون أن أقبل يدها أو خدها ، سنوات من الإهمال والكراهية لجنـــونها ، نسيت كيف تكون الرحمـة وأنا ألكز وساوسها بقسوة .

يواجهنى خالى فاتحاً ساقيه ، محاولا التشبث بالأرض ، بعد أن اختل اتزانه وهو يقول بجدية وهدوء :

– إيه إللى بتعمليه دا يا بنت المجانين ؟ إنتى عمرك ما حبيتيها ، وكنت بتتمنى تموت عشان ترتاحى من جنانها ، إيه الجديد يا بنت محمد جلال ، ما إنتوا قضيتوا عليها من زمان إنتى وأبوكى .

الكل هنا فى حفل الحزن ، ملابس سوداء ، وآيات قرآن يتلوها الشيخ عبد العال ، وهو يهتز متربعا على مقعد أبى الذى تعرش الطقس مغيبا تحت إغماءات الأسف ووخز ذكرياته مع امرأة أحبها بقدر ما رفضت عالمه ، الذى عاشت فيه كلون زائغ من قزح الصبار، حتى فرت منه إلى موت، قطعت عمرها انتظارا له ، أو أنه قطع بها الزمن ليلقيها من رحم أمها إلى كهفه مباشرة ليسقط اسمها وملامحها من ثقب الوجود ، تضيع للأبد امرأة قديمة، خرجت من الحياة مجرجرة كل وجوهها ، التى لم يألف أيها أحد من الموشحين بهالات الحزن واللاحول ، هل كانت أمى حقيقة؟

– شدى حيلك ، أبوكى وأخوكى محتاجين لك .

– كلنا لها .

– إحنا يعنى هنروح فين ؟

– والله ربنا رحمها . . . استريحت .

– ربنا يغفر لها .

– الله يرحمها ، عمرها ما أذت حد.

– إبكى يا بنتى . . . ريحى قلبك بالدموع .

هل يريح الموج انتهاءه رطما بخليج صخرى ؟ وهل كنت بحاجة لموت أمى كى أنتقل من البطء إلى الإسراع بخطى تحاول تعويض ما فاتها فىّ ؟ أم أن كل النهايات المرحلية تجمعت ، تدفعنى للحاق بكل شىء وبعيدا عن كل شىء ، لم أستطع الإمساك بشىء واحد ابدأ به ، بعد ليال من العزاءات التى تناقصت واقتصرت على من بلغه الخبر متأخرا ، حتى صفت على أنا وأبى وأخى وزيارة أخيرة لخالى ، وقد بدا وكأنه يتخلص من ارتباطه بنا . . . أخيرا وهو يقول :

– نادية ليها ف ذمتى فدانين وسبع قراريط. . . مصاريف الدفنة والجنازة ، أنا اتكفلت بيهم ، الظرف ده فيه ثمن الأرض ونصيبها فى البيت، أنا اشتريتهم ، كفاية إللى راح من العيلة ، سلامو عليكم .

يزورنا أسعد عند انتصاف الليل ، ليسأل عما نحتاج إليه ، بغير رغبة حقيقية فى تلبيته ، فيكتفى بكلمات الشكر و الحصول على دعوات أبى ، ثم يرحل .

★★★

فى أى قطار أنا الآن ؟ عودة أم ذهاب ؟ أرحل فى موت إرادى لشجن يمور فى ذكرياتى الموجعة ، من أين ؟ لأين ؟ ألم يودع فى ألم وحزن بات كليا على أربعين عاماً من الفراغ ، مر جافاً وهشاً ، سنوات سحقتها الشمس دائمة القسوة ، هنا ليس من مودع يركض محفزا – ستلحقين بالقطار– ، والقطار مازال مطروحا مجمدا على رصيف لا يهزه الهدير ، يشرع صدغيه للأقدام المسافرة ، لا يكترث بأى حال لقدمى المترددتين بخفة وبطء على أرصفة لا تحفل بالعابرين ، مهما تكرر خطوهم على خارطة

المصائر ، أبحث عن وجهى خلف الظل المهتز على زجاج النافذة ولا شىء ، أطل على الليل الموخز بالأضواء الشاحبة المترامية للمدينة البعيدة التى تقع على الطريق الرئيسى للجنوب ، بينما القطار يتهيأ للوقفة السريعة ، حتى يلقى بوطأة قدمى على الرصيف ، قطرات الندى تحف توازنى المضطرب ، من أين تأتى هذه القطرات الدقيقة ؟ السماء قاتمة ، لا حركة فيها توحى بالحياة ، كل الأبنية بالخارج والزحام الطارئ على باب محطة القطار . . . ليس فيها حياة ، جمود عجيب أمرق خلاله مجمدة ، كآمر غابر ، كيف صنع سيزيف مجده ؟

هذه المرة ليست ككل مرة ورغم حقائبى الصغيرة ، أقرر أن أبى يستحق شيئا خاصا .

– إزازة نبيت بوردو وأروسة سجاير مارلبورو أحمر.

لم يزد البائع على النظرة الممتدة قولاً ، غلف الزجاجة بصفحتين كاملتين من جريدة قديمة ، ثم وضعها فى كيس بلاستيكى أسود ، تناول النقود ودس الحقيبة بين إصبعى ، أحكمت حمولاتى وغادرت أفكر بأبى ، لم يعد الحصول على زجاجة خمر بالأمر المستطاع فى مدينتنا ، وأبى يحتاج لأن يهرب من كل ما يحيطه ربما لأيام لا أدركها ، أو أدركها وأشيح كعادتى . الأتوبيس السوبر يرفس أضواء القاهرة المبللة لطرقاتها ، وأهيم فى ظلمة الصحراء ، لا أتبع غير العتمة والفراغ المحكم ، التلاوات المختلطة للأحجام المتباينة من المصاحف تكسو الجو بسماحة نادرة ، سوف أمنح أبى شيئا خاصا للأيام المقبلة ، وأنا أشرف على مدخل المدينة التى أقرر تجاهلها .

أحل المدينة القديمة الراكدة بالوعى محلها ، حيث الجميع "بيبدلو الكتانى بالكاكى" ، رغم العمران الجديد الذى يمتد لأكثر من عشرين كيلو . . . تظهر مدينة استدعيتها . . .

هنا كان المراقبون الدوليون الذين أتوا متأخرين كثيرا ، يسمحون بمرور الطعام والماء تحت رقابتهم ، الناقلات الصغيرة تحمل اللحوم المحفوظة والسردين والسكر والشاى ، عدد محدود من الجرائد يخضع للفحص قبل السماح بمرور العربات ، الجنرال يتعذر للصهاينة :

- خلوهم ياكلوا ، عايزين نصلح صورتنا ، دول فى الآخر مدنيين ، أظهروا بعض الرحمة للعالم ، خلوا " الدكتور كسينجر " يدير أموركم بطريقته ، هوّ فاهم .

الجوع يثير انفعالى ، فيسيل مذاق " البسكوت أبو كمون " فى حلقى ، وكان عساكر وضباط الجيش الثالث يوزعونه علينا بسخاء ، فنصنع به حفل عشاء بهيج ، على ضوء القاذفات.

هنا المثلث وورش وابورات السكة الحديد ، كيف كان سيصبح التاريخ لو لم يخرق أبى ورفاقه الحصار وهم صامدون ، بينما تجرى دماهم الحمراء بين المتاريس والخنادق ، المجنزرات والدبابات تستلقى مترنحة فى دخانها ، هل كنت خائنة لشعورى بالشفقة على أولئك المجندين الذين تساقطوا فى جروحهم يستجدون بأمهاتهم ، يصرخون ويبكون نهاية مفاجئة لنزهتهم، فى مدينة ظنوها خاوية ألا من الأشباح ؟ لم يسمعوا خفقان القلوب المستعصية على القمع ، ولم يشهدوا أحلام ستة أعوام بتل أبيب ، حين كنا نركض أنا وأسعد وأندريا وكل الصحاب النبلاء ، خلف مدرعاتنا التى تشق شريطاً بين بيوت المدينة ، باتجاه الضفة الشرقية ، حشود مؤلفة كلهم عائلتى ، خرجوا من الركام كنيران ، لايطفئها غير الموت، كل يعرف دوره فى نص المقاومة المحكم.

هربت تلك الأيام وتركتني لنوم طويل ، بانتظار جرس شخص طارئ ، عادة ما أكشف الزيف فى ظنى به ، جوعى متوتر غير محدد ، بالفعل جائعة ولا أرغب فى أى طعام يا لها من حيلة تلك التى نلجأ إليها حين تتفق «الأبراج » على أننا غير متوافقين ، أبدو فى النهاية (٠) ضئيل يتذبذب أمام صبر الرقم (٤) ، وأنا ألمح صورة زفاف أمى وأبى المختلفين بفخر واطمئنان كصبح ومساء ، لم يكن هنا شيء يمكن أن أفعله غير نمذجة هذا البيت الذى ضمنى لأبى وأخى فى غيابهما الاختيارى، كلنا مغلقون على عوالم فردية ، ليس للآخر فيها دور ، إلا حين يشير أحدنا بصمت مؤكدا.

- أنت السبب .

ربما لا يكفى الأسف الذى يتلصص علىّ فى مــــرآة أمى المصلوبة بمواجهتى ، أغفو وأنتفض على المقعد الخيزران المقابل للمرآة ، أحرس أحلامى المزعجة ، أذوب فى عجينها ، فسريرى لا يمنحنى النوم أبداً ، وأصبح بلغة مجازية مسبوكة فى الغياب ، أستيقظ على الواقع بسهولة صنع وجبة فى دقائق ، إن حاولت الإمساك بقلم ، أجد مليار مسيحى ومليار وستة من عشرة مليون مسلم ، يتزاحمون على الصفحة البيضاء ، وأنا أركض خلالهم بجواد خيالى الهرم ، أنأى بمصيرى عنهم ، أفر بسكك الوهم ، أحاول عتق خيالى وأنا أبدو كامرأة قديمة تجلس على مقعد من صخر يضيئه مصباح قمرى ، مسلط على ملابسى السوداء ، وعصابة الرأس السوداء ، أنقش معنى لوجودى داخل واقع اجتماعى ، يلح طيف أمى بشدة وهى تعاودنى ببعض الشطائر وكوب الشاى بالحليب ، أندريا يغادر بوعد كاذب ،غاب من موعدنا بلسان الخليج، كل يوم قبل المغرب ،ولأكثر من عشرين عاما ، أنتظره ولا يظهر له ظل ، شبح أمى لا يكف عن مراقبتى رغم

اغترابى عنها فى أبى ، ليصبح العداء هو اللون الرسمى لكل الأطراف ، حتى أنا ، بينما أقرر" أن أصل متأخرة خير من أن لا أصل على الإطلاق" ، زجاجة عطر ثمينة محطمة ومسـالة على الأرضية الباردة هى أنـا بلا نفاذية .

الدخان الذى أجذبه بشره ، يحمل ضربات قلبى إلى الاضطراب ، ما من دقة تشبه الأخرى ، وكأننى محصورة فى خواء " مصعد " يهبط متجاوزا الطوابق بسرعة ، أو مرفوعة بأمر الشيطان إلى قارب بغيرمجداف ، تتردد عنى الأقاويل ، كوميديا يبتدعها رجال فاشلين فى نسائهم ، وهم يلوكون امرأة ميتة على مائدتهم ، فى مشهد يومى يستعرض دراما الفقر والقهر والجوع ، لكائنات انقرضت قبل أن تسير .

لكن الذى يعلم أن خال البنت التى رأت هو عاطف بك ، يطلقنى لأركض بعيداً عن العشة التى تطاردنى أرضيتها الملتمعة بقطعتىّ نقود معدنيتين من فئة العشرة ، وأصابع خيرية ترجف بينها ، فوق التراب الرطب ، الذى يسلمنى بلأى إلى بيت خالى المسبوك بظلمة مدينة صغيرة لفظتنى مرتين ، وهاتفى يهتف لخيرية المنقوعة فى دمائها، فيما أنا منقوعة فى التخريف، نفس ما حدث لك يحدث لها بقدر ما ، الأبواب والنوافذ موصدة على عشة خربة، ترعى فيها الفئران والعفاريت ،البناء"اللوكس" مشيد بذات العروق الخشبية المعطنة.

أعاود إبعاد الكوابيس ، أمدد السكين الحاد تحت وسادتى ، كما كانت أمى تفعل وهى تقاوم لعنة" الشمامة " التى تحل فى الظلمة ، أو ترشق النصل بشقة البطيخة الحمراء التى توفرها لأبى ، إلى أن تذبل وتلقم لصفيحة زبالة مثقوبة بديدان صفراء تسيح بأعصابى ، أحك رأسى حتى تتشعث خصلاته القصيرة .

عشرون عاما وأنا أبحث عن نماذج وهمية ، تحيل العدل إلى قيمة غير موجودة على الإطلاق ، فى حياة لا أنتمى إليها رغم ارتمائى بحضنها ، وكأننى أعيشها بجد ، حتى يغزونى الموت كفكرة مفاجئة ، أصابت من قبل الذين كانوا ولم يعودوا ، تنزل الستائر السوداء على الملهمين الكبار ، ويعرض عليها أندريا مواعيد احتياطية ، لا يلتزم بها غيرى ، بينما هو مسافر عنى ومتجاوز لى ، يساعدنى أسعد برعاية جارحة ، تفجر من شرايين الظلمة ، نفس الغضب الذى يواجه به أبى صورة أمى وهى تقف بجواره فى ثوب عرسها القصير ، تضم كتفيه بيد ، وبالأخرى تحمل باقة ورود ضاعت ألوانها بين فستانها الأبيض وسواد سترة أبى المنسدلة بجانب فخذيه ، وهو يضع ساقا فوق ساق ، لم يعد يذكر متى فقدها ، ولم يعد بقادر على إخفاء عدم غفرانه لتركها له بغير وداع فى صحبة ولد مغاق إنسانيا ، وبنت تعبئ حقائبها وتفرغها لآلاف المرات وتردد لنفسها :

– ليس عليك إلا أن تقولى لا ، ولن تلجئى لنظارة القراءة مهما آلمتك عيناك ، وتتخلصين من أقراصك المهدئة والمنومة والمضادة للاكتئاب ، مهما احترقت بالغضب أو كرهت الحياة التى ستبدأينها الآن . . . حالا ، بتعلم كل ما فاتك تعلمه ، حتى من الرقصات ، لم يعد هناك ما يضيع من الوقت ، من العادى ألا تنامى، وأن تنجزى ما فاتك طوال الأربعين عاما الماضية ومن قبلها عشرين" تخص أمى" . . . سوف أدرجها بكشوف تعويضاتى .

سأبدأ باللغة لتكون اليونانية أول لغاتى ، سأودع شكلى لمعية الماضى ، وأكتسب "اللوك" الذى يلائمنى أكثر مما يهم الآخرين ، سأكون أنا ، صاحبة الاسم الذى كلما تردد . . . يثير خجلها ، سأبحث عن أندريا . . . لكى أسوى الأمور المعلقة فى حياتى . . . وأبدأ من جديد ، أتمم معرفتى

بالمناهج، وحين أعود إلى االتدريس، سأعلم تلامذتى أن يقولوا ويفعلوا كل مايروق لهم، فالحياة غبية حمقاء، لاتمنح غير التعاسة.

أسبح فى رقدة سخية ، تلك الرقدة التى تمددنى فى فضاء ناعم من الضوء ، تباغتنى حفاوة روحى بعذوبتى ، فتكسو الروعة وجهى المبتسم ، تحتقن وجنتاى بأناقة الرضا ، كل ذلك فى فسحة من زمن بعد منتصف الليل بساعات ، امرأة أخرى تستيقظ مبكراً تغنى . . . أنا أحيا . . .

★★★

مازلت أزعم وأنا قادرة على الاندهاش بأن للأسماء دلالاتها الخاصة ، وأن سارتر حين قرر أن الجحيم هو الآخرون لم يكن يعبث، لكنه نسى جحيما آخر أشد حرقا، لم أنجح يوما فى تجنبه، حين أقف على الجهة الأخرى – لأنا– أراقبها.

سوزى . . . كم من المرات حاولت أن أشبهها بلا جدوى ، حتى مع استخدام صبغات الشعر والعدسات اللاصقة ،أو استبدال لكناتى التى اكتسبها سريعا من الآخرين وأطعمها باللوازم الاعتراضية الخاصة بكل شخص على حدة ، مضيفة إليها بالضرورة أدواتى الخاصة التى لم أتمكن من التخلص منها والتى لا تحتمل ذاكرتى استدعاءها ، تحديدا ، لما تعكسنى – هى – مرآة أمى ، فإن الأمر يتجنب الالتباس نظراً لانشغالها – ذاكرتى – بتصور للمستقبل – غامض– بالنسبة لى على الأقل ، حيث أننى ومع الاعتراف بنوبة البدانة الخانقة التى داهمتنى بشكل غير مفاجئ ، مازلت ممسوسة بالرجوع المتكرر لنقطة الصفر وليس تماما كارتداد "سهام" الدائم ولجوئها الدرامى إلى قص الشعر بشكل لافت ومثير.

كلما تقدمت سنوات عمرى مؤكدة انتقالى البطيء وغير المكتمل من مرحلة إلى التالية، أقع فى غواية البدايات التى تلعق شفتيها استعدادا

للتحلية بنهاية مخيفة، يمس جسدى موت ما أثناء نومى فاستيقظ لأجده جسدا آخر محملا بالخدر الذى يمهد لرخاوة مذلة لطموح ينطفئ بسرعة مذنب هاو .

وسيكون علىّ انتظار الصفر الخامس فى حياتى قبل أن أنطلق من جديد فى تأمل ملامحى التى يعكسها وجهى للآخرين ، والأمر حسابيا فى غاية السهولة ، لأننى ولدت فى العام ٦٠ الذى نتأ كورم خبيث فوق تسعة عشر قرنا ميلادية ، كما لم يعد باستطاعتى إحصاء الشعيرات البيضاء الطارئة على رأسى ، تجاهلت كمرها بالصبغة ، وأنا لا أخفى إعجابى بقدرتها على المقاومة حين تندلع بقوة فى مواقع خيالية ، من جلدى الذى بلون الحناء المنقوعة بالخل ، كما كان يقول العزيز أسعد وهو يصطحبنى إلى المدرسة .

هل هذه المقدمات كافية ؟ على أية حال فالمقدمة ضرورية حتى وإن كانت مكرورة ومتداولة ، كوجه مسرحى بائس مرضوض بحبات البرتقال الصفراء التى تراشقت بيد جمهور العرض الأخير ، فيما يصر هو على أداء الدور خلف الستارة المسدلة على ذويان روحه ، وبكاء أعضاء فرقته التطوعية .

ربما يتصور المرء أن حياته سلسلة قدرية من المفارقات ، ترسخ لفكرة تميزه ،التى لن يلحظها غيره ، وسيعزو هو الأمر بطبيعة الحال للجهل التاريخى وعدم الفهم المتبادل .

لأتوقف الآن عن التصرف كامرأة تجاوزت الأربعين ، لم تستحم أو تبدل ملابسها منذ أسبوعين ، تمارس ميوعة من تلقت فجأة دعوة عشاء بمطعم عائم . المطر اللطيف يغسلنى على زجاج كوة النافذة المقابلة للمرآة ، تذوب قطراته وهى تجرى متوهجة فى ملامحى ، أتوه من مفكرة السنوات المشرعة بين وجهىّ ، تماما كما كنت بين كفى أمى بعدما ولدت، وقد قالت أننى

بدوت كمن وجد شبه ميت بين الأمواج فى الملابس البيضاء الضئيلة التى أعدت سلفا، إلى أن دبت فىّ الحياة و تقوست بين يديها ضارعة بأطرافى إلى الضوء الباهت للمصباح الأصفر المتدلى من الحائط بسلك غليظ مجدول بالجير الأبيض ، والأبيض هو لون حوائط بيتنا الذى أعيد طلاؤه حين غزت حملة التعمير المدينة . . . بعد انتهاء رصاص الحصار ودانات المدفعية من كشط طبقات الملاط وإحداث عدة ثقوب غائرات ، والأبيض هو لون كفن أبى المدفون بسحارة سريرى. يالها من ذاكرة محرضة للألم ، علىّ أن أقاوم إغواءها، وأبدأ المراجعة النهائية للكلمات التى سأنطق بها بلغة جديدة، وإن كان جرسها الحماسى قارا بسمعى مثل صفارة قطار يعبر ليل المدينة بسرعة تزلزل أرضية البيت ، كنت أتقلب فوقها وأتمدد على بطنى ، وأنا طفلة لم أتعد الشهر السادس لتدغدغنى الهزات القوية قياساً بحجمى ، أبتسم" تلك ابتسامة الخير" بينما القطار يولى ، فتنمحى الابتسامة الساحرة لأمد طويل حتى يمر قطار وقطار لأكرر نفس القصة ، هذا ما قاله أبى ، ولكن المرة ليست ككل مرة فقد أعددت لكل شىء بعزم لسان الخليج فى صد رغاوى الموج عن المدينة و هو يتلقى الصفعة كاملة من اندفاع الماء ، كيف أنقل هذا المجاز إلى اللغة اليونانية ؟ علىّ أن أضمن فصلا للغة فى رسالتى للبحث فى دلالة مفادها أن اللغة العربية نسيج عريض ربما خشن، ولكنها قادرة على امتصاص ألوان أى لغة بلا تمنع وربما تضفى شاعرية على اللغة الموظفة ، من قبل حكام ماديين لشعب عملى ، يتبادل فناجين الشاى ، يتهكم بعضه على الآخر حين يدير جذعه عن المائدة المكسوة بالقطيفة الحمراء ، التى تلامس بأطرافها حقائب دبلوماسية تحوى بعمقها إمضاءات الهوة بين لغة وأخرى ، فيبدو الأمر حين ينطق بجملة عاطفية للآخر الذى يرد عليها بعنف ، وكأن الأمور تسير بشكل حتمى إلى حروب طويلة لإسقاط

اللغة نفسها ، نفقد التوازن المنطقى لما نقوله ونعبر عنه خلال فاصل عبثى ومروع من المجازات والتقديرات الشخصية للجحيم الاستثنائى .

آن الوقت بشدة لمقاومة الصمت والخروج باللغة لاستعادة القدرة على مواجهة الآخر والكف عن الغضب من التجاوزات التاريخية .

تعال كما أنت ولكن توقف عن السعال وأنت سائر لصق نوافذى وعن بصق أدرانك فى ظل الضوء المصفوف بوهن عبر ثقوبها ، فما جدوى الكلمة حيال صباح لطيف ينبعث من الغيم بآلية ، أو انفجار مفاجئ لموج أرعن على جدار يحوط خليجا آمنا ؟

الأميرة النائمة لم تستيقظ على الكلمات، ولا اللعب الصاخب للأقزام ، قبلة وداع أعادتها عن غير قصد فى نهاية الحدوتة التى كانت أمى تستحضرها كلما طالبتها بحكاية مثيرة للنوم، حين كنت فى الثالثة من عمرى .

★★★

كوزموبوليتان

امـــرأة فى العاشـــرة

الصورة تستقبل على مستويين ، الأول أحادى لا يحتمل التأويل، و الثانى ذهنى خالص يتكئ على لحظية قد تصبح فيما بعد ذكرى كريهة لما يشبه حصد الأرواح بغير ترصد وبإصرار ، شحن الأجساد فوق عربات الكارو التى يجرها حمار يهز جسده دون أن يقدر على طرد الذباب المتكوم بتقرحاته ، أو بالجثث المضرجة بالدماء ، والمرقطة بألوية الخراب المنكسة بوداعة ، العنف وقسوة قصف الدور العتيقة بالقذائف المعجونة بالدخان المفاجئ يلف الأحياء بحرارة شديدة تصيب الروح بالعداء وفقد الرغبة فى التواصل .

– الله أكبر الله أكبر ... لا إله إلا الله.

تأتى نافلة الأذان من المسجد القريب وربما من عقلى الملسوع بزمن عينه الصفر الأول فى حياتى بخلفية خربة تنطلق منها الحكايات متجاوزة ذلك الدعاء الطارئ والمتداعى بعد كل غارة....

– من خرج منكم حيا فليحمد الله ويترحم على شهدائنا، ومن أصيب منكم فليصبر على ابتلائه إلى أن يقضى الله أمره ويرد كيد الكفرة من اليهود. . . الله أكبر الله أكبر

ثم تتردد دقات جرس كنيسة ما ليصطبغ صمت ما بعد الغارات بأصداء الرضا المتسائل والغفران المسيحى .

ولا مكان فى بيتنا لكائن معوق اسمه الحب. . .

– اكتفيت من الدخان والركام . . . و من القصف ، الفوضى جلطت أرواحنا ، حنهاجر يعنى حنهاجر ، عايزة أشوف النيل والخضرة والطين المعجون بالحياة والبشر الآمنين ،تعبت من الجرى لملجأ عتمة وخانق، مش عارفين نوصلّه فوق الجثت المرعوبة والا نلم حتتها المبعترة ... . حنهاجر .

هكذا قالت وهى تنتقل بين الطابقين المتدين طولا بسبب صغر قطعة الأرض التى كانت نصيبا لأبى حين وزع جدى الأنصبة بشكل غير عادل على الإطلاق ! مما اضطر أبى لأن يقبل هذا الدور إلى النهاية ، وتوثقه زوجته معلمة اللغة العربية بالمدارس الابتدائية التى تبدل طبقات خطابها بقواعد لغة الجنون الخاصة بها ككاتبة خواطر شعرية سابقة كانت لتنازع «نازك الملائكة» ، كما حكت عن زمن لم ألحق منه شيئا بينما هى ترفع رأسها وتسدد عينيها إلى سماء غرفة لم يزدها اتساع اللون الأبيض الذى يطلى جدرانه المتشققة والكابية نتيجة لغبار القصف المتتالى والناجح فى دك البيوت المجاورة .

بينما هو يقاوم بالصمت والعتمة الجبرية مثل بيتنا ، يحدق فى فراغ الفوضى الذى يطن عبر النافذة ، يقبض على الأشياء بعنف ساحقا روحها ، يهز مقابض السرير ويوصد أضلف الدولاب ويفتحها بغير داع ، كأن شيئا يسد حلقه ويعذبه ، لأن احتقان وجهه وجحوظ عينيه لم يكونا مألوفين .

لحظة التقيا كانت ممسكة بالمرآة الكبيرة ، وهو برأسه ، حدقا فى بعضهما مبغوتين باكتشاف وجه غريب فى الغرفة ، كانا وجهيهما ، تعانقا بعد أن أحكم هو وضع مرآتها على الحائط المقابل له ، فكان مشهدهما عبر المرآة محيرا وأنا أرقبهما من بين أغطيتى ، لم يكونا أبى وأمى ، كانا كبطلين فى الأفلام الأمريكية التى يعرضها الدفاع المدنى على شاشة حائط مبنى المطافئ ، يكتمان بكاءهما المتوقع ، أمى ترتجف كلية بين ذراعى أبى ، ثم بدأ حظر الكلمات فى بيتنا وسرى كل شىء صامتا .

. . . تعود الكلمات لتبدأ حيث انتهت . أسعد بجوار أندريا ، وأنا خلفهما خلسة حتى يفاجأهما وجودى ، نخرج إلى شط القنال عند معابر سيناء

نبحث عن الجنود المشردين الذين يزحفون للخروج بعبور حذر من أرض الهزيمة فى الفلوكات الصغيرة والرفاصات المسحوبة إلى الجهة الأخرى بحبل يشده تباعا جنود وضباط كستهم الملامح نفسها الفزعة والمدهوشة . كنا نتلمس طريقا لساحات التدريب فى فرق المقاومة الشعبية ، فأرد برفق الكاكى والأزرق لونان عامت فيهما المدينة التى تلقت دفعة القهر الأولى ، والزى أفارول ، فى يومين كانت لدى أبى أطنان منه ، تعمل ماكينته على حياكتها بعد أن يقيف أبى مقاساتها وأنا أتساءل لماذا لا توزع الأفرولات حسب الأحجام ، فيضحك أسعد قائلا بأن المقاسات كلها متساوية والبشر غير متساوين بينما لا يظهر منه غير رأسه وهو يسدد خيطا فى ثقب إبرة الماكينة السوداء ويحرك دواستها الحديدية بقدميه الحافيتين ، بين أكوام الأزرق الممزوج بالكاكى . دواسة الماكينة تقاوم الهزيمة بدوران آلى ، والخيال يتجاوز الأمتار المائة والثمانين التى تفصل بين المدينة والعلم الإسرائيلى الذى يختال بقدرته على حجب شمس الشروق المخوزقة بسن ساريته ، وقاربان أمريكيان ينزلان مياه القنال أمام الميناء ليضعا راية أخرى عند نصف مياه القنال تحت عيون المراقبين الدوليين .

★★★

عام أمضيه بدهشة قبل أن ينشط الدفاع ويدخل حركة الاستنزاف التى تهز الأرض المحيطة هزا بركانيا ، بقصف صهاريج البترول ، يغطى دخان الزيت المحروق فضاء المدينة والصدور لأيام . . تتعذر الرؤية والتنفس ، تمتص النيران الإطفائيين وتبتلعهم حتى لا يبقى شئ إلا خوذات مصهورة .

الغربان اللامعة والفئران الكالحة تهاجم البلدة وتستوطنها بأعداد تفوق فى كرمها موائد الوجبات البشرية سريعة التحضير بعد كل قصف ، حتى

أن مجموعة من الفئران شوهدت تتشارك قضم إصبع منثور بعيدا عن صاحبه المجروح والمتوجع موتا ، وسيل من الغربان يتجاوز السرعة منقضا لنهش قطعة لحم حمراء من جسد المسيجى المنسى- حيا وشهيدا -الذى قضى نجبه وهو يحرس مدرسة الأنباستير أو الأمباستير الإعدادية كما ترددها الأمهات ، عم جبريل الذى تفترش الابتسامة سمرته الداكنة وخواء المدرسة وقفرها وهو من كان . . .

يستوقف ولوج كل طالب ، يستقرؤه سطرا من عناوين الأخبار وموجزها ، وفى الفسحة يصطاد أسعد وأندريا وإيدجيث ليناقش معهم البيانات والتصريحات المتهادنة متفحصا جديتها ، لم يذكر زملاء مدرستى إلا بالعيال .

- نصدق والا إيه يا عيال ؟

- العيال دول ممكن يعملوا بلد صح .

- العيال تعبوا ف لعب الكورة .

- دول مش عيال دول أساتذة لازم نكبر بيهم .

- العيال جننونى النهاردة .

- أقول لكوا يا عيال ،، أنى عاوزكو تتنوروا أوى أد كده .

مدورا كفيه المتوثبتين كرأس كبير فارغ ثم ينكسها آسفا :

- الجهل زى الضلمة ، يفضل الواحد منا يتخبط فيها لحد ما يعمى ويوأع ميت .

العيال تقهقه كالرجال متباعدين وهم يبدون الطاعة المرحة ، يعود عم جبريل إلى دكته التى تتسع لأن يربع ساقيه ضاما جلبابه بفخذيه ، وابتسامته لوجهه ، إلى أن تحن الساعة الأخيرة لمعنى المدرسة ويقفش عم جبريل على أقفية الأولاد المزوغين من الحصص الأخيرة .

- أهى العينة دى حتخرب البلد ، اطلع يا عيل أنت وهو ياللا على فصلك، والله إللى حاشوفه منكوا تانى هحبسه ف أودتى دى وانتوا ما تعرفوش أودتى فيها إيه يا رجالة .

وبالرغم من أن أحدا لا يجرؤ أصلا على الاقتراب من غرفته ولو للفضول، فإن عيلاً منهم لم يتوقف عن التزويغ وعم جبريل لم يتوقف عن وعيده الغريب ، وأنا أشاهد من بعيد.

- لماذا يقصفون المدرسة ويمزقون حارسها ؟

سؤال غير إلزامى على أبى ، الذى يتناول نصف كوب ماء بعد قرص الأسكين ولا توقف الأقراص كل ألمه ، أو ألم قلبى الذى يرجف بمخاوف فقده قبل أن يدخل علينا بعد كل عملية يشارك بها .

يغير قمصانه التى يرتديها عادة إرضاء لأمى ، عوضا عن جلابيبه البيضاء التى تريحه وهو يعمل وقتا إضافيا بدكان للخياطة ، عوضه به جدى عن ظلم دام لأعوام طويلة متفرقة ، ضاعف تعويضه بشراء أول ماكينة تدخل مصر لشق العراوى ، أصبح أبى ملك العراوى فى المدينة وعلى خط القنال ، يحمل أسعد أكوام الملابس . . . جلابيب بلدى وإفرنجى وقمصان . . . يلقيها فى حجرة الطابق السفلى ، نقضى الليل أنا وأمى فى فك غرزات العروة عن شقيها بحرص شديد حتى لا نجرح الأقمشة .

★★★

ليس هناك مايشبه دخان الموت الذى التصق بصدورنا وأثار سعالا يقض مضاجعنا.

- الصلاة خير من النوم . . .

أى نوم هذا الذى يوقظه المؤذن ، و ليس هنا فاصل بين النوم والموت فى الليالى المقمرة التى كانت مناسبة طيبة للنيل للقصف المفاجئ للهرولة إلى

الملاجئ المقببة بالرمل وحطام البنايات الكبير ، حولها نمت بسرعة الخشاخش واللباد ، تتشابك لتصنع بوابة خفية لكهف يعانى ساكنوه الخراب والذعر الحقيقى وبالكاد نعثر على بوابته التى تعزلنى وأمى عن موسم التصفيات القمرى الذى افتتحته صفارات إنذار كريهة ، تظل تطن بأذنى إلى أن تحملنى قدماى بشكل لا إرادى عبر الخرابات الحديثة ، ومستنقعات الأشلاء المنقوعة فى الأحمر القانى ، عيناى تحدقان فى الموت اللطيف ، الذى أهل مباغتا على أولئك النبلاء الذين يذوبون باعتزاز بين أجوال من النيران ، أودعهم ابتسامة طاعته بروحى المحترقة فى الدمع الحار بغير تلويح أو مناديل بيضاء أو حتى اعتذار.

يفرغنى الهلع فى ملجئه الموحش المدمى بالضوء الخافت ونصف النيام ، أتساءل من أنا فيلفنى الصمت ، اغمض عينىّ لأطوف بشوارع وهمية ، مغسولة بالترف والأمن ، تنام تحت أقدام الأثرياء الذين يلعنون حربا حرمتهم التجوال بالشواطئ الرخيمة.

الجرح الذى أصاب يدى من نبات الخروع المحترق على جدار المخبأ يتفتح مصادفة ، تثير محاولات إخفائه اشمئزازى ومشاعر الذنب ، لأننى لم أحترق كلية مثلما كانوا يصرخون وهم يعبون النيران بأحداقهم الذائبة ، أتحسس كيف كان الوجع ، كيف التعاسة اكتملت ، بتوجعى الواهن من سخونة الجدران ، أسحب الألم إلى روعى من روعهم ، أردد بغير كلمات اغفروا لى أننى لم أكن هناك أشارككم رحلة الخروج عبر بوابة اللعنة ، فأنا مازلت هنا أنعم بالأمن المؤقت على مشارف ودعت عذابكم .

★★★

ترفع أمى كوب الشاى الأحمر وتهتف بصمت المدينة الخربة تلاعبنى .

– فى صحتك أيتها المدينة ، فى صحة أشجارك المحروقة كأشجار أفلام هيتشكوك ، فى صحة أضوائك المغلولة بالعتمة ، فى صحة مسجدك الذى شجت مئذنته وركعت معلقة بآخر سيخ حديدى صدئ يتراقص على أجراس الكنيسة التى تصطف مقاعدها فى عرض الشارع ، والمذبح يتأرجح بمواجهة الجدار المهدوم ، كلاكيت آخر عرض للآنسة سوزى وأبيها الشجاع أبطال مدينة الموتى . . .

عادة ما تنطق أمى بكلمات يصعب علىّ فهم مغزاها خاصة حين يتعلق الأمر بالحياة ، والحرب وتلك الأسماء التى تضيف إليها ألقابا وصفات تبدو كهلوسات لحظة اختناق ، تزأر بها وتعصف بتحملها حيث لا لياقة للألم. ترشف بعض الشاى وتهدأ قليلا ، فيما أبى يؤازر السلامة بالصمت . . .

– هى دى الجنة اللى وعدتنى بيها يا جالب السعادة؟

فى الأيام الأولى للحرب، خرج أبى يساند الجيوش العابرة إلى هزيمة محسوبة ، كان يركض قافزا خلف المدرعات التى تعبر للضفة الشرقية ، يدفع عجلاتها بيديه اللتين فقدتا الصلة بالجاذبية ، وكأنها طلائع أرواح عظيمة تتحرك إلى سيناء فى مشهد عجيب من نوعه ، فالصبية يتسلقون الدبابات فى رحلة نصر صوفية تسرى " لتل أبيب " ، حلم ليلى بغير حذر يداعب خيالات تمور بالعظمة ، وبعد أيام من وشيش الهوائيات وعجزها عن الحساب والوصف ، يعود الجيش بقاياه المثقوبة برمل صحراء فقدوها ، يقرض الظمأ أفواها محبطة لا تبوح بأية إجابة ، الصحراء أوسع بكثير من هنا ولا أحد يفهم ما حدث هناك ومن دبره ، أو لماذا تهدلت السراويل المصلوبة بالآيش ، وبغير ضرورة ننثنى ولا نمتلك غير الصمت ؟ لم يخسر أبى الحرب لكنهم المقاولون خسروها ، وتركوا لنا الخراب والأشلاء نقضى

النهارات في البكاء عليها ، حتى يوليو ٦٩، هاجمت منظمة سينا الفدائية موقعا لليهود عند لسان بورتوفيق ، وبدأت نهاية عادلة للحرب.

الحرب تقترب رويدا صاعدة بعدلها إلى السماء ، فيما أمى تطالب أبى بجنة فورية.

★★★

السماء مرعوشة بدرجات الأبيض والأحمر ، أشد ياقة البلوزة لأجنب رقبتى رذاذ الزبد المقذوف من خض الماء لموجه على جدار القنال الصخرى ، الممدود بحبكة خطوط خارطة تغادرها طيور الغروب المجذوبة ، إلى استغاثة الشمس التى تغرق الآن فى الخليج ، أنا سوزى محمد جلال أصلى بصمت لهذا الذى يصمه وجودى ، وخزنى عض الأسنان لشفتى الجافة ، استحضر ضميرى المضرج بأفعالى ، أو هى أحراشى التى ألجها طواعية ، أعانق أفاعيها وأصادق هوامها ، وأنا حشرة مكللة بسقف من النباتات الزاحفة ، أراقب بوجل خفى السبب فى الربط بين أكل اللحم وفعل الجنس فى ثقافة تزاوج فصيلين مختلفين يرددان معا ، من يعطى هو الخاسر ، وقانونهما المدرك من مدرسة الطبيعة ، البقاء للأقوى ، مع إيمانى ببعض الخير فى الآخر . . . أحيانا .

ألم يكن طبيعيا ومقبولا أن أمتلك القدرة على قول لا على الأقل كما فعل إيدجيث وهو يفند أسباب بقائه رغم أنه ليس مضطرا لذلك ، ذلك فى مناظرة بريئة يديرها أسعد بأمانة مع أندريا الذى لا يمتلك مقدرة التخلف عن الأسرة ، وكنت معهم أراقب وأتأمل أندريا ، كم كان جميلا ومشرقا يتصدر صورة الخراب البهى المرادف للكورنيش المهجور . . .

– كما أن الأمر لن يطول أتابع راديو أمريكا وأعرف لن تكون هناك حرب ، إنها مجرد غارات محدودة تحاول إرضاء المصريين والتدليل على

انتقال شجاعة عبد الناصر إلى محمد أنور السادات ، ربما شهر أصحب الأسرة فيه إلى الإسكندرية ثم نعود ، مجرد أجازه .

وكانت الأسرة اليونانية عادة ما تقضى الصيف فى الإسكندرية برفقة بعض الأقارب المقيمين هناك ، لم يكن هنا حتى سماء ، كانت محض خيمة بيضاء كبيرة رفعتها سخونة الجو إلى الفضاء الذى يشهد عامى الحادى عشر ، ولحساب السن فى زمن الحرب منطق آخر.

أتساءل بناء عليه أين سأكون فى الصيف القادم ؟ فلم يكن لدى من ثقة أندريا بالذات شئ ، وإيدجيث يقول: بالنسبة لى : أنا هندى مستهان به لأننا فقراء وريفيون ، لم يستطع أبى الانتظار ليسقطنى وطنى المنحاز فى دائرة التعليم ، جئنا لمصر ، إلى هنا ، أتينا السويس ولا أعرف غيرها فإلى أين أسافر أو أهاجر أنا باق معكم حتى لو مت فلن أرغب فى أكثر من أن تلقوا برمادى على كل مواطئ لعبنا وسيرنا ممكن يا سوزى ؟

أبتسم لا يدجيث وعيناى تلمعان بأندريا ،أخفى خجلى فى اسعد وهو بدوره يستر مشاعرى ، وفى الخياطة يساعد أبى الذى يرفض الرحيل بحسم وهو يقلع عن محاولة منع أمى التى تستمرئ ذلك وتدفع بحكم نهائى . . .

– حنسافر أنا وأنتى ، حاوريكى إزاى نعمل حياة جميلة ، على الأقل مافيهاش غارات .

وحين أغمض عينىّ بقوة على ذلك العالم الجديد ، لم أكن أرى غير صفحات سوداء لكراس فى حوش مدرستى المقصوفة ، يسيل فيها الرماد مفجرا رائحة الطباشير المسحوق بالخراب وصراخ عفريتى ، بينما أرى الحياة هنا فكرة مضيئة ، ربما يكسفها الموت عادة ، غير أن الناس تحت زخات القذائف العشوائية ، يبتسمون استجداء للموت أن يُقدر حاجة الحياة اليهم وأمى تحدث نفسها بغضب :

– اسكتى يا نادية ، الكلام عذاب مافيش فايدة ، وقال عامل بطل ، طب ما يورينا شطارته ويخفف عنى أو حتى يقول ماتمشيش .

في النهار أمارس تمردا قاسيا على أمي وفي الليل أعتذر وأشعر بالندم. في ذلك اليوم لم يكن الليل قد اكتمل وأنا أدخل في نصها مستدعية أكثر الكلمات إيلاماً . . .

– خايف علينا يا ماما ، لو حاجة حصلت لنا مش حيسامح نفسه ، أنا عارفاه.

– إنت عارفاه وهو عارفك، والله ما انتوا عارفين حاجة، عايزين تعيشوا زى العصابات

تتجاهل وجودى وتتابع مع المرآة . . .

– أهه بيرضى نفسه وخلاص ، زى أى راجل ، لكن باستهبال ، فاكر نفسه هيغلب اليهود بجد.

أستفزها بعمق ، أردد ما سمعته من أسعد . . .

– صهاينة يا ماما ، فيه فرق واسع بين اليهودية والصهيونية .

– وحيات امك ؟

– وحياتك يا روح قلبى.

كان الليل قد اكتمل وآن النوم ، أرحت ضميرى وقبلتها ، ارتفعت لأريكتى بغرفتهما التى ننام فيها كلنا منذ اشتدت الغارات واتسمت بالدوام. أراقبهما أبى لا يريح دماغه ، يظل يقلبه طيلة يقظته ، فى انتظار الضوء الأول أو صفارة الإنذار ، فنومى لا يدهمنى قبل أن يحلا ، أيهما أسبق . كانا ينامان متعانقين بقوة تعتصر ارتجافاتى وخوفى من السقوط فى النوم قبل الإشارة التى تبقى سرية لحين انطلاقها فى السمع أو البصر . هما أيضا لا ينامان . . . التنهدات الثقيلة تتحاور وتتشابك فى صراع يدوم إلى

أن يتشبع جو الحجرة بسخونة لا تبددها حركة الجرائد المروحية أمام وجهيهما الملتهبين بالغضب ، ثم جدال طويل بالكلمات التى يسكبانها كحرائق صغيرة. يزمع الليل الانتهاء وأبى راقد يحاول مغالبة اليقظة ، أمى تقرفص بطرف السرير الملاصق للحائط ، تقلب خصلات شعرها القصيرة ، تمسح عن كتفيها الرائعين لدغات الخوف . حتى ينتهيا إلى لا شىء ، جثتين متجاورتين يلفهما ضباب المقابر ، وأنا بالأعلى أحاكمهما معا ، فأحد عشر عاماً عاجزة حتماً عن فهم التحولات السريعة المتشابكة التى تشتتها صفارة إنذار تحذف احتمال ولوج صباح آمن إلى النوم ، نركض بطول حارة حمدى الخربة الخاوية إلى شارع الجيش الأوسع خرابا ، ثلاثتنا نهرب فى سنة شتوية هلت مبكرا لتشاركنا الركض مع ظلال آدمية ، نهرب من القصف بيأس ، فالمشوار طويل طويل من البيت إلى مخبأ ميدان الإسعاف ، لسنا نياماً كما يفترض بنا أن نكون ، الأحلام المبتورة مازالت تجذبنا إيقاعاتها ، حتى يوقظنا لوم أمى المتردد فى الطريق الكابوسى، ينجلى حال بيوته المهدمة بالسحر المغدق على محيطه كجمرة غير نهائية ولا مرئية ، نفح كلهب إلى المخبأ المقابل لفندق القنال الذى كان يزين بالأجانب وممثلى السينما البراقين، كنا كمريدى سيدنا عبد الله الأربعين غريبى الأطوار . لو سألنى أحد عما أراه فى ظلمة القبو ، لما قلت شيئا عن كرات الضوء التى يتفجر عنها احتفال كرنفالى بالقصف الممدود ، كصدى دوامى لأشباح ملونة تومض فى ظلمات الفندق ، تتلصص خلف أفاريز النوافذ الساقطة فى تشكيلات تجريبية لأكثر من مثال لكل طابق ، تلوح منه ابتسامات مؤنسة ومهدئة لارتعادات الجسد بداخل الخندق .

ولم يكن لأحد أن يسألنى عما أراه فلم أتعلم ضرورة الكذب ، أبى كان يتمتم بغضب اعتيادى لهذه الحالة ، أمى تدب الأرض بقدميها الصغيرتين

تحية للجميع ، البعض يضحك أو يبكى ، آخرون لا يعنيهم قصر الوقت أو طال ، سينتهى كل شىء كالعادة وسنخرج مبللين بالعرق أو البول أو الدمع أو الدم، سيان

المزيد من الركــام والجـثث ، ورحـلة للبـحث عن مـسكن آخـر مـازال صامدا . . .

- لأ بجد الغارة دى جامدة.

- خمستاشر صاروخ ف أقل من نص ساعة .

- دا غير إسهال الرصاص إللى بيشخوه ولاد الكلب .

- الله يقرفك .

- ماحدش شاف سعيد خاطر يا جماعة ؟

- أنا شفته كان بيدخل صفايح الجاز . . .

- وأنا ناديت عليه ، قال جاى وراك .

- ماداهية لو ضربوا البنزينة .

- وحتفرق إيه يعنى ؟

- على رأيك ، أهى نار بتاكل نار .

- وجتت بتتحمص .

- يا آخى منهم لله .

- منهم لينا بكرة نوريهم ونلبسهم طرح .

★★★

بكرة بالنسبة لى كان هو اليوم الذى أتم فيه عامى الحادى عشر بجمع أشيائى ، فناتج المداولات أحقية أمى باصطحابى ، وهما لا يدركان مشاعر سمكة تنتزع من المالح إلى الراكد العذب لأمى ، بكرة تنتهى طفلة تلعب فى البيوت المغمودة بالصواريخ ، تتلمس حواف جدرانها الساخنة ، تقامر

وأصحابها على البيت الذى يصيبه الدور فى غارة الليلة ، تزيد عدد حبات الباستيليا وصفافير الشفاه لأسعد الذى يفوز حدسه عادة وهو يطوف بنا الدور المرشوقة مذكرا كيف كانت بالأمس ، صبى مغرور لا يعبأ بأغنيات عبدالحليم ويبتسم مدعيا البله حين أصبها فى أذنيه كى يحملها عنى لأندريا .

– عبئى الأشياء المهمة ، الأغراض الضرورية ، الباقى حنلاقيه هناك.

– ماما خلينا ، خلينا مع بابا .

– إنت مجنونة ، وهو أجن ، فاكرينها لعبة ؟ دى حرب بجد ، موت وخراب ، جوع وعطش ، حرمان من بكرة أو حتى الساعة خمسة ، تعيشوا العمر تجروا من الموت ومفروض تعملوا كل حياتكوا فى لحظة ، قبل ما تقصف عمرنا رصاصة أو حتى شظية ما تساويش نكلة . هناك أمان ، يعنى حياة ، يعنى نظام ، فى الربيع برسيم ، شهر مارس نزرع عنبة ، الحول حاعمل كذا ، العيد فاضل له شهر .

أصمت وكأننى لا أفهم ، وكأن عرضها ناجح ، ربما يكفيها ، فتكف عن الدراما ليوم أو بعض يوم ، ليكن سأزحم بؤجى بالحجارة الثقيلة ربما تعس بى وأردها عن إصرارها .

– هم الستات كده يا بنتى .

– ليه يا بابا أنا مش عاوزة أبقى ست .

– مين قال هتبقى زيهم ؟

يهز أبى رأسه مضيفا أننى لست كواحدة منهن وأننى ظهره الذى لن ينقصم ، وأن شبابى سيدوم لمائة عام وأن الألم سيصنع منى شيئا عظيما وأن وأن وأن .

أبى وأسعد فى سكون المسجد متربعان وآمنان ، تنشق عن وجهيهما ابتسامة مضيئة وجانية ، كنت بالخارج أتوارى بالعامود الحجرى من رغبتى الساحقة في الاستجابة لدعوتهما والدخول إلى هذا البراح الطيب ، قاومت وبغير سبب . أهو الخوف الخجل أم الهرب الدائم من الفرص الجميلة ؟

– الآن سنجعل هذا الهروب ذكرى ، تعالى معنا يا سوزى ، سأريك شيئا لن تنسيه كلما دخلت باحات رطبة ومعتمة نوعا بالنهار ، سوف يصعد أمامك معلنا انهيار كل شيء به الموت الموت الذى سيظل يذهب بكل ما صدقت أدراج اللاعودة ، سوف ألقحك بمصله الشفاف لأننى أريدك أن تتربعى بهدوء وتشكرى الرضا الجليل ، الذى سيجعل من وجهك العادى ابتسامة كبيرة تفترش ذكرياتك الرطبة المعتمة .

مسافات ما بين أبى وأمى ، عالم حواديت بين الجبل والأرض ، والطين والرمل ، وأنا ماهية عمر عظيم يظنه أبى ، احفر موطنا للألم بداخل روحى ، كنت هنا وهناك بحثا عنه ، ربما المستقبل الذى سأمنح أبى صورته ، بكائية وعد مقهور ونحن نتجول فى المقابر بعد دفن قتلى الغارة الليلية فى القبور الترابية الفقيرة ، فى قنينات الأدوية والخمور الفارغة بالقدم، ندس أسماء الضحايا ، زجاجات معمورة بالهويات تتدحرج فيما بعد ويفقد الموتى أسماءهم، ما أخافنى كان فكرة فقد أبى بين زجاجة وقبر ، لأظل محاصرة برفقة أمى ، تمارس حياتها الثانية من خلالى.

– أنا باحلم لك باللى ماحلمتوش حتى لنفسى ، أمنحك ما لم أكنه ، تكونى أجمل وأفضل ، لازم نهرب ، الأعمار بتتقصف ليل ونهار ، وأنا مش عايزة أموت قبل ما اطمن عليك فاهمة ؟

يتأخر موعد الهجرة لأن مرآة أمى التى بطولها كانت أهم ما ترغبه من البيت ويستحيل نقل مرآة فى زمن الحرب ، خصوصا حين تكون بإطار

إسطنبولي دقيق الصنعة ومطلية بالذهب الفرنسي الخالص ، تحملها أرستقراطية قديمة وسليلة لعائلة سليم بك التركي- عشق الغلمان- فضيحته التي لم يقلل من شأنها سيره مزهوا ببزته الصوفية أمام الصقور الحارسة لمداخل القصر الصغير وحديقته التي تهديه منها ابنته الناعمة وردة بيضاء، لولا اختفاؤه الغريب ما كانت جدتي قبلت بابن الخياط البلدي زوجا لدرتها .

الأردية السوداء رتقت الطرقات البيوت منكسبة في صمت الطقوس السرية للحزن الذي لا يقاوم ، والذكريات ساكنة بإلحاح داخل الطلاءات والأنسجة الدقيقة للقلوب المحروقة بالثكل ، في كل بيت شهيد ، في كل بيت أيد وعيون تتلامس في الظلمة بأطياف الأحبة الذين راحوا مبتسمين ، لأيام مقبلة عطبها الموت ، وولت مودعة الشباب الزاهر بفتوة وحكمة ابتسرتا لحرب خاضوها بغير أسف ، لم يكن لأحد أن يميز أشلاء الحجارة من القطع البشرية ، فالدم والجمر يمتزجان ليصنعا ضريحا مفتوحا للحضارة والناس ، في شارع "صدقي" الذي تقيأ ركام أهله وبيوته على مربع بلاطات الطريق السوداء ، ما هذا الجو الذي يعبق برائحة الموت ومخاضه ولماذا هذه الصور تتابع بدلالة مختلفة للظل ؟ ، كنت أنا من شاهدت وعاشت فوق أكياس الرمل التي تنتصب منها الأر-بي -جيهات متلصصة تحت عمامات ثقيلة تفصل الخوذة عن المخ الذي ينز عرقا وخفقانا .

- القلوب لا تخفق وأنت تحاربين ، فهي بالفعل ماتت ، وللعقل أن يستخدم احتياطييه من الطاقة .

يقول أبي وهو يسير بي مع أسعد في عتمة المدينة لأعاين كل شيء يعرفه من الصباح إلى الليل ، وأبي ينطلق من صمته مدللا على المشاهد بالكلمات القوية التي تهز وجداني فضلا عما أراه فيقول: عندما يأتي المساء يكون

الموت بطلا شرقيا فى حياة تركن بانتظار الإرسال، صناديق الراديوهات تبث أغنيات النصر ودعوات العودة وبيانات الحمد والثناء للبطل المؤمن .

نحيب محموم على قبر غير مقصود ومناديل يعتصرها الدمع والانهزام فى ابن وأخ خال وعم ونساء لم يحملن سلاحاً ، العدودات تثير نحيبنا السريع على الذى فقدنا ونسه وطيبته النادرة ، رائحة الموت تهب على المدينة بأكملها وتصب فينا ، فى كل لحظة ، منذ قنصت بتكرار قبور الموتى الجديدة التى سنتها شريعة الحرب ، ينفجر الموت ذاته محفزا وضع استعداد حفار القبور ومصابيح الجاز ، التابوت ذاته للجثث كلها ، مجوفة كانت أو مشطورة، مقطعة إلى أجزاء غير قابلة للتركيب ، منسية لأيام تحت وخز الركام والعفن المتورم ، لا سبيل لمعرفة صاحبها إلا الحدس بالملابس أو ورقة صغيرة تتكوم كفراشة ملتهبة داخل التشظيات والثقوب ، أحيانا ما يحوى النعش أطرافا وسيقانا لا معنى لها ، الحفار يعمل بكامل طاقته كى يوارى سوءاتهم ، كان أمرا يشبه دفن الوجع فى الحزن والعيش بالموت فى غير مقاومة .

– عارفة ؟ اصطدت واحد منهم ببندقيتى ، جه برجله للمكان اللى طحنوه سنين "بابوجاموس" كان واقف عالنحاية التانية من الشط ، يمكن فكر ينزل يستحمى فى القناة من كتر ما فاكرنا عفاريت متربية ونايمة ، جبته بطلقة واحدة.

لأبى ابتسامة لا يتسع الكلام لوصفها ، ولو إنها بوابات وهمية لعوالم من الصفاء ، أمى تشن حروبا مروعة علىّ وأبى الذى يضطرنا للرحيل بدونه فتصرخ من سجن موبوء بالوعى والخوف من الموت :

– تريد الموت للاشىء غير أنك لا تقدر على الرحيل .

كل محاولات أبى للمرح كانت تالفة ، تتلقاها أمى بابتسامة محبطة لضحكاتى المكللة بدمع البهجة ، لم تكن ابتساماتها مصطنعة بقدر ما هى لاهية ، تصعد من عالم آخر يخص أمى وحدها ، كانت بالكاد تطأ بقدميها أبسطته الخضراء وتغيب عينيها فى سمائه المبقعة بالزرقة الرائقة ، وأشياء أخرى لم يبلغها وعيى ، كانت تتجول فى شوالها الأخضر ذى الأكمام الطويلة وسروالها من نفس قماشته ، جعلت أبى يحيكه لها فى ساعتين ، ارتدته وهى تردد:

- هذه الملابس تليق أكثر بالريف ، حشمة وأناقة ، دا اللى إحنا محتاجينه عشان ما نتعاملش زى غيرنا.

كانت تأتى ببعض التصورات المحكمة من جلساتها الطويلة مع المرتدين عن الهجرة بعد أن ذاقوا مذلات لم يكن هناك وقت لحصرها ، تصيبنى بشعور حارق بالذنب وأنا أحاول إقناع أمى بالعدول عن الرحيل إلى تلك البقاع المظلمة ، التى صبغت أرواح معارفنا وجيراننا بعتمة الشتات والامتهان .

- مش حنكون زيهم ، أنا عارفه حنعمل إيه ، كلها يومين وتشوفى ، حياة بجد أنا مش مقطوعة .

★★★

بينما ورثت أمى مرآة جدتى ، حمل خالى عاطف فضائح جدى وكنف جدتى العمياء ، التى لم تعرف إن كان زوجها حياً أو ميتاً بعد أن هجرها ورحل مع غريمها البريطانى الشاب ، بكل ذلك هرب خالى إلى مكان بعيد ، امتلكت العائلة فيه عدة فدادين وبيتاً ريفياً على الطراز الإنجليزى القديم ، كنا قد زرناه فى عام فائت وجل ما أذكره ابتهاج الفلاحين لرؤيانا وتبادلهم

مداعبتى بوجل يجعلهم ينحنون ، ولم أفهم أن السبب كان انتساب خالى البعيد إلى عائلة ثرية سابقاً ، وأن خالى نفسه طالب بكلية الشرطة ، ولم أفهم أيضا لماذا يربط خالى قطته إلى قائم السرير ، ويلطمها ببوز حذائه اللامع المذبب فى رواحه وغدوه ، ولكنه الآن لا يجد قطته فيزرع «طرقة» بيتنا الطويلة بغير هدف وهو يدلى بثبات يليق بضابط . . .

– انتوا مش مهاجرين ولا ديأولو ، انتوا حتعيشوا مغايا ، فكركم أسيبكوا للعشش والملاعب ؟ أنتى لحمى يا سوزى ، ما تسمعيش كلام أبوكى وترددية .

عند هذا الحد كان تصورى عن عاطف ، أنه الخال القريب إلى سنى ، والذى يصلح تماما لأن يصبح صديقا ، لديه الكثير لأتعلم منه : عالم من الفوضى والعبث اجتزأ حياتى ، من اللحظة الأولى لدخول خالى علينا ومصافحته المتغطرسة لأبى ، انتهت بسرعة وهو يرفعنا بنفس اليد ، أنا وأمى من عالمنا وهو يحرك كفيه المبسوطين لأعلى قائلا : ياللا لوا جاجتكو حنمشى حالا أنا ماعنديش وقت .

تنحشر فى الكابينة الضيقة ، بغير مقاومة تذكر فى قبلات أبى الدافئة لوجنتى ، أو فى عينيه اللائمتين لزوجته التى تشاغلت فى اللحظات الأخيرة عن الوداع ، تساعد أسعد والسائق فى إنزال أغراضنا إلى صندوق عربة النقل الصغيرة وتغادر ، أدير رأسى حتى يختفى أبى وأسعد ، ومن ثم المدينة بأكملها ، نخلف وجهها الخرب وراء صف من قطارات ابتلعت هدرها وحوصرت بالقضبان المنسوفة . ينسحب الطريق الإسفلتى مشققا ومحوطاً بصحراء ، نشق سجوها تحت وطأة الليل المبقع بنجوم فضية متباعدة تومض ، بشقاوة تفتقدها سماء المدينة الغارقة خلفنا فى ظلمة لا انتهاء لها ،

تتلقى العربة شفرات تبدو أليفة ، يهدئ السائق من سرعته حين يقبل سرب من المدرعات والمجنزرات المغطاة بالأقمشة السميكة التى بلون الطحالب ، ومن خلفيتها تبثق المدافع متوسطة صفين من الجنود ، تخترق فوهاتها الفضاء الضيق بين كل مركبة وأخرى ، يوقفنا جندى عملاق مشدود فى بدلته العسكرية ، يتبادل وخالى تحايا رسمية تعفى بصلابتها خالى من إبداء أسباب سفرنا الليلى على الطريق إلى القاهرة محطتنا الأولى للجنوب ، يستعيد خالى مكانه بالسيارة ، نصطف بعده بينما السائق يرمقه بتهيب بالغ يلجم لسانه الذى كان مرحاً طيلة الوقت ، يتحدث عن المدينة التى كانت والهجرة المستمرة لأهلها ، محل بقالته الذى دمر بنجاح ساحق فى قصف ليلى فجر محتوياته على قارعة الطريق ، أيام وليال قضاها يحاول فصل السكر والدقيق والشاى والسمن والأجبان ، زجاجات الخمر والإسباتس والكينا عن التراب والهدد . . . دون جدوى . . .

– بلد خيرها كثير وناسها نزيهة خسارة العوض على الله .

يشعر السائق بأهمية خالى فيتحدث عن جدية الاستعدادات هذه المرة قياسا بالمرات التى فاتت.

– الحكاية المرة دى جد ، سيعادتك لو تشوف الأسلحة اللى بتعدى كل شويه ح تصدقنى.

★ ★ ★

وفى الهجرة تتراجع حياة وتهل أخرى ، عالم يفرغ ويتم استبدال قاطنيه بآخرين جدد وطفيليين إلى حد مخيف . أنا الآن نصف مهاجرة ، محاصرة بين الطريق الزراعى و مبنى إدارة الرى ، بيت العائلة يتصدر أرضها غير الشاسعة والمنتهية عند مكتب التليفون الوحيد فى البلدة ، آخر صلاتى

بالمدينة ، بأبى وأسعد وحميدة ، ترافق الوحشة ظلى ، أخوض فى روث بهائم الغروب وحيدة تماما .

اصطدم بامرأة قفزت من نافذة حجرة خالى ، تلتقط أنفاسها ، أمى تحاول تهدئتها وضبطها وهى تسوى ثوبها وشعرها الذى تحكم فوق خصلاته المتهدلة غطاء أسود سميكا . . . وما إن تنتهى ، تهاجمنى المرأة الفتية و تلطم خدى بصفعة بائسة قياسا لرغبتها فى الانتقام من خالى .
كان ممددا على فراشه منتشيا ، يهز قدميه مبتسما لصراخ أمى فيه . . .

– مجنون . . . إنت عارف دى بنت مين ومرات مين ؟ عارف هيعملوا فيك وفينا إيه ؟

– هى إللى جات برجليها .

– عشان تنام معاها ، مش تحرقها بسجايرك وتقطع جسمها بسنانك يا بن سليم بك ، بتحبك ياغبى .

– تحبنى ؟ ها ها ها ، إنتى عبيطة ؟ دى بتحب البدلة ، وبتطارد ظابط الشرطة ، مومس رسمى ، لو احترمتها أخليها تمسح جزمتى .

كان صعباً فى البداية ترديد الكلمات الجديدة باللهجة الريفية الممتدة مثل رحلة دائرة رغيف الخبز الكبيرة من المطرحة إلى عمق الفرن الطينى الذى ينفث دخانا مفاجئا لا يلبث أن يتبدد عند تمام تقبل سطحه الساخن لرقاقة الرغيف ، كنت أتجاهلها وأردد المفردات ذاتها بأدائها الطبيعى والمستقيم ، أداءً أو ترتيبا للحروف . . . من زاويتنا على الأقل ، أنا وأمى وخالى الذى ظل محتفظا بلهجته الطبقية طالما ليس هنا أحد من أهل البلدة، أبدو كالمتعثر فى النطق حين يصر على رد الكلمات لأصحابها بطريقة خاطئة لا تتجاوز تخلفه السمعى ، ذلك أن وجودنا فى بيت العائلة ، أتاح الفرصة للعديد من متلصصى البلدة ومروجى أخبارها بدخول متكرر للبيت ، بحجة إسداء

خدمات بسيطة ، تستلزمها تفاصيل الحياة المختلفة تماما لما اعتدته وأمى فى بيتنا بمدينة تجاور البحر والميناء ، والتى يرد ذكرها فى سير عجائز البلدة ، حين سعوا للحج ، وسردهم شديد الإثارة لروعة دور القرميد الأحمر المصفوفة على جانبى الطريق ، تشبه محطات القطار التى بناها الإنجليز ، ولكنها تمتد بمسافات متساوية بين شجرة وأخرى تتيح رؤية المداخل والشرفات الخشبية ، كانوا يحكون بوجد عن البواخر العملاقة التى تمخر الممر الضيق للقنال ، وتبدو من بعيد كقطعة من المدينة تسقط فى البحر الواسع بتأن ، فوق لسان الخليج الممتد من فم عتبة الرسول المسماة بـ «سوس» والقلزم والسويس.

أصبحنا كأسرة غريبة لا تخلو من ثراء ظاهر وسلطة مستقبلية لخالى عاطف طالب السنة النهائية بكلية الشرطة ، نعامل باحترام لا يخلو من رهبة، من قبل أهل البلدة ، وبحب لا يخفى فى اعتناء بالغ ، رغم سحابة الاستعلاء المطرة بالرشوة من قبل أمى التى كانت لا تسير إلا وخلفها من الحمالين ما يضيف لوجودها زهوا يليق بها فى الواقع ، فلون بشرتها الأبيض المسبوك بالحمرة ، وقدها المياس فى امتلائه المحبوك بفساتينه الداكنة الضيقة بسبب الحمل الذى اكتشفته ، بعد مرات من تقيؤ ، عزته فى البداية لطعم المياه وشكها فى نقاوتها ، كان يجدر بها أن تكون هانم حقيقية تقف بمصاف نجمات السينما ، تنضح بالكرم وهى تهيمن على جغرافيا عالمنا الجديد ، الذى حدوده تنتهى بالنسبة لها عند مرآتها الصماء التى تعتنى بتلميعها قبل كل مرة تتوقف عندها طويلا مخترقة الأزمنة والمكان.

أنا أختنق هنا برائحة الدهن "المسلى" التى تعبق غرفة جدتى المجاورة لحجرة الخزين ، والتى أصبحت مخزنا كبيرا للطبخ وملحقاته بعد إضافة موقد المصانع الحربية الغازى أول بدعة تدخل هذا الريف الساكن ، وفى

المساء يتحول المخزن إلى ساحة للفئران المزهوة أمام قطة خالى السمينة المربوطة إلى سريره ، متناولة الطعام والركل بقدر متساو .

أمى نائمة فى آلام حملها ، وجدتى ترشق شخيرها فى عتمتها الدائمة وفي سكون كامل ، يظلل بروعة المقابر التى تخترق شواهدها ضو القمر الملتهب بالبرودة المحجوزة خلف نافذة موصدة ، حصار قاتم ، يتولى فيه خالى دور الأب ، والجدة دور أمى التى تغيب معظم النهار ، لتعود من رحلتها إلى المدرسة البعيدة بأطراف قرية ما ، محملة بالتراب وأوجاع تقضيها بقية يومها رهينة الفراش والمرآة ، تتحدث فيها وهى تشد ثوبها الفضفاض ، فيتكور بطنها بشكل موقظ لتقلصات وجهها ، من ثقل الجنين الذى سدد إليها فى ليلة رعب ، غلبنا النوم فيها ، لم نسمع صفارة الإنذار التى لم تنطلق أصلا ، فوجئنا بغارة صباحية تسبق الشمس ، قصفت الضوء المبكر وخنقته بالركام والدخان واليقظات الميتة لأكثر من نصف الجيران ، اتخذت وضع الجنين فى نومى كما اعتدت ، رأيتهما من عينى المظللتين بساعدى ، يفوران ويتموجان تحت اللحاف الفستقى الباهت ، أبى وأمى اللذان كنت أنزههما عن كل شىء ، استبدلت قداستهما بكراهية حرجة مستنى بعمق ، بينما أحاول إغماض عينىّ عن شهاقهما المكتوم .

★★★

فكرتان لازمتا خوفى بهوس ، أن يموت أبى فى غارة وأُصبح معزولة نهائيا عن المدينة ، وأن تموت أمى وهى تلد وتدفن هناك عبر النافذة الطويلة عند التقاء البساط الأخضر بالسماء المبقعة بالزرقة الرائقة ، أمارس بالخيال ضياعى فى هذا المكان المقيت برفقة خالى وهو يمارس مراناً أمنياً قاسياً على كل ما يحيط به ، وجدتى العمياء التى تردد عدوداتها لاعنة عبد الناصر والزمن الذى أودعها الظلمة النهائية ، تلك المخاوف دفعتنى إلى مصادقة

الأسر المهاجرة لأعاين صنوف الإهانة التى يتلقونها من الجميع بلا هوادة ، حتى الرياح الباردة التى تخترق أبدانهم المكومة فى جارات الإستاد الرياضى المقسم جغرافيا بالملاءات وبطاطين الشئون الاجتماعية ، وأنا أحاول التعايش بمعزل عن المدينة ومن تركتهم فيها ، أبحث عنهم فى جولاتى، فألمح أسعد بجسده النحيل وعينيه المحوطتين بأهلة سود ، وهو يدير رقبته طويلا ، ثم يتوقف يصب بقلبى شفقة عظمى عليه وهو يتبع سيرى برفقة أمى إلى هجرتى الجبرية ، ذكرى أندريا تمخر بخليج قلبى ، فينشق كموج يفسح لضوء الشفق ، تحت وقع أغنيات حب محاط بأطلال مطمورة خلف ضباب القرية الملقاة من نافذتى ، أسوح بإيقاع الجاز والروك الذى كان أندريا يوهج بسحرها الأضواء المزينة للحوائط وقطع من أثاث زاهية ومرحة ، تملأ بيت أسرته بهوس وخرافة أخته الكبرى ، مدموازيل ريبيكا المدرسة التى تصبغ شعرها بألوان ساحرة ، تشقها بنظارتها الأنيقة المتوجة لقدها بالغ الفتنة فى الثياب الهوليودية المقلدة بعناية لمارلين وصوفيا وجين فوندا اللائى يهيمنّ على شاشة سينما شنتكلير الصيفية ، كنجوم بسماء صافية، كانت الأسرة تتحرك فوق شغاف وعيى ، كل شىء يبدو مثاليا وكاملا ، حتى الرجفة المنتشية لريبيكا وهى تبتسم لحلم فى برودة طابور الصباح ، وخروجها السريع من الفصول بأداء امرأة فى مهمة رسمية، أوقفت تجوالى الخائر فى دورة عبثية لعد فصول المدرسة التى لا تتعد الطابق الأول الخشبى. . .

- بونجور مدموازيل ، كومون سافا ؟

- جى سوى بيا مرسى .

- كيسك فرانس ليسو.

- جى نونبا . . . مى بيا .

- برافوو ، فرنساوى بتاعك ممتاز . . . آتوت لور .

ترحل وهى تسوى جونلتها عند فخذيها بعظمة تدفع بى للحجل فوق طوار الفناء حتى يقرع الجرس ، و يحين الوقت لـدرس الفرنساوى فى بيتها ، فى غرفتها وردية اللون والرائحة ، غابة من التفاصيل الأنثوية بارعة القيمة ، تشرف عليها الجدة النقية التى تتحرك ملقية سخطها الإجريجى على الأرائك ومسامعنا ، ونحن نتلقى دروسنا الخصوصية من ذلك البيت المدهش الذى حوط الكورنيش شرفاته الخشبية ، مدخله الواسع يحفظ فى ظلمته صوت ارتطام الموج ورائحته - بخيالنا ، نحمل أقدامنا إلى درجات السلم الخشبى الملتوية ، حتى الباب المزين بأجراس الكريسماس والأفرع الخضراء المستديرة حول طاقة الباب التى تطل منها أم أندريا فتبدو كالعذراء وهى تدير عينيها الواسعتين تسأل :

- مين ؟

وحين تفتح الباب تلفنا روائح نادرة نملأ بها ذاكرتنا ، قبل أن نعتاد حلاوتها ، نصبح جزءا منها ونحن نخفى نظراتنا النهمة للأم التى تحوط خصلاتها البنية بدخان سجائرها الكثيف ، وهى تلعن قدرها الذى أخذ بأمنها ، وسلبها فندقا بناه جدها ، أصبح مقراً للاتحاد الاشتراكى .

نسعى للحصول على صداقة ابنة مدام ريبيكا التى تتناول كميات مروعة من الحلوى ، تجعل منها طاقة لا تنفد من الحركة والصخب والرفض ، ترسم خواطر وحشية على جدران غرفة الدرس ، كفراشة دموية تتشرنق فى حولها الثالث إلى فضاء العنف ضدنا أصحابى وصاحباتى ، ننتظر بولع ولوج ابتسامة أندريا التى تجعل من الفرنسية لغة جديرة بالشعر الغزلى والخيال حين نسمعها ممزوجة بالعربية القوية .

- بونسوار يا صعاليك - وكانت صعلوك هي السبة الرسمية لأندريا - إتأخرتوا بوركوا عندى ليكوا سيبريز كبير ، التانجو الأخير فيلم لمارلين جالى .

تتسدل اللوحة البيضاء فوق السبورة ، يدير أندريا آلة العرض ، أفقد أنا الفيلم بأكمله لأقضى الوقت بوجه أندريا ، وأنا أعلم أن أسعد بجوارى يتعمد الحراك ليشتت ابتسامتى الخاصة التى تلهب وجهى كلما لاح أندريا فى الإضاءات المنعكسة لشاشة العرض .

★★★

يتراءى أندريا الآن فى الأضواء الخافتة التى تتلصص من قرية غافية تحت الصراخ المكمم الذى يحط على سمعى متقطعا - أستطيع الجزم بأن الهرم وطأ وللمرة الأولى ، روح البنت التى كان اسمها سوزى وتحب العنب الأحمر ، تخاف اللون ولكن بحب ، كما اعتادت أن تهيم كدابة عجوز ، من غير أن تضل عن غابة الوداعة والأحلام المترامية خلف المتاهات المضببة بدخان الحروب ، عند كل مرة تنتعل حذاء بمقاس أكبر ، وتبدل قصة فستانها الأحمر ، بالخيال وحده تغادر نافذتها ، تتسلى بالألعاب النارية وهى تطارد أشباح الغيم الموحشة بالولع ، لم تعد طفلة فتركت حضن أمها الساخن بمرارة جرها عليها زواج بائس غير متوافق ، تبحث سوزى عن البصيرة فى الظلمة المتقدة بضوء القمر البارع فى رسم لوحات من الشجن المتربع فوق النفوس المعدة للشقاء ، تتأملها وهى تفقد كيانها وتنسى وجودها القديم بمعاقرة العجز الإجبارى بعد تصويبة مسددة فى هيكل الاكتمال والتظاهر بأن شيئا لم يكن ، وأن ما رأيته فى تلك الليلة كان خرقا كابوسيا ، حتى ما سمعته من صرخات " خيرية " المهاجرة فى الرابعة عشر

والتي تكبرني الآن بعام وتشبه كثيرا حميدة أخت أسعد ، لم يكن أعلى من صراخ قطة خالى تحت ركل حذائه ، الثلاثة الذين كانوا يتناوبون الرقاد فوقها ليسوا من صنع خيالى ، الدماء التى كانت تتجلط بسرعة فوق فخذيها المكشوفين للصقيع لم تكن دماء العادة التى أخافتنى وأنا فى العاشرة من عمرى .

كنت أقف خلف العشة ، أتلصص بلا إرادة بين أعواد الخوص الهشة ، انتصب الشوك فى جسدى ، بالسكين الذى غاص بظهر حده بين كتفى ورقبتى ، ليس تماما كما فعل يوسف شاهين بهند رستم ، كان واحدا منهم لم أره وهو يغادر العشة المثلثة التي تبدو من الحافة الأخرى للمدينة كشبح يأكل القش على حافة واد ، فالرؤية كانت محدودة بالبقعة التى تمددت عليها خيرية وثلاثة يتناوبون سحلها بعد أن نجحوا فى سحبها إلى الخص الذى لم يكن يشبه ذلك الذى أراه فى تمثيليات التليفزيون ، ليقضوا ليلة استثنائية بعملتين معدنيتين فئة العشرة قروش مستديرة وكبيرة ، إضافة درامية تتفق وأفلام الستينيات .

– لو جلت حاجة لحد حاجطعك بالمطوة دى .

– سيبها .. أوعى تعمل حاجة .

– وليه يعنى ؟

– خالها عاطف باشا يا بهيم .

– بس دى أحلى م البت خيرية .

– تيجى بكره وتاخدى ريال .

– ريال إيه يا لوح دى تستاهل جنيه .

– إمشى يا شاطرة .. إمشى من هنا على طول وإياك تقولى كلمة .

يدفعنى بقوة فأركض ، امسح ذاكرتى بالتعثر والسقوط ، أسفّ التراب المندى الذى كانت خيرية تحب مذاقه المثير ، حفلة التعدى انتهت ، لم يظهر بطل يريح الأعصاب المشدودة على المشهد حين يعود بالضحية إلى فراشها ويسبل عينيها بقبلة نبيلة .

★★★

كلنا سنستريح لو تركنا المقاعد ورددنا أن ما رأيناه كان من صنع المخرج ، وأن الأرق الذى لازمنى ليلا ، والوخز الموجع لقلبى وحواسى المحدقة فى عينى خيرية المحفوظتين فى إطار الوجه المتقلص بالرعب ، محض أشياء وثيقة الصلة بهلوسة أمى لمرآتها ، وهى تستعيد عمرها المشطور بالرحيل النفسى عبر مرافئ الاغتراب ، تحمل هموم ذات مترفة وفقيرة ، تحاول إزهار تاريخ العائلة فوق الفدادين التى سلبت منها ، ولا تحصل منها إلا على القليل الذى يسمح به خالى لأن – الورث يتورث – ، لو استطاعت بيع نصيبها الذى يتعدى الفدانين ببضعة قراريط ، فسيصبح بمقدورها بناء بيت خاص بها ، تحتفظ فيه بحق الاستقلال بتربية طفليها ، أنا وأخى الذى وضعته حديثا .

كان القطار الذى حملنى اكثر هدوءا من بيت العائلة ، أسقطت كل الخوف بين العواميد المتدفقة ، عبر نافذة القطار تبدد كل الخوف الذى شلنى لأيام طويلة بحق ، وأخذتنى السماء بعيدا عن مصير " خيرية " التى زارتنى فى اليوم الثالث ، جلست بجوارى على البسطة الثانية لباحة البيت ، حدثتنى عن كل شىء نعرفه إلا تلك الليلة ، كم تمنيت لو أشارت ولو من بعيد لأوقفها ، غير أن الحكايات الاعتيادية ، عن كوميديا المهجرين السوداء ، استنفدت الوقت ، لكنها أرتنى عدة عملات كبيرة من فئة العشرة قروش ، فعاودتنى الوجوه الثلاثة المخيفة ، تلح على هربى من مصير لم يكتمل إلا

حين أقبل خالى ، يبحث عنى بضراوة ، يجرجرنى من ضفيرتى المثنيتين ، يسقط رأسى بين قدمى أمى وهو يصرخ فى كل شىء.

– البت اللى كت مصاحباها لاقوها مقتولة ف آخر السوق ، شوفى بنت الكلب دى كانت بتتسرمح معاها فين .

لا أستطيع البوح لأن الخوف كان يلازم وجعا يسرى بانتظام بين كتفى ورقبتى ، ولان محراثا يعمل فى ذاكرتى ليهوى بما رأيت فى نفق النسيان – الأمر بالنسبة لى بدا كما لو لم يكن ، لا أعرف أكثر من أن بنتا غلبانة كانت تشاركنى الكلام وتؤنس وحدتى بزياراتها وجولاتنا معا فى شارع البحر الذى يشق البلدة بالعرض ، تتساءل عما هربنا منه إلى هنا ، تستعيد معى شوارع مدينتنا المرصوفة ، ونشم رائحة عيش الحمص المخلوطة برائحة السمك المشوى فى فرن " شوشة " الذى يحمص العيش ويشوى السمك فى آن واحد ، نتذكر نط الحبل ولعب الحجلة فى جنينة الفرنساوى التى تطل على الخليج الذائب فى القناة ، وماذا أيضا . . . لا أذكر ، ذلك كل ما كان يربطنى بخيرية ابنة عم كحلاوى الصياد، الذى لم يعرف كيف يوفر قوت عائلته من الصيد فى الماء الضحل ، فالسمك فيه – معفن – ، كما كان يقول وهو يصب بعض الماء على طست الأسماك القاتمة التى ما تزال حية تنتفض، ربما مثل خيرية التى قتلت بجوار ثوبها الذى تشرب بكل دمائها قبل أن يجدوها ، هل أصرت على زيادة القروش بعشرة أخر ، فتم تهديد جسدها الذى يتمنع ، ربما حسمت المساومة بالمطواة التى انغرست فىّ من قبل ، فبكت وكادت تصرخ ، لأنها أرادت حقها كاملا . مدية مسنونة وصراخ، قمر محبوس خلف خوص العشة ، يعود بها إلى شوارع تذوب فى الخليج الهادئ ، فرن شوشة وجنينة الفرنساوى .

عيناى كاميرتان تتابعان مشهدين وأبى بطلى أنا ، على شريط ضيق ، يكمل إجراءات خروجى ، دعاه خالى للبقاء هنا ، ليرعى أسرته التى أضيف إليها ولد يحتاج أن يحيا لأجله.

- أنا باجى على طول ، مافيش مشكلة لو الهانم تحب ترجع معايا ، تتفضل.

- ما ينفعش ... خليك إنت .

- أنا كمان مش فاضى ، باسافر وأرجع كل يوم .

- وأنا ماقدرش أعيش عاطل .

- عاوز تفهمنى إنك بتشتغل ؟ هو فيه حد فى السويس من أصله ..

- إزاى ظابط ومش عارف الشغل إللى هناك .

- هى مش الحرب خلصت وعبرنا ؟

- عبرنا بس لسه الحرب ماخلصتش .

- خلاص خد بنتك معاك واتحمل مسئوليتها، دا سن خطر، وأنا مش فاضى، مش فاضى.

يهمس خالى لأمى وأسمعه بوضوح: مش حيقدر يعيش بيها هناك، يومين ويرجعوا خليكى عاقلة .

يصطحبنى أبى فى رحلة نصفها بالقطار ، يحاول التودد إلىَّ ، لم أعد أتذكر كيف كانت الطفلة التى تركته منذ ما يزيد على العامين ، راحلة مع الأم والخال ، إلى عالم تكيف تماماً مع آلة دون كيشوت ، كنت أشعر بحيرته وأنا أتعلق به بقوة مخففة وهو لا يتوقف عن إقناعى بالعودة إليهم ، والامتثال لخالى إلى أن تنصلح الأمور فى البلد لأن الوضع غير مهيأ ولا آمن لامرأة صغيرة مثلى ، إنتقلت إلى جواره ، رميت رأسى فى صدره وبكيت ، احتضننى بتفهم خلع الخوف والشلل عن لسانى ، انطلقت أثرثر

بأشياء كثيرة إلا ما حدث هناك ، سوف أطهو لك ، أغسل ثيابك وأكويها بالمكواة الحديدية الثقيلة ، لن تسيح منى الأزرار كما ساحت أزرار مريلتى البنية وأنا أحاول كيها ، ضحكنا حتى هبط النوم برأسى على فخذ أبى .

★★★

الخليج مردوم بركام البيوت المدكوكة على الكورنيش الذى أصبح ذكرى موجعة ، كل الأمكنة تلح بقسوة مقاومة لقوة صفارات الإنذار ، حين تنطلق ممتدة وجارحة ، لتعبئ حافلات التهجير المكشوفة بالبشر المهانين بشدة ، من حمقى لا يتفهمون الفزع وتشنجات الألم المجمدة ببرودة الموت ، قطع من الحياة تودع بثلاجات الموتى ، لا أحد يعلم لمن تحفظ كل تلك الجثث ، الوطن ؟ الله ؟ الشعب الذى لن يعرف أبدا ما يحدث هنا ، وما حدث هناك؟ فى متاهة الصحراء ، ولن يطلق عيونه بباطن الرمل لتحصى حجم الإبادات الجماعية لكتائب جيشه ، روحه المحظوظة لن تمس لونا من مستنقعات الموت والخراب . . . الرمادى الذى يثير الحزن ، الراحة النهائية فى الأسود ، والأحمر الذى لا يمكن منعه من السيلان بالحيوات المقصوفة إلى فناءات العدم ، وأبى فى نهاية الردهة يصرخ .

– كونى مستعدة للحرب وأنت نائمة ، انطلقى بسلاحك قبل عدوك .

من يصوغ هذا الجنون ومن يوقف تحليقه فى الفضاءات بقناصين لا عيون لهم ، أحبك أيها الموت المتسرطن فى خلايا المدينة المقفرة ، أواصل مطاردتك تحت الأنقاض وبين الحرائق ، حيث تتخفى فى أى وجه شاءه معذب . . .

وسائد الرمل الخشنة تمزج الأحلام بكوابيس ما قبل اليقظات المفاجئة المذعورة بزئير مدفع " أبو جاموس " الراقد فى عرينه بعد دكه، يلفظ لسانه فى غيبوبة طويلة.

أنام متكومة مهما اتسعت الأسرة ، لا أجسر على التمدد أو إلقاء أطرافى فى الفضاءات المتاحة خشية فقدها ، ويا للهول الموقظ إن فعلت سهوا ، أعود لأتكوم فى دوائر دوامية من النوم المهدد بطلقات خائبة ، يربت أبى على يدى بعددها ، يحملنى فوق أسنام الشجاعة الافتراضية ، إلى ثلاجات القتلى ، ندلف معا الردهة الطويلة عبر الحياة إلى الموت وأسعد خلفنا ، يتمدد النفق وتلتمع الجدران بوهن تحت أضواء النيون الضعيفة المتصلة ، يجتاز أبى مربعات الموزايكو ويشير إلى المقابض اللامعة للدواليب الغائرة بالجدار المعدنى ، تمايزها الأرقام المحفورة بدقة ، يسحب أبى قبضة عشوائية فينشق فراغ القاعة على الرعب بذاته، يتمطى باسطا أذرعه، يطلب القليل من الرحمة بى وللمرأة التى تحتضن وليدها ، ربما كما كنت وأمى منذ بعيد ، أشعر بحضنهما قبل أن يذيبه الشر المعبأ ، فى الطائرات المحلقة فوق سبات مخيف لكتل من اللحم المعجون فى العظام المطحونة ، لا هوية ولا سمات ، فقط الموت بصوره الممكنة وغير الممكنة ،أجزم بأن حواسى كلها ضمرت وتقلصت فى تلك اللحظة ، وكأن من يشاهد ليس أنا ، نصف كلام أبى ابتلعه فراغ الثلاجة المظلم ، وعاد يدوى بعمق ، يوقظنى من الإمعان فى الموت القبيح.

– أنت الآن امرأة صغيرة ولكن حرة . . . صوبى ، حددى هدفك وانطلقى إلى الرأس مباشرة ، فيكون الخلاص لك ولهدفك .

★★★

أسوأ ما يمكن فعله فى هذا الجو المحاصر ، أن تتطهر سوزى التى كان عليها معاودة صوم رمضان بعد انقطاع الطمث ، أصبح العالم معقدا وبشكل كامل، خاصة وأنها قد خاضت مؤخرا سجالات عديدة،فأدركت أن مسيرة الأمور يشوبها خلل ، الحرب انتهت بالنصر كما تعلن الأغانى

المكتوبة فى عجالة ، واقع الأمر، أنها ارتدت إلى حصار من جهات ثلاث تتقاطع عند الطريق إلى القاهرة ، تدك تهديدات الوقت الضائع ما تبقى من مدينة مرت بها كل ويلات الحرب والآن تصدر أوامر للشعب والجيش – القتال حتى الموت – وهناك احتمالات أكثر وعورة من الموت ، هذا ما علمنى أبى وهو يعرض لى ثقبا أسود يفصل بين الحياة والموت، فتضيع فيه كل أحلامى التى سأهملها طويلا وأحل مكانها كوابيس تلتصق بى بفعل دفعة الهواء الساخنة التى لطمت وجهى وارتعد لها كيانى ، وأنا أخرج من مبنى المشرحة المعزول عن طرفى المدينة بين حزم الخوص الشيطانية التى نبتت وأحاطت بالسور ، تصدر صرخات محمومة كلما اصطدمت بها الريح.

صعد بى إلى الشاطئ ، ليعلمنى كما علمنى من قبل العوم كيف أحدد هدفى وأصوب إلى الدماغ وأنا لا أفكر إلا فى لحظة خلاصى ، إما الموت أو الصواب ، بينما القصف والدمار يفجران قروحا تتقيح سريعا، فيكون البتر هو الخيار المتاح، لتمتلئ المدينة بالأطراف المعلقة فى الخيال.

فاجأنى أبى وهو يرديهما قتيلين، فشعرنا بالراحة التى أدركها وهو يصوب عامود بندقيته جهة الشرق ويحدد الهدف بمنتهى الدقة ، قنصهما تباعا بطلقة تلو الأخرى وبلهجة مدوية ، مت فيموت ، مت فيموت ، تلك الراحة احترقت فى الدقيقة التالية ، وكأنما هى لعنة تتوج انتصاراتنا المؤقتة وتتركنا للندم والخوف من الخطوة التالية ، فقد كانوا ثلاثة من الجنود يربضون على الجهة الشرقية من القناة ، يتابعون مقاومة حقيقية ، ويتلصصون لمعرفة حقيقة للأمر وهل سنقاوم أم لا ، الثالث ، نال الفرصة كى يعاود الظهور بجرح يلازم أبى ويلازم خلاصى من الذنب بعد أن صوب طلقة خائبة ، وأبى يوجه ترددى بحيرة كبيرة ليختار ساعته المناسبة ، فوق تلة الرمل المصبوب بركام البيوت وبقايا معارك صغيرة .

اللحظة غيبت حواسى فى السماء الساهرة بصدى حكايانا وضحكنا فى ضوء القمر ، امتلأ قلبى برائحة خالصة للحرية ، ورذاذ الموج المشبع باليود، لا شيء يفوق الحلم مقابل الظلم الجارف ، وهم يمشون هونا على الشاطئ الآخر ، جول الراية المغروسة فى عصب أبى من الحلق إلى الفخذ المشطور بالتساؤل الدائم عن العدل ، ليلة طويلة مروعة عب فيها صدرى دخان البارود الحريف ، طلقة طائشة وأخريان سديدتان ، تساقطا فى الفضاء المحوط بتراب مطلع الخماسين الذى غطى فى السماء ضوء القمر فكانت الدنيا حولهما صفارا داكنا ، من خلال عدستى أبى المكبرتين لميتين يختلفان عن الثالث الذى بزغ فجأة بين جثتيهما المهضبتين للرمل المتماسك تحت قدميه ، كان بهيئتهما ولكنه لم يسقط أو يتكوم ، انفلت من قنص أبى فى تلك العشية البعيدة ، ليصبح طفلا من بقايا شر ، يعاشرنى ويطلق بخور الخوف والندم على لحظة كسل كلفت أبى ساقا طويلة تم دفنها بمقابر الشهداء، وكانت تنتفض بداخل الملاءة المخضبة طيلة الطريق من المستشفى إلى المقابر وبدوام يعاود الآخران امتلاك كوابيسى فتطويهما رغبة معاقة فى التحرر وحسم أمر عدو ، يرفع مدفعه الهاون بتقدير وجهة قذيفته التى قفز أبى أمامها وهى تنطلق لحتفى ، دفعنى أرضاً بعيدا عن مسارها بمسافة كافية ، واجهها، فلم تشق قلبه أو تطيح برأسى ، مالت قليلا، أو طار أبى عاليا لثوان ففصلت ساقه عن فخذه ، لتسرى بالحلم بعيدا ، ويصبح الموت أمنية محرمة لأبى الذى كان قلبى يرجف كلما دخل علينا بعد كل غارة بطلاً على مسرح خوفى .

البدلة الكاكى استبدلها بزى عسكرى الشرطة الإدارى ،كان يعمل صباحا فى شرطة النجدة كاتبا لكشوف الرواتب ، وفى المساء بدكان

الخياطة الذى يدر المصاريف التكميلية لميزانية أمى المتضمنة بابا رئيسيا لدروس البيانو والفرنساوى ، كذلك الأقمشة التى تقصها ويخيطها أبى لنا معا لنسير أنا وهى متجاورتين بنفس كسوة الأزهار الباردة ، كان أبى يبث فى قلبى شعورا عارما بالأمن والدفء من ذقنه حين يدغدغ به رأسى ووجهى ، لم أفكر فيه كبطل أسطورى ، وهو كذلك لم يحاول يوما الإشارة لذلك الزمن ، كان يحكى ببساطة وكأنه يقص بنعومة قياساته الملائمة لكل زبون ، مهما اختلف النسيج فهو ماهر .

كلمات البطولة يبثها الراديو مضافة إلى التعليمات المحفزة لبسالة الاستمرار فى المقاومة حتى الشهادة لم يدركها فكان ألمه عظيما ، يعرف أنه خلق لها ، والطبيعة القاسية تخون تقديره وتجعل منه عاجزا ، فى حصار ، لم نجع فيه أو نعطش إلا بأقل قدر ونحن نبسط كل ما لدينا على مائدة أرضية فقيرة ، نقرض منها الخبز الناشف ، ونحن نقرفص فى الظلمة فنبدو من الخارج كفئران عملاقة فى طقس صوفى لاستحضار غارة ، تطيح ببعض أجزائنا .

★★★

مازال الحصار يلفنا وأبى هنا راقد فى المستشفى المحتفظ بدوره رغم افتقاره لكل شىء حتى ماء التعقيم الذى يصعب على أحد شربه وهو يعبئه من آبار الحجيج القدامى ، التى طمرتها حضارة هاويس الماء ، وتفجرت فيما يشبه المدد من سيدنا الغريب الذى أيقظ ذاكرة الشيوخ ليتم نقل فناطيس المياه كالأمانة إلى المستشفى فى قوافل أراها وأنا غافية ، رحلات الجمال يقودها السراب الذى أصبح قنالاً يعبر منها الغزاة بالآلاف ، انتفض مذعورة لأجد ابتسامة أبى تحضن فزعى أقبل جبينه المعروق ، فيقول وهو يتألم بشدة .

– دلكى رجلى يا سوزى ، ثم يتابع وهو يفتح عينيه بقوة ويبتسم ، مقطوعة ويتاكلنى .

– حياتك بالدنيا .

نضحك ونبكى ، يمتزج دمعى المنهمر بقطرات ثقيلة ولزجة تنحدر ببطء من عينيه، أمسح وجهه براحة يدى ، يحرك صدره بعنف محاولا النهوض.

– لن أسمح بهذه المعاملة مرة أخرى ينبغى وقف كل شىء ، فهو سيتكرر ويتكرر ، لن يتحقق العدل على الإطلاق .

– لاأفهم!

– أمك الآن تتجاهل عجزى وتدعى عدم القدرة على رؤيتى ، هكذا عاجزاً، حتى لو كانت بنت الملك ، الأولى بها أن تكون بجوارى.

إلى هذا الحد أحبها ، ربما أكبر من نكرانها ورفضها ، فقد كانت تعرفه فقط بما تسبغه عليه من تصورات عن رجل يخص خيالها ، يعنيها أكثر منه، وليس كما هو عليه ، هذا هو الشىء المفقود بينهما ، كيف لم أفهم هذا من قبل ، امرأة حالمة مقابل شخص نموذجى ، يعود ركضا ليحتمى بسور لسان القنال ، يعمر بندقيته ويحصى باستثناء الرصاصات الطائشة أرقام مجده ووطنيته ، ضد أشخاص كان يقول بأنهم مثلنا ، لديهم حياة ، ولكنهم لا يتوقفون عن المراباة بمن لا يقدرون على تغيير معرفته بضمائرهم التى ماتت فى صحراء التيه ، قبل هذه المرة بكثير ، فكيف يلتقى الخير بالشر ، بحق أصابعكم التى تمتلكونها .

بحق أصابعكم التى تحركونها بغير إرادة ، هل من الطبيعى أن تتناثر الجثث على الأرض وتتعلق بالأسوار يتلقى أصحابها موتا فوق موت فوق موت، يجسدهم عليه أبى الذى يشعر بوخز وتنميل فى ساق بترت ودفنت

بغير صلاة وهو راقد فى قسم العظام بمستشفى السويس العام ، الدور الثانى أول يمين ثانى شمال .

★★★

أول يمين تانى شمال ، وصفة سهلة ، مخيفة فى قدرتها على التناسى لتكرار التضادات ، حين قالها أبى وكرر معتمدا على فكرة نقصانى ، البيت على يمين السكة الحديد أول يمين تانى شمال ، بيت بأربع شرفات خشب ، حتلاقيهم هناك ، كلهم عارفينك ، لازم يطلعوهم من القسم ، أحسن وقت بعد الفجر ، بدرى تاخدى لهم خراطيش الرصاص من الدكان تحت ماكنة العزاوى ، آخر مهمة ليك يا بطل لازم تعملها صح صح ؟

بماذا أجيب وأنا أرتجف حتى أذنى من المهمة الأخيرة لأبى والتى تعول على اكتمالى وقدرتى على تقبل الموت ، بانتهاء طفولتى وانتقالى لطور ذكورى يصنعه أبى بغير تصنيف لفظى ولا بالخطابات المدرسية ، ولكن باسباغ قيمة ونـدرة لا تتوفران إلا فى حرب تغير العالم بقلب الأفكار العرقية . . .

– غصب عنى يا بنتى ، دورى انتهى ولازم نكمل ما ينفعش نجيب حد من بره يرد حقنا ، أنت اللى بعدى وم الآخر عايزك راجل. هذا مطلب أبى الذى يفجر طاقة غير مشروطة بالتميز والاكتمال ، هل كان فقط يستخدمنى لتتويج عطائه ، أم يزرع بى شيئا لا أعرفه حلم به كثيرا ، مخالفا لما أرادته طبيعتى وأمى . . .

– من دلوقت نوم مافيش يا بطل يالـلا روح جهز نفسك واحمل الأمانة لحد أصحابها ، بعدين هنام كتيييير .

وخلافا لما أرادته أمى حسم أبى برقته تأثيرها على ، تطهرت بأصعب حمام بارد بالماء القليل المتاح للشرب الذى أعيد استخدامه لأكثر من غرض، حتى عجزت عن تمييز لونه ، لبست ثوبا صبيانيا لففت به خروجى الثائر من رحم أمى ، وأغلقت الدائرة المفتوحة فى انحيازى إلى أمى ومرآتها دون أن يتملكنى الرضا ، وبلا خوف أصبحت الصبى الذى أراده أبى ، وتبرأت من مقولات أمى . . .

– ما ينفعش البنت تتعامل كده ، لازم حاجات تانية خالص ، إزاى تمشى . تتلفت ، تقعد، تتكلم ، وتعزف بيانو ، لازم تكون هانم ، أنا باحاول اعمل منك أميرة ، مش عميلة .

ينظر إلىّ أبى مستفزا الآخر الكامن بهرموناتى فأطمئنه بردى . . .

– مش عايزة أكون هانم ، عايزة أبقى زى بابا وأصحابه .

أركض إلى حضن أبى المفتوح بترحاب ، وأفرد قامتى فى رعب الطلقات والقصف ، تنهار أمى بائسة وحيدة ، كنا نضغط عليها ثلاثتنا ، أنا وأبى والولد الكامن فىّ لأجل أبى الذى نال جزاء الفرسان ورقد فى جانب ضيق شبه نظيف من المستشفى المكتظ بجراح وآلام مصابين يقصفون مرات وهم يحسبون قيمة الأجهزة التعويضية التى ربما لن يحصلوا عليها أبدا .

الدك يتواصل ويصبح الجو معبقا برائحة البارود والغبار المذعور الهارب من أشلاء الحجارة المختلطة بصرخات عابرة للفضاءات البعيدة ، لبقايا بشرية تلتحم بطلقات المدافع ودوى انفجار الصواريخ فى عرض الشارع وتراشقها على أرضيات البيوت وطوابقها ،تنتصب فى النهاية لتشكل لوحات تذكارية لا تثير الدهشة ونحن نلهو بمحيطها ونتلمس حوافها المصهورة ونتوءاتها الباردة ، أتسلق أكوام الركام والأنقاض ، أمر بمستنقعات اللهب ،

عنقى مجذوب باليد الحريرية لحقيبتى المدرسية التى صممها لى أبى ، بعدد كبير من الجيوب .

– هذا الجيب للأقلام وهذا للسندوتشات ، هذا للكراسات ، الخلفى للكتب، هنا للأوراق ، وجيبا سريا صغيرا للمصروف .

مصروفى ، كنت أدخره لشراء المجلات من عم حسن النوبى الذى يصر على أن آخذ ما أريد . . . وأدفع حين تكتمل القروش ، لكننى أفضل الدفع أولا حسب تعليمات أمى . هل هذا عبد الحليم الذى أسمع صوته عاليا فى صباح جديد للحصار؟

البيوت تقيأت أجوافها ، الحمامات والمطابخ وغرف النوم الخلفية سالت فوق الحطام ، وراديو خشبى كبير معلق بجرابه القماشى على الحديد المسلح الناتئ من الحائط المشطور ، يقاوم السقوط ، تلتمع أصابعه البيضاء فى غبش الصبح الباكر النائم بعد فى شبورة كثيفة تتجول بالخراب الساكن، متعة خفية وقوية ، أرافق بها الخوف الذى يحط بخفة ونعومة موت عشوائى ومجانى، أحاول قمع الهيمنة الإجبارية للخوف طيلة رحلتى لتدارك معارف مبكرة عن الحياة والموت والدهشة . أضواء بعيدة تقاوم الخبو ، أصعد إلى الشارع ، أمر بالجامع متجاوزة الفلنكات المخلوعة عن قضبان سكة الحديد بغير اكتراث ، لم يكن المشوار بهذا الطول من قبل ، كنت أجتاز الطريق بصحبة أمى إلى صالون أبله بولين فى عشية كل سبت لتلقى دروس البيانو ، ونفس الطريق أجتازه و " سوريا " لتعاطى دروس الفرنساوى ، أو ترسلنى أمى فى رعاية أسعد بطبق عاشورا أو كحك العيد ، فأحظى بغيرته من مشاكسات أندريا الذى كان يسد علىّ طريقى وأنا أحاول صعود الدرج وحدى ، لا يتركنى أمر قبل أن أمنحه قبلة مختلسة من خدى ، الآن أسير وحدى وأتساءل بيأس ، هل ستعود تلك الأيام ثانية ؟ فيجيبنى المشهد ، كل

شيء تفجر وبات عليّ ارتداء حذاء من الكاوتش وثيابا صبيانية قيفها لي أبي بعد عودتنا من البلد ، لتناسب وعورة المدينة المكدودة ، بذلتان مرقطتان بلون الرمل المغموس بالزيت الثقيل عوضا عن فساتيني التي تهتز كشتلات ورود في العراء .

★★★

أكسر أول شمال وأعطف على ثاني يمين ، أبحث عن الشرفات الخشبية . . . طبعا والأربع ، المطلة على قسم شرطة الأربعين ، للبيت ثلاث واجهات ، الثانية تطل على مساكن الدريسة والثالثة على محطة القطار الذي كان يحط على رصيفه الحجاج المحرمون بثياب بيضاء ووجوه فياضة بالوجد والإخلاص، الذين يتبادلون بهما المراوحات العقائدية في بازار صاحبنا إيدجيث الهندوكي العميق ، كان يحتفل بموسم الحج والحجاج ، يقوم على خدمتهم وتوفير حاجاتهم من صابون وبخور وسبحات كشميرية وعمامات هندية ، كهدايا يشترونها قبل أن يحملهم القطار عائدين إلى دورهم . لماذا لا تؤنس الذكريات بقدر ما تثير الوحشة والغصات في حلق طفلة في الثالثة عشر ، فتتحول إلى خرافة ينتجها أبي الذي ينسج وعيي بماكينة الحرب .

الإشارة كانت آذان الفجر الذي يمر بطلقات الرصاص . . .

– الصلاة خير من النوم – مقولة اعتيادية لا داع لها في يقظة مدينة تحت الحصار ، أرفع الدعامة الحديدية عن ضفتي الباب الخشبي الكبير ، أمرق بجوار البنك الذي يفرد عليه أبي الأقمشة ليصممها بمقصه الكبير الذي انطفأ التماعه وهو منفرج بغير أمل على نسيج قديم ساح لونه ، أسحب الصندوق الخشبي المتآكل من تحت الماكينة .

طير بينا يا قلبي ولا تقوليش السكة منين ، مازال الردايو معلقا ، من السهل تسلق الأنقاض لإنزاله من مشنقته وإسكات استغاثاته ، أبواب

البيوت موصدة بإحكام خلف الكتل الحجرية والخرسانية التى فتحت فى واجهتها منافذ عديدة ، نلجها بسهولة أنا والرفاق ، نلهو ونلعب بالأغراض ، نأكل أحيانا فى أوانيها المتربة المصفوفة بعبث الهزات فوق الأرفف الرخامية، نتأمل الصور المعلقة وهى تقاوم التداعى ، نطلق خيالنا عبر سنوات الاستنزاف ، نمارس حيوات أصحابها وخلافاتهم فى عروض فقيرة ينظمها ويعدها أندريا من أبطال دائمين ، أب وأم وابنة وابن ، حبيب للابنة وعشيقة للابن وشخص غريب يصعد بالأحداث ، حتى ينذرنا الليل بالغارات المحتملة ، نعيد كل شىء كما كان ، كأنهم أصحاب البيت ، سيعودون حالما نغادر مسرعين ، لم يخطر بعقل أحدنا يوما أن يحتفظ بشىء ولو للذكرى ، كلها كانت مسارحنا نصف الخربة ، مواقعنا التى نعيد إليها الحياة لساعات مسروقة .

★★★

مد أبى يده باحثا عن ساقه ، شارعا فى حكها ، لم يجدها ، بكى بصمت، أحكم الغطاء على خصره ، تأملت استدارة البتر المضمد بخارطة الدماء ، أحرك الهواء بالجريدة القديمة لتتراقص العناوين الحمراء معلنة وقف إطلاق النار بينما التشوهات المرقعة بالأربطة المدماة لم تتوقف ،تطارد بقسوتها غفواتى العفوية التى تلقينى مقيدة ، تحت الحرب المنتهية إعلاميا إلى مقاومة الحصار . . .

طلقات الرصاص المتبادلة وأكياس الرمل، علامات تميز مدخل البيت الخلفى ، حيث لا أحد يعنى بمحو الحطام ، أتسلق تحت ثقل مهمتى التى فرضها عجز أبى عن الحركة .

اليوم أزرع سوزى بذاكرتى وهى تصعد لخراب ما يشبه الحصن الذى كانت أحشاؤه مبعثرة ومنثورة بغير نظام ، تسللت بين الدبابات والمدرعات نصف المشلولة ، كى أسلم الرصاص إلى الرجال وبينهم أسعد الذى كان يكبرنى بعامين، ويكبر أندريا بعام، ويصغر إيدجيث بعامين، حين صعدت سوزى على صفحة المشهد ، كاد الرجال يصوبون إليها مدافعهم ، نسى أبى أن يلقننى شفرة تؤمن وجودى المتسلل بينهم ، وحين صحت بكلمات السر غير المتفق عليها . . .

– أنا بنت بابا محمد ، أنا بابا محمد جلال . . . أنا سوزى.

وقع الرجال فى ضحكات غطت قوتها طلقات الرصاص التى تقهقه عبر الشرفة وقال أسعد بهمس :

– هذا يومك يا سوزى.. تذكريه دائما .

بالطبع سأتذكرهم ، من يصوبون عيونهم وصدورهم ، خلف رشاشات سبق واصطحبت جثث الجنود وبعض بقاياهم ، إلى المستشفى العام ، تلقت الرعاية مثلهم وحفظت بمخازن الأدوية ، حتى تذكرها أبى ورفقاؤه الذين احتاجوها ، فأخرجوها بغير إذن وهى صحيحة معافاه ، ردوا إليها الروح ، واهتزت بين أياديهم تخض أبدانهم فيتفصد العرق كاسيا وجوههم بأقنعة متشابهات ، تنطلق الرصاصات الصائبة فى سمع العالم ليتابع أخبارهم ، ويردد الحكايات عن سكان المدينة المعدودين الذين لم تطردهم أمطار الموت الخريفية ، ولم يسقطهم البقاء تحت الحصار ، لأشهر طويلة بغير معونات ولا تراجع ، أشاهد من خلف نصف حائط فى ضوء الصباح الكاشف ، بلا تعليق ، مرتوية ومتشبعة ، مغيبة فى التردد ، حين أرى جنديا إسرائيلياً يدلف خلف ظهورهم ، يحمل سلاحاً مصوبا بذعر إلى ظهور الرجال

المجمدين إلى الشرفة والنوافذ ، أحملق فيه بفزع وأفتح فمى بقصد أن أنادي أسعد ، الذى لم يعلم ولا أعلم كيف سمعني وأنا صامتة.

- أنا سمعتها بتقول بابا ، التفت لاقيت بندقية مسددة ف وشى ورصاصها اتنطور حواليّ ، قامت بندقيتى لزقت الواد فى الحيطة .

لم أخرج صوتا بشهادة عم سلامة وعم خبيرى وعم عبد المنجى الذى خرمه الرصاص وعلقه على سور القسم فى اليوم ذاته ، ليموت ونصفه العلوى للداخل والسفلى ينفرج فوق السور ، كلماته الأخيرة لى تخزى قلبى . . .

- كان ممكن تصرخي ، تنطى فوقه ، تخبطيه بحجر ، تعملى أى حاجة بدل ما تعتمدى عليصرخة خلت اسعد يتلفت ويموته قبل ما يقصف رقابينا كلنا ، وبسبب كسلك كان زمننا جنب أبوك فى المستشفى والا متعبيين فى أزايز .

ينبرى أسعد ، يردنى من نبذى يكافئنى . . .

- أنقذت حياتى يا سوزى ، عندى ليكى خبر حيفرحك ، أندريا رجع .

الآن يكتمل العالم ، ويعود أندريا .

- والنبى يا أسعد أشوفه دلوقتى.

- شوية وييجى لسه الساعة ماجاتش تمانية .

لم أكن أتصور أن أندريا يقوم بتوصيل الطعام إليهم فى مواقع الدفاع بحلقة الأربعين ، فقد كان هذا الدور فى تصورى دور امرأة اسمها أسماء لم تمتلك غير نطاقها ، تعبر منه الرسالة مؤمنة بالأخبار وبالطعام وبوجه فتاة حسناء ، يحفظ دورها فى الجهاد وتصبح زوجة الأعظم فى المائة عظيم، مما جعلنى تلقائيا أتبع أندريا فى فكرة أن السلوك لا يعكس الشخصية ، وإنما الشخصية هى التى تفعل.

– هو يعنى كان ينفع تمسكى بندقية وتقفى عالشط تتعلمى النشان؟

– ماتفكرنيش، ياريتنى ماكنت عملتها، ماكانش حصل لبابا حاجة .

– ماتلوميش نفسك ، مايصحش نتصور إننا لازم نكون سبب كل الحاجات السيئة إنتى طولتى شوية صح ؟

– فعلا مع اننا مابنكلش حاجة

– مش تخنتى إنت كبرت يا سوزى سنتين يعملوا فيك كده ؟

– وأكتر من كدة لو كنت موجود . . .

★★★

كلما خفت المادة زاد تأثيرها قوة واكتسبت جمالا، معارف قديمة تتصدر ذاكرتى بشكل عارض، بعد أن يكون النسيان قد طمرها، وكأنه أمر حتمى أن أنسى وتصاب ذاكرتى بالضعف لبعض الوقت ، فتسقط رحلاتى القاسية إلى المعارف التى يصطدم بها وعيى وأفقد علامة ثقة ختمنى بها أبى فى موضع مخبوء .

تمسنى إغفاءة سريعة إلى مشهد أمى ، هى تسير باعتدال ملكى لا يخلو من رقة، وحولها خادمة ،صديقة دميمة ،ابنة غريبة الأطوار، وشيال تعرف إنه سيفشى سر حمولته ويكلل خبر وصولها بزهوة العطية ، ليكون استقبالها حافلا بالريبة من أفراد غير ثائرين يتقبلون الرشاوى المنهالة . وعلى الوجه الآخر لغفوتى أحلم بخيرية .

– حافلات التهجير مرعبة يا سوزى ، وهذا البرد المفاجئ للريف والسكن فى العراء يجعلك تنسحقين فى سريرك الذى تتخلع مساميره ، وتبحثين طوال اليوم عن حسنة يصنعها بك تاجر على أن يكتفى بالثواب وباقى العملة فرجة على الآثار العجيبة المشوهة لناس هربوا من الحرب ولم

يبقوا للموت ، إنهم هنا لا يعرفون عنا أى شىء ، لا يشعرون كيف نشيب طرال الوقت لأنهم لم يشاهدوا ضحايا القتل ولم يشموا رائحة الأجساد المحترقة بالنابالم ، لم يروا رأسا مشتعلة لأخى ، الذى كان يبحث عن أى طعام فى مزابل الجيوش، وأنا أنتظره على الناحية الثانية لتصيبه الطلقة فى شرايينه التى تتفجر فى دواير الجبنة النستو ومربعات البسكوت أبو كمون إللى كان بيحبه . . .

وتبكى خيرية وتتفجر بالحمرة أطرافها وتتابع بين القهر . . .

— . . . وأنا والله كنت باخبه أكتر من البسكوت أبو كمون اللى اتطرطش بدمه علىّ وأنا واقفة بعيد ، وف لحظة بقى جسمه مافيش كوم لحمة حمرا مدخن على أسفلت الزيتية أدام قوات حفظ السلام أنهى سلام ؟ ، وأبويا اللى شلته الحسرة أتهد بيته ومابقاش ورانا إلا الموت فى العزاء ، لكن العراء هنا غير هناك ، هناك كان منا لربنا أو لعدونا دلوقت إحنا وسط ناسنا وأهالينا ومذنبين طول الوقت ، حتى وإحنا بنحلم ، إحنا بالنسبة لهم حاجات وحشة ومش طبيعية وكمان بنفكرهم بالحرب وهم بعيد عنها ومش عايزنها من القلب ، هم برضه غلابة ، الحياة بالنسبة لهم هى هى ، كله بييجى ويمشى وهو بعيد عنهم مش فاكرهم ، مش بتشوفى وأنت ماشية جنب الغيطان كل الفلاحين زى بعض ؟ حتى لو قعد ولادهم الافندية جنبهم برضه حيبقوا زيهم ، بيقلبوا فى الطين .

لماذا انقلب العمل العظيم إلى حدوتة حب عقدتها الغياب ؟ ، وكأن الحب هو كل ما نبغيه من المجد ، تبدلت حياتى وخفت الموت بجد ، بدأت تراودنى أفكار عظيمة عن العالم ، كلماتنا الناعمة تؤثر فينا بقوة ترسانة مدفونة بالرمل ، هناك كانت تسقط بفوهاتها الخراب على المدينة ، تدك بغفلة جدارات مبهرة تعادل فى روعتها إبداعا للخير لم تنجزه الحياة بالبشر .

كنا محوطين بطلقات مسوطة نحو زوايا الفرار ، يسكننا النار ونحن نردد بالألم المكتوب ، والفرار قتل لليأس .

– إجرى يا سوزى .

– إجرى يا أندريا .

النار مثلنا تعبر الجدران والجنبات ، ونحن نركض حتى ينتهى نفق القصف المفاجئ ، ويصرخ قلبى بألم جميل ، أنا أحب أندريا جورجى وهو يحبنى كما قال من بين لهاثه.

– أ . . . نا . . . أ . . . أ حـ . . . بـ . . . ك.

هذا هو بطلى الذى انبرى بشهامة مقاوما أسعد ، بعد أن وضع عواميد الطعام المعدنية ولفافة الخبز فى مدخل البيت ، بعيدا عن شرفات القتال ، ليتناولوا إفطارهم بالراحة التى يحتاجون إليها ولا يحصلون عليها حتى وقت الطعام ، فلم يكونوا متربعين ، كانوا يقرفصون كما يفعل الفلاحون عادة عندما يأتون لبيع خيراتهم لأمى فى حوش البيت المبلط بالموزايكو ، بالنسبة لأندريا كنت مسئولية توازى مسئولية أسعد فى حمل السلاح وكأننى وطن كما قال لى أندريا .

– عمرى ماحسبيك تانى صافى يا لبن؟

كان يرقص ويقفز عاليا بينما الرصاص يتقاطر بعشوائية من ثلاث اتجاهات ، كنت أتساءل وأنا أركض بجواره رافعة حقيبتى المدرسية الفارغة كمظلة واقية من الرصاص ، هل سيموت أندريا الآن ، هل سيغيب للأبد هذا الولد الجميل الذى يظلل شعره البنى جزءا من جبهته ، لتعود سوزى إلى عزلتها ؟ ، تساءلت بينما الثقوب فى الحوائط تتزايد بطلقات الرصاص وتنفث شظاياها القزحية مدوية وأندريا يمد لى يده وأنا أركض خلفه ، لتعلق

يده وكأنها ستنتظرنى لآلاف الأميال ، تتلامس أصابعنا ويمسنا فرح لا التباس فيه ، ليمحو فى لحظات ذنوبى المبكرة ، يعتق حريتى الموقوفة بالحصار الذى ضن بالأمن والماء و الأخبار ، أو لقيمات تسد جوعا .

أجتاز بوابة المستشفى الكبيرة وأندريا خلف السور يودعنى كأمانة لأقطع بامتنان الطريق إلى المبنى العريض المكون من خمسة أدوار فى رابعها يرقد أبى فى قسم العظام ، أدلف وأركض فوق السلالم الملتوية أرتمى فى حضن أبى وأبكى .

★★★

يناير ٧٤، انتهاء الحصار وفتح طريق القاهرة، أعود بأمى وأخى وجدتى فى ناقلة ، نجلس بداخل صندوقها الكبير المعتم ، فلا شبابيك تطلق دهشة العين ، الشاحنة تدهس الطريق غير عابئة بما يسقط عليه تباعا من ولاءات وآمال الأسرة الصغيرة ، المتكئة على الأثاث المتهالك المصفوف بعناية فى الصندوق المنطلق بجروح قديمة ، قيحت بريق الأعين وسحر الابتسامات وصدق الكلمات .

ها نحن نعود بكل أحمالنا من مشاعر حادة بالظلم المؤلم الذى يشتغل آليا على قلب أمى ، حتى وهى نائمة تبدو منزعجة وكأن شيئا يشق قلبها ، يدفع دماها المعذبة إلى السيلان، فيما أطرافها مغلولة بالشلل ولا تمتلك حيلة على النهوض ، كان الألم النسبى الكامن فى ظلها ، لا يعنى بالنسبة لى شيئاء ، حتى وإن بدت كمن يحمل هراوة غليظة من العنف واللاءات والصرخات التى تشج رأسى وتحدث تضخما عظيماً فى نفورى منها ، إلى أن يصبح وجودها عبئا لا يمكن احتماله . لم تكن تلك الكراهية مجانية ، بل سلعة استهلاكية ثمينة أحقن بها كل يوم كل لحظة إلى أن أضرج بكابوسى الختامى الذى يسدل بالنوم ستارا داكنا على قدراتى العقلية ، وأصبح محض قذارة بالنسبة لأمى رغم أننى معبئة فى الوجع ، بغير أمل فى النجاة من آلية الطحن التى تنتظرنى فى الصباح .

على صورتها فى المرآة يحل وحش من تجلطات غاضبة محل صورتها البشرية ، الغضب مادة حمضية مذيبة بالطبع للرضا والبهجة والحب ، لقد فقدت عقلها ، وأرضعت أخى الصغير الجنون وإلا فما معنى أن ينتقل أخى سليم من نطفة تحت القصف والخراب إلى عامه الثالث، وهو محايد تجاه كل شيء «كعباد شمس» يميل بثبات مطلقا ظل صفرته على العشب الجاف .

حصل أبى على وسام زين به حلة الاحتفال التى لم يرتديها غير مرة واحدة،فى حفل عشوائى لتكريم عناصر المقاومة ، نودى على اسمه يومها مغلوطا ، وبيت البذلة معلقة بالتراب الناعم على الشماعة الخشبية القديمة ، كحروق الجلد المشدود، تمدد الصدأ على وسامه، ولم يعد أحد يهتم بوعورة أيامه ، حين يفيق كل يوم على حقيقة أنه فقد كل شئ خاصة حين يرتدى زوج جوربه فى قدم واحدة بالتناوب - فردة فوق والأخرى تحت - وهكذا حتى تبليان معا، تم تعويضه بعكاز معدنى له مسند من الفلين الأسود ، سبب له قروحا مروعة تحت إبطه الأيسر، ولأنه أعسر فإن قدمه اليمنى لم تكن بالقوة التى تتيح لها القيام بعمل الساقين فضمرت بشكل بات واضحا حين احتاج إليها ، كان يلقى بمعظم ثقله على أثر جرح قديم بكتفى ، يحاول التخفف فيفشل ، أعاود تشجيعه وتحفيزه على اعتياد العكاز. . .

- معلهش ياسوزى .

- ولايهمك يابابا، كتافى عريضة وجامدة، أقدر أتحملك مرتين .

مرات ومرات نكرر المران نفسه ، وأبى فى النهاية يستسلم تماما بجوار المرآة ، يتأمل أمى وإذا تحدث فبصوت منخفض ومتألم بالكلمات المصفدة بمقاومة الخوض فى أى ذكريات .

أنتقل بأشيائى الصغيرة إلى حجرة جدتى بالطابق الأول ، لأشاركها النوم وأسمع حكاياتها عن كل شيء إلا الآن .

أقيم القداس على مدخل المدينة ، ومرت به اللوريات تحمل الأنفار والأجراء الذين سيعيدون بناء المدينة ، ينتشرون فى بيتنا ليصلحوا الصدوع الصغيرة ، وتصرخ جدتى الضريرة لأن ردم مواد التعمير يوخز عينيها ، ويسيل لعاب أخى من جانب فمه وهو يجذب أمى من مرآتها التى كانت تتصدر مدخل بيت العائلة القديم الذى أممه عبد الناصر ليصبح مقرا

للنقابات الصفراء ، لم يكن يوم أمى يبدأ قبل الوقوف أمام المرآة لتتجذث قليلا ثم تتأكد من بريق شعرها وحذائها ، وأنا فى غرفة جدتى الخبيس أتخلق من حكاياها عن الزمن الذى كان فى القصر الصغير - بيت عز بحق وخقيقة - ، وتسلمنى النوم بتنهيدة قابضة ومثيرة للخوف من الآتى .

- هيبه كانت أياااام ..

يشتد جنون أمى حين تعلم بشرائى النبيذ لأبى ، تهاجمنى بصفعات كفيها وهى تصرخ ،تطلق زبدا كثيفا وتبدو كصقر فقد عينيه حتى تتمدد على الأرض منهارتين ، أنهض وأنا أكثر تمردا بينما هى تتراجع مئات العقود لتصبح شخصية . . . لا شخصية ، مجرد طيف يتحدث بسكون مخيف يشى بانفجار حمم من الغضب المخزون ، لم تكن تثير عندى أية شفقة ، حين تطلق ذلك البريق الزجاجى الذى يصفعنى كلما صادفتنى عيناها وأنا أوارى زجاجة خلف ظهرى ، ويشهد الغروب الدائم انسحابى من العائلة إلى عائلة أندريا السحرية التى ، تواجه نوافذهم دبابة منكوسة على نجمة بيضاء تشبه الجمجمة المعقودة بعظمتين متعارضتين والمطبوعة بإتقان على لوحات من الصفيح الصدئ لتصنع فاصلا بيننا وبين أمكنتنا الخطرة ، هذه الدبابة أصابها صديق لأبى وهو منها غير بعيد ، وكان يرقص فى الميدان الواسع حين التقت فيه فيالق الحصار من ثلاث جهات وقد كانت الثقوب التى فتقت جسده تسمح للهواء بأن يطير به لأعلى إلى أن سقط فى سجدة ميتة على مساحة ضيقة من الشارع الواسع الذى جرت الدماء فى شرايين جهاته ، تشق الحصار الجاثم كمعصرة نبيذ بدائية .

كلفنى عشق الأسرة وأندريا الكثير من الصفعات والكدمات والسباب الذى ينالنى عادة فى أبى ، والذى كان يقابل كل شىء بنظرة حاسرة ومكسورة واعتذار باك حين يفرط فى الشرب ، فأمى اعتادت كلما زارها

خالى عاطف أن تنتحى به بعيدا ، فى غرفة الضيوف بآخر البيت ، تحكى له عن كل الأمور السيئة التى تعود إلىّ ، بدءاً بأسعد - إللى كان صنايعى عند أبوها - ، وجولاتى معه على الكورنيش الذى يلف المدينة كشريط من الوجد يحيط بقلب عاشق صغير ، وأنا بجوار أسعد أحاول بلوغ قامته الحانية الميمونة وهو يصحبنى إلى بلزاك وناتالى . . . فرويد وفرجينيا ثم سارتر وسيمون ، وصف مصر فى تاريخ المماليك ، حظائر جيادهم التى كانت مقرا لعصابة الفدائيين الذين يسحلون خلف كواليس الاحتفالات ، عوالم سخية كمرافئ للدهشة وسبر أغوار المعرفة فى أعوامى الثمانية بعد العشر ، ثم ماركس ولينين ، ماو وجيفارا ، من مكتبة أندريا حتى يتخلق خيال ثائر ضد حراس الحرية المراوغة ، أود لو أدرك الأسماء كلها، فالحياة بدت أعمق مما أنجبتنى له أمى وكان علىّ أحيانا أن أقول لأبى " لا " حين يطلب منى شراء زجاجة خمر من عم " إسحاق " البقال على الحساب الذى يقيده الآخر بسن عينيه على لوح جسدى ، فيشق نفقا للرعب من التجار ينتهى باحتقارهم ، تشير أمى فى وشاياتها إلى سرحانى الدائم والقراءة فى كتب أبيحه طوال الليل ، وطبعا لا أشاركها شغل البيت ، مما دفعنى بعد ذلك لإتمام " إله المتاهة " فى الحمام ، لأن ضرب خالى كان يتضاعف فى كل مرة يكتشف فيها كتابا غير كتب المدرسة ضمن حملة التفتيش التى يستهل بها زياراته المتقاربة ، حيث يقضى فترة تدريب بمديرية أمن القاهرة ، ويزوغ فيها كلما تاق لأكلة سمك ، وفى انتظار لفافة السمك الوردية من فرن شوشة ، يشد حزام سرواله ويختبر طرقعاته على جسدى وهو ينشد على إيقاعها . . .

- بتقرى إيه يا بتاعه إنت ؟ مفروض تذاكرى وبس .

مما يحجزنى بالبيت لأسبوعين على الأقل حتى تنحسر زرقة الكدمات عن وجهى ، ويصحبنى الألم إلى " عرابى " أسعد الذى كانت أمى تقول عنه إنه.

– فواعلى عند جوز أخته ، جه مع بتوع التعمير حافى ومقشف ودلوقتى بقى مقاول ومعاه فلوس بالكوم، جمعها من التجارة ف أنقاض البيوت الخربانة .

والتقى بحبيبى أندريا الذى لم يسلم من تصنيف أمى حيث رأته

– واد صايع مستحلى نفسه ، مالوش شغلة ولا مشغلة غير السيما والمزيكا والرحلات والكلام الفارغ إللى بيلم العيال الفاشلين حواليه .

يطلعنى أندريا على د . هـ . لورانس وعشيق الليدى تشاترلى لأعرف كيف تحول العالم فجأة بعد أن أوشك على الانهيار ، ليساهم العمال فى ثورات الفلاحين .

★★★

فى مقابر الأرثوذكس المهيبة على الجهة الأخرى من شواهد اليهودية الساهقة بإهاب فوق ضحايا الحرب العالمية الثانية ، ألمس بروحى الحزن الوقور الذى يتجول خلف شفافية أغطية الوجوه السوداء والبزات المخصصة لطقس الموت المقدس لآخر الرموز العائلية الضاربة فى الجذور ، وأحضر الجنازة الملكية لجدة أندريا ، أعزى عينيه وأنا أقف خلف أمى التى كانت تشبه أخته ريبيكا إلى حد كبير حتى فى الحظ السيئ ، فقد كانت ريبيكا كما تقول أمى. . .

– تصادق المدرسين الذين يخفون أمراضهم تحت السترات الشتوية الثقيلة حتى تزوجت أستاذ عادل ، مدرس العلوم الذى يجعل بيتها مقهى ومقرا للاشتراكيين ، يسرق فلوسها ويبنى بها بيتا كبيرا فى قريته ، يحفظ فيه ابنة خاله التى تجمع الجلة من ورا البهايم .

كنت أخفى حيرتى وخجلى والخوف من أمى بالصمت ، أدس روحى خلسة فى طقس حزن أندريا الأنيق وكجذع نبت جديد فى العائلة ، أطل على

حارس المقابر العجوز الذى يستند إلى سور المقابر العالى عازفا بأصابعه موسيقى الهواء الزخم بالموت العالمى على هارمونيكا خياله .

عند منتصف الليل أعود إلى غرفة جدتى متسللة ، يرجفنى مس سحرى مازالت توابعه تهز وجدانى ، جدتى عمياء لكنها تطلق طاقة عميقة تبصر بها رحلة روحى الأسطورية ، ورغم رائحة الحسرة اللاذعة المنطلقة لا إراديا فى أنفاسها ، فقد استطاعت أن تشم رائحة مريبة تنطلق من جسدى لتنتشر فى جو غرفتها ، وأنا أتكوم بجوارها على السرير بكامل ملابسى ، وأظنها أدركت أن أميرى كان أندريا بسبب عطره الفرنسى الذى أهدته إليه إحدى قريباته فنزع صمام العطر وغمرنى به ، بعد تناول عدة أنخاب فى محاسن الجدة الراحلة ، رأس العائلة التى تشمل الحضور بالمحبة والرضا ، وهم يعجون فى الشقة ذات الحجرات العديدة و قاعة الاحتفالات العائلية الواسعة ، الصيحات الجريجية السريعة والثرثرات العصبية كانت تؤكد على ضرورة الرجوع إلى اليونان قبل أن تصبح الأمور أكثر صعوبة عليهم كأقلية ، لم يعد ينظر إليها كجزء من كيان المجتمع الذى يتحول إلى السلفية بتأييد الحكومة التى تدير مجازرها على اليساريين بكل ألوانهم :

– شفتوا اللى حصل لإيدجيث وأبوه ؟

– مؤكد ، عرفنا إنه أسلم .

– عشان يعرف يعيش غيّر دينه كانوا بيقفوا أدام الوكالة ويهددوا الناس إللى بتتفرج عالبتارين .

– تدخل تشترى تنضرب .

– فضلوا وراه لما شعره ابيض ف عز شبابه .

أحنيت رأسى أسفا على إيدجيث الذى عرفت من أسعد أنه غادر مصر للأبد هو وأسرته بعد أن قال لأسعد :

- الحرب مع الصهاينة انتهت وجاء الدور علينا ، سوف ألحق ب " رينا " في أمريكا ، سنتزوج ، كم أقدسها هذه الفتاة سليلة غاندى التى تتخفى هاربة من بلد لآخر ، سألتنى أن أبتعد عنها فهى موضع خطر عليّ وعلى أبنائنا حين ننجب ، أرادتنى أن أتخلى عنها ، قبل أن تغادر السويس ، وأسرت إليّ بنسبها الموعود بالاغتيالات ، ربما تخليت عن ديانتى ولكننى لن أتخلى عنها ، أحبها وأرضى بمصيرى معها ، ليتك رأيتها حين ركعت تلمس حذاء أبى واستقامت تقبل أصابعها كملكة لا تئن بتاجها المرصع بالفخر ومئات السنوات ، ثم حين تحط على الأرض وتطعم أطفال الفقراء أرزاً مخلوطا بالعدس من كفها السمراء المرهفة بالتقاليد . . . أحبها بقوة داعية السلام الهندوسية " رينا كابول " .

يا ثورات العالم انتفضى فهنا فتاة تدير العرض بفهم لقيمة الحرية ، يمد بكيانى أفرعا من الدهشة تزهر سعادة مطلقة وأنا أرقص معه فى الشرفة التى تطل على قسم الشرطة ، المنصوب بالسقالات الخشبية ، كنت فى حضن أغريقى، أذوب امتزاجا بسحب قمة الأوليمب الأسطورى ، شاركت اندريا كأسين من النبيذ الأحمر اللاذع، تخففت على أثرهما حتى صرت كغبار يظلل واحة حرب تدحض رعبا غازيا بمدافع خيالية تنطلق بغير خشونة أو تشاحن .

هل يحتملنى هذا العالم بميراثى من جنون أمى وعمى جدتى وسكر أبى وعدمية أخى ؟ يخرج بى أندريا إلى الشرفة المسيجة باللبلاب ، تحت الضوء المنهمر بما تيسر من القمر ، نفس القمر الذى أطل من قبل موجوعا ، يحيل الآن كيانى إلى بقع من النور الناعم والظل المبسوط على أرض الشرفة الخشبية ، يصب على وجهى والشق الداكن بين كتفى وعنقى ابتهالات عاشق، يسدد الوهج الأسطورى لأنفاسه فى حواسى ، عالم صغير اجتزئ

من عالم واسع ليحتل ليلة أنا فيها أميرة وهو لى سيد وعبد، مطرب أناشيدى المفضل ، مؤذن الفجر وجرس قيامى ، سر الوجود كان نطقه المتعثر فى لغة العائلة ، نجوم سمائى الوارفة لطرح النخل وظله فى مواسم الظمأ ، ناسك محرابى السمح كان أندريا فتاى الأول ، قبلة كلّ ألعابنا وسفراتنا وسهراتنا، بدءاً بحفلات سينما نون ونحن نحيط به بعد رحيل إيدجيث وافتقادنا للون بشرته وطبقات شعره السوداء الناعمة .

– الهند . . . الهند أندريا عايزين رحلة للهند .

– عايزين الهند . . . عايزين الهند .

– مش مشكلة . . . نروح الهند ، نبتدى نوفر السينما والبيرة وطلعات الصيد فى العين السخنة .

فى الرحلة الأخيرة إلى العين السخنة كان أندريا حزينا لم يزل على جدته ، كما لم يعد السينمائيون يأتون إليه كما فى السابق ، حين كانت الرحلات تتزامن مع تصوير الأفلام لنتابع الممثلين بوله ، بينما هو يشارك بدور صغير فى مشهد لا يظهر غير ظهره وهو يسير بطول الشاطئ كقائد مهزوم .

وحين يعود إلينا ، يكون مبتسما لانهزام حلمه فى أن يصبح مخرجا كبيرا ، كان يحب أن يتجول بين المخرج والمصور ، ويساعد الممثلين على أن تصبح تقاسيم وجوههم طبيعية حتى فى مشاهد الألم ، فيكافئونه بالطرد اللطيف من الكادر المستدير لطبقة العمل الذى يعشقه بهوس ، وربما بأكثر مما يحب سوزى التى كان يقول لها :

– . . . بعد الهند على طول نطلع عاليونان وبعدين اخدك هوليوود ، عالم صح ما فيهوش آلهة معمولة من فيلم واحد وبعدها يطلعوا زبالة ، لأ هناك

النجاح لمن يستحقه، فقط النجاح الذى يتيح الاستمرار على القمة ، حتشوفينى وأنا باعمل أعظم فيلم . . .

★★★

نستريح على لحظة من السخاء ، نتناول فيها مذاقات متنوعة ، وأصوات الآخرين عند سوزى تكون بالبنط العريض ، لكنها ستتعلم من معاناتها فى مادة النحو أن تصل لنتيجة فهم علاقة الجملة بالقاعدة النحوية وعلاقتها بتبديل حجم الكلمات ، كان مفاده الذى حياها عليه مدرس العربى المسن ، حيث لم تكن أمى تأمن لوجود مدرس صغير أو مدرسة ثرثارة ببيتنا ، فكانت تستعين بأستاذ نجيب موجه اللغة العربية بالمعاش الذى يحتفظ بستراته القديمة لتتهدل فوق جسده النحيل فيما عدا كرشه ، ورابطة العنق التى تلتف بلا اعتناء وتتجاوز عقدتها نصف الصدر ، ولكنه مازال صارما ، لا يغير آراءه ، حين سمعنى أقول له إن القاعدة النحوية خطها الوحدة فأى خلل ، يربك القاعدة ، أما متطلبات اللغة فهى تتبع الحاجة ، ثم قال لى مقررا اكتشافه لبلاهتى :

– دا تخريف يا دكتورة " طه حسين " ، مافيش لا قاعدة خطية ولا قواعد حسب الطلب ، كل حاجة ف مكانها سعادتك مش حتضيفى أى حاجة لأنها لغة القرآن وأى تعديل فيها يبقى كفر هو أنت مابتصليش يا بت؟

لم يكن أحد قبل هذا الوقت بأسابيع يسأل الآخر إن كان يصلى بهذه الطريقة المدينة والمفجرة للخوف من الذنب ، ولكننى سمعتها كثيرا بعد ذلك ، من آخرين متنوعين ، و بنفس الطريقة .

ويبقى أندريا هو العالم الوحيد الذى لا يقهر، يفتح الخيال على مصراعيه ويضعنى فوق أعظم عرش من الكلمات ، يلثم ظاهر يدى بقبلة

سخية ، لنتناول معا مذاقا متجانسا من الوجد والألم ، ويهمس فى عينى:

– وأدى أعظم سبب لحبى " مصر، سوزى أجمل من فيها ، سوزى كاميليا حياتى المزهرة بالطيبة والذكاء والقوة ، هى دى حبيبتى ، أنت .

هذا البرنس الذى يحمل ابتسامة تساوى اثنين وعشرين عاما هى كل عمره الذى يكبر عمرى بأربع سنوات من الروعة والجمال وأنا أنضج فى أيامها ، وأقاوم بلحظاتها القصيرة فى أندريا كل الجنون الذى يلف بيتنا بلا توقف ، وأنا أتمنى أن أتوقف ، لأن شعورى بحبه يصاحبه ألم بالذنب تجاه أهلى الذين يقفون بقوة على جهة الصحراء ولن يسامحونى أبدا، لو رحلت بالفعل معه ، وقد تم ترتيب الأمر بأننى سأقنعهم بأى طريقة أن سفرى فى رحلة الهند لن يمسنى فى شىء ، وأننى سأعود كما سافرت ، خاصة وأن أسعد الذى هو محل ثقة أبى سيكون معنا ، وهو لم يكن معنا ، ولكن تعاطفه وتأييده سيدفعانه للكذب لأجلنا وهو يقول لأندريا :

– مبروك ، إنت تستاهل سوزى ، خللى بالك منها ، وأنا حازوركوا فى بيتكوا لما أموركم تستقر ، وماتنسيش العنوان يا سوزى ، ابعتى لى عناوينك أول بأول ، وماتخافوش ، سركم فى بير ناشف اسمه اسعد ، اوعو تنسوه .

أشعر طوال الوقت بأننى لص دائم على وشك الإمساك به وهو يسرق ، كنت أحدق فى كل الوجوه طويلا ، كى أعرف إن كانوا يعلمون بالمؤامرة المحبوكة ، و كى أشبع عينى بوجوههم ، رغم إدراكى الآن أننى لن أفتقد أحدا منهم لأنهم أصبحوا مزعجين إلى حد مخيف ، أبى وأمى، جدتى وأخى، ومدرس اللغة العربية الشيخ الذى استبدل بمدام بولين مدرسة البيانو .

وكعادة الأفلام العربية المقتبسة ينتهى المشهد بالدراما ، نهاية سوداء للحلم الجميل الذى كان مقررا أن يبدأ بالسفر إلى الهند ، لم يستطع أندريا اصطحاب أحد إليها لأنهم اعترضوه ، كسروا عظامه وقطعوا أوردته ، قبل أن تكتمل الأموال المقررة للرحلة ، والتى كنت أدخرها فى حقيبتى القماشية التى بلون العسل الأسود المخفوق بالطحينة : طبق أبى المفضل، أبى الذى يتلقى الآن قلبى المذبوح ، والمخبأ بداخل الحقيبة التى امتلأت من قبل بخراطيش الرصاص ، التى يستحقها المتربصون على محاكم التفتيش يمار..ون مصادراتهم باعتبار كل شىء ضال ، وهم تحت رعاية أصدقاء صباى المنفيين بقوالب من صخر ، وينتهى أندريا مسفوحا خلف مدرسة الفرنسيسكان وهو عائد من حى الغريب ، ويكمل خطواته جاذبا شريطا قانياً ومتماوجاً من دماه حتى بوابة البيت الخشبية ، ويطبع أصابعه بالدم فوق القبضة النحاسية الساقطة من فم الصقر الحجرى المعلق بالجدار.

★★★

يتكرر الحفل بنفس الطائفة ولكن بطقوس أخرى غاضبة وناقمة على النظام الذى لا يحمى رعاياه وتتردد الاتهامات من دعاة حقوق المواطنة وغيرها لتتفجر الكراهية فى وجهى وأنا أتساءل ماذا عنى ؟ ممن أغضب ؟ من نفسى أم من خزيى بكونى جزءا من ذلك كله ، هكذا تقر نظرات اللوم المتراشقة بقرف من الجميع ، جميعهم هؤلاء الغرباء الذين يواجهوننى بصلبانهم رغبة فى حرقى بسعيرها الملتهب فى صوت أبله فيولا ، أم أندريا :

– انت السبب . . . انت السبب .

وأنا أنتظر إفاقة أندريا لأشكو له ضعفى وقلة حيلتى وهو مغيب ومفقود فى ذلك النفق الضيق بين الحياة والموت ، يعودنى طيفه ، يلملم سواد الليل

عن جسدى ، ثم يغزل بيديه أبيات من النسيان ، ويغرق برحيله مصبات روحى فى شتاء طويل تحت مطر يقرع ضميرى بسياط الذنب الذى أدين به للمطرودين، لا لشىء إلا إنهم اختلفوا بشكل لا يحفز غير النهايات المبكرة لوجودهم .

لينتهى زمن وأنا أناضل لاجتياز فصلى الدراسى الأخير فى الثانوية بامتياز افتقادى لأندريا . وشىء ما بداخلى يولى إلى نهايته مبعدا للأبد عن روحى التى تتذبذب كلوح زجاج مسرطن بالقدم وعدم الاعتناء . ويلح سؤال من جديد . . . أين سأكون فى الشتاء القادم ؟

فصل ثان

لم يكن من المتوقع أن تخلو الحياة هكذا ، وأن يصبح أندريا الذى والذى والذى. . . ذكرى تم محوها بدمه الذى نثرت فوقه الرمل الأصفر اللامع بطول رحلته الأخيرة ، إلى أن فقدت أثره بعد آخر نقطة دم تركتها تتماوج فى ظل الضوء المسال من شرفته، حتى تخثرت وردمتها الظلمة.

نفس الظلمة التى احتوتنى وأمى حين انغلق بابه برفق فى وجهينا ، آلمها ذلك الأمر كثيرا ، حتى أننى رأيت ما يشبه الجنون يتفصد من ملامحها التى اشتعلت بغضب وكراهية ، أظن أنهما كانا حقيقيان ، ذلك أنها أضافت من بين صرير أسنانها ما يفيد بأننى سبب كل بلاءها ، فحين أنجبتنى اضطرت لمواصلة الحياة مع أبى رغم انطفاء لهيب الحب العذرى لفتى أسمر ضخم الهيئة ، كان يمر ببيتها مزهوا ببذلة العسكرية مخفيا وجيب قلبه فى صفير منغم بالشجن ، يلهب وجنتيها بالحمرة والرغبة فى اختراق البوابة والركض خلفه حين يوشك على الاختفاء ، فتكتفى بانتظار الموعد نفسه فى اليوم التالى وهكذا حتى انتهى كل شئ بسرعة لم تدركها إلا حين انتهت منه تماما ، وأصبح شخصا آخر عليها التخلص منه بنفس السرعة ، إلا أننى غافلتها ، ارتميت برحمها ولم تشعر بوجودى إلا بعد شهرين ، حيث بدأت أشد جلد بطنها وأصيبها بغفوات طويلة تتكرر لمرات ومرات ، وقد كانت بالفعل امرأة وحيدة ، أمها تجتر مرارات الهجر والعوز اللذين تركهما زوجها، وأخوها صبى صغير يحلم بأن يصبح ضابط شرطة ، أما بقية الأهل فلا نفع يرجى منهم .

★★★

مازلت أدرك أن للحب بعض ملامح الكراهية ، كلاهما موجع متأرجح لا يعنى ما يقوله ، ينتهيان بى ، لأصبح نوعا ثالثا من المخلوقات نبت وينمو فوق تفاصيلى التى تبدلت وبالكاد أعرفنى حين أدس وجهى وركبتى

بصدرى، وأدس كفى بين فخذى لأبدو ككومة منسابة بالخوف والقلق ، كطائر أعتم يندس فى جناحيه ، أحتال لإخفاء مخالبى كى أظل محتفظة ببعض إنسانيتى ، دون اهتمام لتحديد نوعى. حيث لم تعلمنى أمى كيف أكون ذكرا ولم يعن لأبى شيئا أن أكون نساءه المصونات ، لأصبح كما أنا عليه الآن ، روح ذائبة محمومة تحت حراشف وصدفات صلبة قد تكشطها أحيانا أغنية حب قديمة يبثها ترانزيستور صغير لرجل عجوز يطرح خلف ظهره المدينة التى بدت كوحش أسود يبخ اللهب الأصفر بين أسنانه ، يتربع الرجل منفيا من الرحمة على الصخور فى مواجهة خليج يسحب ماءه جذر الغروب، الذى ينكشف أرجوانه فى القاع المخاطى المدرن بالعشب اللزج داكن الخضرة .

آه الحب

الحب فيه بقاااااائى

آه الحب

الحب فيه زوالى .

يصرخ الأستاذ بينما تحملنى لسعات الربيع المباغت إلى البيت والى مرآة أمى التى يشاركنى الجميع فيها خلال عبورهم المحاصر لحياتى كلها ، ويكون على أن اعد دفاعاتى الفقيرة ، صورة أندريا الذى تعاود ابتسامته أحلامى المختصرة وأنا أنتقل إلى صفر ثان بمحاولة التطهر وإيقاد شمعة تطلق الروح من الكلابات الوثنية التى تقضم معاصم تطورى بشراهة وبأداء تمثيلى ضعيف الدلالة ، يحتثى القرف على حمام ساخن ثم الوقوف حافية القدمين يتقاطر الماء من شعرى طاهرا وأنا أحاول تجفيف ألمى .

وعلى أى حال فقد تلحفت تماما بشعور تعس لا يفارقنى حتى وأنا أضحك ، أجد عيناى تسقطان دمعات ثقيلة ، ويبقى فى النهاية دفعى للمستقبل فى محطات ضوء متباعدة ينبغى علىّ إدراكها تباعا.

فيرتبط مصيرى بخالى الذى أضطر للعيش فى كنفه ، حيث تم نقله أخيرا إلى نفس البلدة التى هاجرنا إليها قبل سنوات ، حيث بيت عائلة أمى، كما أنه ضابط أمن مشهود له بالكفاءة فى الجامعة التى كانت أول وآخر رغباتى بأوراق التقديم المدونة والمقدمة بواسطته ، ليصبح هو الحمار وأنا البردعة التى تتلقى صنوف الأبعاد والتسفيه بطيبة تليق بطالبة مستجدة بالكلية ، أتلقى كل ذلك بطيبة منبعها الإيمان بحرية الآخر فى التعبير عن مواقفه ، والأخذ فى الاعتبار بالنواحى الإنسانية التى تقسم الكائن الواحد نصفين – خير وشر ، أبيض وأسود وخلافه – فسامحت كل من أساء بغير مقابل من اعتذار أو اعتراف بالخطأ فى حقى.

تماما كما فعل أبى ، بعد سنوات من محاولات جر ساقه السليمة بلا جدوى ، واكتشافاته المتعاظمة حين يفرط فى الشرب ، لأن الحرب قامت وقعدت على قدم نخبة حصلت على كل الأمجاد ، وأن كل ما قدمه هو وغيره من الأحياء والموتى واجب وطنى لا يقدر بأى ثمن ، حتى لو كان طرفا اصطناعيا مستوردا عوضا عن العكاز التقليدى الذى يفجر مرآه فكرة " أبو رجل مسلوخة " .

★★★

ماركسسيزم

من أول نظرة

أرانى محتضنة كتبى ودفاتر المحاضرات ، أتجول فى الجامعة ، أشعر برهبة أركانها وقاعاتها ، كقيمة عظيمة تثير الوجد بصورة موجعة ، وأنا أتراوح بين احتقار الطيبة واعتبار أنها الخير ، لتنتصر وتصبح الطيبة هى القيمة الرئيسة فى تلقى الجميع .

حتى أسعد الذى أدركت أنه يرمينى بنظرات كارهة سرعان ما يخفف من صدقها حين أواجهه ، وكيف لا وقد قالت لى حميدة أنه يشعر بأننى السبب فيما أصاب أندريا ، " لو ماكنتش باحبها ماكانشى دا حصل " .

أفكار شريرة ومشاعر تتسم بالقسوة ، ذلك ما أجده حين أخط سيرة أنثى كنتها ، أفتح عليها صفحة من وجهى تنعكس الآن على المرآة، مخملة بالذكريات وتلك الوجوه التى تحتفظ بابتسامة خبيثة لغرض إغاظتى والتلويح بفشلى حتى فى الحزن لفقد أمى للأبد ، وانتفاء أى فرصة فى تعويضها عن حياة بائسة امتدت وتلاشت كقطرة ذائبة فى رمل شاطئ بعيد ، لم يتبق لى منها غير المرآة وقطع من الأثواب ، ملفوفة بعناية حول حبوب النفتالين وحبات الفلفل الأسود ، منذ سنوات تسبق بكثير يومى الأول فى الجامعة ، وأنا أرتدى واحد من تلك الفساتين التى خاطها لها أبى قبل حفل عرسهما بأيام وصل فيها الليل بالنهار، كى ينجز المهمة ويصنع لها إثنى عشر ثوبا مختلفا ، ألقاها تحت قدميها وسقط من الإعياء.

اكتشفت أمى أننى لا أمتلك من الملابس ما يليق بشابة جامعية فمنحتنى أثوابه باستثناء خمس سافرات ، قالت أنه لا يصح لى ارتداءها . لكننى الآن أجربها وأتدرب على السير كهانم حقيقية كما حاولت هى من قبل أن ترانى ، فكنت أمعن فى الرفض وأرتدى حذاء من الكاوتش ، حاربت كى أبدو مثل الزملاء ، لسبب بسيط وهو كونى واحدة منهم .

على الأقل سهام التى كانت أول من بادرت بالتقرب لى . . .

– إنتى صحيح خالك يبقى المقدم عاطف؟

– أيوة بس انا ماليش دعوة بـ . . .

– طب والنبى ممكن تجوزيه لى؟

مازال لزاما علىّ أن أغادر بسرعة قبل أن تصبح الشمس ساخنة تحرقنى كما قالت أمى ، وأخلص حقيبة سفرى من أخى الذى يمتطيها شادا لجامها بحزامها الجلدى ، بينما لسانه يطرقع محفزا جواده فى الانطلاق عبر النافذة ، التى تطل على نهار رطب وجاف لا يترك أملا لحركة الهواء ، أنفذ آخر مطالب أبى الصغيرة على عجل ، أقبل يد جدتى التى كانت تبتسم بدلال حين أقول لها باى باى يا هانم أشوف وشك بخير ، فتدس فى كفى بعض النقود الإضافية على مصروف أمى حيث يأكل معظمه الخمر الذى أسربه لأبى وكأن أمى لا ترانى ، فتلزم صمتا يزداد عنفا فى كل مرة ، أجتاز المدخل المعتم بالرطوبة الساخنة ، حيث يقف أسعد ملاطفا الهواء بكتابه وهو ينتظر حقيبتى كى يودعها القطار متمما على وجودها بجوارى كعازل للمضايقات المصادفة من صاحب السفر الذى لابد أن أحكى له كل شىء عن رحلتى ، كما أحكى الآن ، وأنا أقول لأسعد بأننى احتضنت سليم أخى بقوة جعلته يسارع بالتخلص منى والبحث عن لعبة أخرى تتيح له الهرب المحدود بصرامة أمى ، التى لم تكن تسمح له بمشاركة اللعب مع العيال فى الحارة مدلية بأن – البلد لم تعد كما كانت ، الأغراب ملأوها ، لا أريد له أن يحفظ شتائمهم . . .

– ذاااكر .

تصرخ فيه وهى تتجاهل رحيلى ، أودع أبى سريعا ، بعد أن أناوله البيرة التى أخفتها عنه أمى ، وأصبها له فى إناء الشوربة الكبير المخصص له ، أصبح يفضل أن يأكل وحده ، أقبل جدتى سريعا . . .

– عشان أرحمك من الوقفة فى الحر بزهق الانتظار أدام البيت .

فيجيب بأداء انفعالى :

– إزاى اتعب وأنا مستنيكى ؟

رغم كل قراءات أسعد فإنه كان يلجأ دوما للردود التقليدية التى يعيش فيها فعليا ، بعيدا عنى . . . أندم حين أجامله بقولى . . .

– إنت كدة هتخلينى أحبك .

– ياريت .

يتوقف اندفاعه بالسير ويواجهنى ، يرفعنى من إبطى بقوة ، يجلسنى على السور الواطئ المرصع بالأسماك المنحوتة على جداره الممتد، شاطرا المدينة بقاطرات الخزانات الأسطوانية العملاقة التى تسمح بتسرب خطوط غليظة وداكنة من الزيت الخام ، لا نعرف أنا واسعد إلى أين تذهب به القاطرات الزاعقة على النائمين بخيارين إما أن يدهسكم أو يملأ خراجكم بقطرات من ذهب الآبار المتفشية على الحدود .

وليه لأ . . . ما أنا بأحبك .

– سوزى . . . أنا مش أدك .

– أنا إللى مش أدك ، إنت صديقى وأخويا وأستاذى كمان .

– أنا ؟ أنا أستاذك ؟ ، أنا أتعلم منك وأحيانا أشعر بالغيرة وأحسدك، عندك من القوة أكثر من معارفى ، ألا تعرفى نفسك ؟ احتمالاتك المذهلة التى تصنعها عبقريتك الخاصة ، أنت غير ممكنة ، وأشعر بالخزى أمامك ، ربما لا تصدقين ما فعلته لأجل حبك ، لأنك أسطورتى التى تحدث كل حقبة من الزمان ، لا أطالب بأكثر من التذكر.

★★★

وبالطبع يعاودنى التذكر حين تتقاذفنى المهاوى الزلقة وتختلط على الأصوات ، النعيق بالدعاء ودقات القلب بنبض الحب ، يصبح كل شيء ملتبسا ، تسيح سبائك الحقائق بتوهماتى ، فلا أعرف كيف ينبغى تجنب الزيف الذى يصبح مدية حقيقية تقور ولائى لذاتى وأنا أكن لأسعد نفس المودة حتى بعد أن جذبتنى أخته حميدة لأرقص معها أمام أخت زوجها الذى زوجها لواحد من موظفى الحى :

– فيه شغل بينهم ، كان نفسه يجوزها لأسعد لكن أسعد بيحبك ، دا بيرفض أجمل بنات البلد عشانك ، و سلط العيال المتدينين يضربوا أندريا عشان ماتسفريش معاه ، كان خايف عليكى ليكسر قلبك ويسيبك تتوهى فى الغربة ، وما كانش أصده يأذيه ، العيال افتروا من نفسهم وعملوا إللى عملوه ، وخللوا دم الواد يتصفى . حاجة تحزن .

الطبول تدق من قلبى وكل أوردتى ترجف بالرقص الجامد لحميدة ، تمنيت بشدة أن أطلق عظامى بالقزع المتشكل من طبقات الوجود ، ومصادفات القدر . لكن عقلى ظل جامدا لا يبعث بأى رسالة إلى أوصالى العاصية على دبيب روحى بالغضب والغيظ والرمى باللوائم على أسعد ، الذى حمانى بسهم مسموم فى قلبى ، والتصقت قدماى بالأرض التى تهتز بصدى دقات الطبول ، كنت العصاة ورقعة الأمعاء الجافة المشدودة ، مشاعرى تتصاعد بالذنب ناحية الجميع إلا أنا شجن المزمار العاجى وكل الفتيات اللائى يتناوبن الرقص ، أعجز عن الفرجة ، أسيح فى الظلمة خلف حبل الضوء الذى يطوق كوشة العروس وحلقة المدعوات ، ومن الناحية الأخرى حلقة العريس ومدعويه ، أخاف من وحدتى ، وأعود إلى المشاركة باندفاع أغانى الفرح تنطلق ، مثيرة مشاعر جليلة فى قلوب البنات ، ليجدن فى فكرة الزواج والثوب الأبيض وعداً بالبهجة ، وأنا أصدق كل الأغنيات .

أسعد كان يغنى لعبد الحليم «الهوى هوايا لكن دانا كلى حيرة مش باملك يا أميرة» .

وأندريا يغنى لـ «نيل دايمون» :

«رِد رِد واين ..

جوتوماى هيد

ماك مِى فورجيت

رِد رِد واين ستاى كلوز توم»

«لا تتركنى وحدى

★★★

ربما يستحق كلانا العقاب أنا وأسعد فحتى الأقوى يمكن ملاحقته والنيل منه بالانتقام ، الإلهى عادة ، حين تضعف قوتى الدفاعية ، فأنسى من أكون وعلى أى أرض أرتكز ، حيث للصدمات العتية سطوة الانقلاب النفسى على الذات .

فى سن العشرين كان علىّ ترتيب الفوضى المفروضة بإحكام عرضى ، وهو أمر هين لا يستلزم غير وضع كل شىء بموقعه ، وترتيب الجملة المكونة من فعل وفاعل وعادة مفعول به مقدر لتتردد بذهنى طوال الوقت بكل ما يفترض بأن اللغة تحمل العالم بكامله فوق أسنة قوانينها وشذوذاتها وأحيانا شططها فى المعنى –

أسعد سلط العيال على أندريا

أسعد على أندريا سلط العيال

العيال سلطهم أسعد عليه

وهكذا إلى مالا نهاية وأنا المفعول به والفاعل والفعل فى كل الأحوال ...

ذلك اللعب بالكلمات أوقعنى فى عشق اللغة والسعى لدراستها بعناية أساتذتها الناصريين الذين أخطأهم الدور فى الترقى لمستشارين ثقافيين بسفارات الخارجية ، كما فقدوا فرص التنصيب كأمناء المجالس الداخلية وبالطبع لن تأتيهم مقاعد الوزارات ، فكانوا يلقنون اليأس بداخل القاعات المظلمة لكلية الآداب الناشئة ، يختبرون قوة اللغة فى الأمر والنهى والعشق ، فتنغم الكلمات على الأمخاخ كالمطارق الموسيقية .

– لا تصالح وأن توجوك . . .

– يا دار عاتكة التى . . .

– أن تعيش لتتعلم وتشقى أو تنعم فى أضرحة الجهل ، تلك خياراتكم وهناك بعض استثناءات للمحظوظين لا تعتمدوا عليها . . .

تلك كانت حكمة البداية التى جعلتنى أعول على ذاتى المتشكلة بـ مقولات أسعد وأمراضه الخفية ، التى تنز قيحا تحت لواصق الجروح العريضة ، وسواس الانتقام مغروس بعمق فى رجفات روحى المكومة بموطن للألم يحملنى بغير وعى إلى الرحيل السريع وقطع المسافات المرصوفة بجرح أسود يفصل بينى وبين أسعد بأميال غير مرئية ، يستفز الغضب بكلماتى التى أجمعها بهوس وأقذفها فى وجهه بلا رحمة كشخص ملعوب به مرفوع تقديره أنا.

– يا أسعد يا عزيزى ، لقد منحنى أندريا أشياء مختلفة عما تمنحنى ، كانت أكثر من كلماتك ، لذلك فلن أستطيع استبداله بك .

وأنطلق فى القطار الذى يسوس الطريق الصحراوى بجنود خائرين ، ومنهم هاربين من الشرطة العسكرية ، التى تلاحقهم بأشرطتها الحمراء الملصوقة بالأذرع التى تنتزع العساكر من نومهم بقبضة قوية ، تحرمهم أجمل جزء فى الحلم .

أضيع الزمن بين قطارين بالدوران حول تمثال رمسيس الذى يرمق زحام ميدانه بانكسار خلف الدعامات الخشبية الموطئة للفه بالأحبال غليظة الخشونة ، الميدان يعد لأن يفقد معنى اسمه ، لتتخالط الميادين بين سابقا وحاليا ، لا شيء يدوم ولا شيء حقيقى ، عالم من المجازات المختنقة على سطح النهر الممتد بين السيارات التى تتراجع فى سباق مع قطار الصعيد الذى تركد فيه سوزى نصر جلال الطالبة بالفرقة الثانية بكلية الآداب ، خيارها الوحيد الذى يكفل إتمام تعليمها ، لتكون برعاية خالها المسئول بحرس الجامعة .

أو ليس طبيعيا أن تصاب ذاكرتى بالسفه لبعض الوقت فأنسى رحلاتى إلى المعارف الصادمة ، أسقطها بقسوة فى وحل الترعة التى تلتصق بقطارى ، أفقد طاقة التنبؤ التى مستنى بها عوالم العدم وجحيم الآخرين ، المتكرر بأعوامى التى تنتقل برعونة من اللحظات المتخمة بحكمة أبدية لحسبة عالم من الفوضى واللا جدوى ، أتصنع إغفاءة بين سطور الكتاب " أيامى معه " فى سيمون وسارتر ، وأتساءل هل كان بالفعل هكذا أيامها ؟ وهل كانا خيارين موضوعيين لبعضهما بعض ؟

وفى كابوسى يخلع أبى ساقه ويلقيها من شرفة القطار قائلا ،

– ولا يهمك . . . فداك يا بطل . . . حاخيطها .

بينما عم عبد المنجى يحوم مثقوبا خارج النافذة . . .

– كان لازم تجرى بسرعة ، تهربى قبل ما يقطع أبوكى . . . كسلك هو السبب.

أستيقظ على طيف اندريا وهو يمحو ذنبى ويدلى بحكمه. . .

– لقد فعلت الصواب ، فلا تحزنى ولا تجعليهم يطاردوك ، فليس باستطاعتهم أن يحتلوا مواقع تحاصر روحك للأبد . . . ويرحل .

★ ★ ★

هذه الخطوات المنزلقة فى نعومة التراب لى والجسد الخائر المترنح كذلك، المشهد حولى جامد تحت وطأ الشمس ، وما من نسمة طرية تحرك هذا الثبات المخيف لآلية الحركة ، النداء المتتابع لاسمى لا يخصنى ، أنا خارج الصورة ، بشكل عملى ، أحاول المرور ببطء وأنا ألهث ، يسقط اسمى على كتفى مع نقرات الأصابع الحادة لما بين كتفى وعنقى ، تذكرنى بشق مطواة قديم يلتهب بالعرق المالح :

– سوزى . . . سوزى .

– نعم . . . آه . . . أهلا . . . ياه مش واخدة بالى يا خالى ، بتنادى من بدرى؟

– من بدرى ؟ مالك يا بت تايهة كده ، إنت عيانة ولا بتتمايعى ؟

– لأ . . . أنا كويسة .

– ياللا . . . إركبى أوصلك البيت .

– عندى محاضرة مهمة . . . لازم أروح الـ .....

– ما فيش كلية النهادرة . . . احتمال العيال يعملوا مظاهرة . . . خليهم ياكلوا بعض أهم ولاد كلب كلهم مالهمش لازمة . بهايم بترعى .

★★★

أتوقف أمام عربة الأمن الملحق بها صندوق مفتوح على طاولتين ممتدتين، يتصدرهما عسكريان يريحان ذقنيهما على بنادق آلية ، يتشابهان بأسدى قصر النيل تلفهما الإضاءة الفسفورية والنسمات الحميمة لأطياف النهر ، أفتقد أندريا بعمق ، وألحق به فى فراغ قديم ملحق بالوهم .

فى واقع الأمر لم تكن الحياة مع خالى تسمح بأية تفاصيل ، حتى مناقشة أى من تعليماته وأوامره ، فلم يكن هناك أية مداخل للمحاولات ، ويكون الكذب هو أفضل ما احترفته على الإطلاق وباستمرار ، وبخصوص

كل ما أمارسه طيلة الوقت ، حتى المتعارف عليه بين البشر عموما ، وليس منى تحديدا كالأكل والنوم واللبس والمشى وآخرها الكلام الذى سيؤدى حتما إلى علقة ساخنة لكل الفجر الذى تحمله كلماتى ، وبالطبع لم يكن هنا ضحك ، جدية مطلقة . . .

– اتحاد طلبة إيه يا شاطرة ؟

– مجلات حائط إيه يا آنسة ؟

– تنظيم طلابى يا بنت الكلب ؟ وأنا إيه ؟ فرن عليكى ؟ مش حاتدخلى امتحان السنة دى ، وبإيدى حاكسرك عشان يبقى عندك عذر للرفاق هىء .

أضطر إلى دخول امتحان الفرقة الثانية على عكاز خشبى أخفيه تحت النقاب الأسود الثقيل المسدل على كل ملامحى ، أعطته لى سهام بعد أن استعارته من أخت خالد عضو الخلية النشط الذى أطلق ذقنه وأعلن استقلاله بحركة درامية فاجأتنا فى الصباح ونحن نجتمع حول مجلاتنا المخطوطة بأقلام الفلوماستر الملونة والمقننة بالصور المقتطعة من دوريات الحزب التى كانت تصلنا من " عصام " ، والحقيقة أن هذا الزى أتاح لى أن أراقب خالى وهو يمارس عمله دون أن يرانى ويصلبنى على البوابة الحديدية، فى إعلان مجانى عن انتمائى إليه ، وخطورتى على جميع من يقربنى .

ويدخل عصام فى صف أندريا وأسعد بانتظام مذهل ، يدخله فى صفحاتى بنفس المفردات الهادئة والمعتادة ، ساطرا رسائل صغيرة ، تهيمن على أفكارى ومشاعرى ، ولكن بلهجة شديدة القسوة ، تدفع سهام لأن تسألنى :

– هو ماله حاطط نقره من نقرك ليه ؟ دا مركز معاك أوى .

كان يضعنى تحت مجهر غير عادل ، هذا المناضل النحيف الذى كان يطلق شعر رأسه ويظهر الفراغات الواسعة بين خصلاته المعتنى بها ، ويظهر انفعاله بالطريقة التى يدخن بها سجائره المفروطة على مائدة الاجتماعات بجوار يده اليمنى ليظل يقلبها بأصابع يسراه حتى ينتخب واحدة ، يشمها ويشعلها بسرعة ، كما يدخنها فلا يفقد منها نفسا واحدا ، وتظل جمرة حمراء متقدة بطرف شفتيه . يبدو كشيوعى نموذجى طبقا لفقره الواضح فى الحذاء الأكبر مقاسا ، الذى كان يبدله مع حذاء آخر ، ويمارس جنونا ارتيابيا طيلة الوقت معى ربما لعلاقتى بجهاز الأمن المتمثل فى خالى، الذى ويشكل ما كان يمثل الجانب الآخر لوجه عصام ، أشعر بأن مصيرى سيرتبط به بشيء من الجنون ، وكأنه شخص مهم يساهم فى صناعة تاريخ، بدا وكأنه الخيار الأفضل بالنسبة لى.

أقرأ تروتسكى ، كى أحظى بمعرفة أكبر عدد من النظريات التى يلوح بها الجميع مما يعوق علىّ فهم السياق ، مثل الكوميونة . . . العالم الرأسمالى ، الجيش الأحمر ، كيف تدار مذبحة قاسية بعد حكم بالذنب باسم الثورة ، مجانين كومبلا ، كيف نسقى الفولاذ ، تصدير الثورة ، وأفقد الأمل حين يقتل ليون تروتسكى فى المكسيك بيد الستالينيين ، وبوصفى واحدة من نساء صالحات عابدات سائحات ، تائبات ، استطعت أن أحظى بدور صغير فى استعراض المعضلات التنظيرية للعمل الثورى النضالى بينما تحضرنى مقولة " وايلد " بأن النضال هو فضيلة الأشرار ، كنت منقسمة على ذاتى ، أؤمن بالأمر العظيم وأحوله إلى تفاهة بين لحظتين وأنا أتمنى لو أسكب الجاز على كل الرفاق الذين يسخرون منى ويحولون نظرياتى إلى فسحة عملهم الشاق الذى أراه غير حكيم ، وأنا ألقنهم بمطاحنة كيخوتية أن

الثورة الفردية لابد أن تفشل وترتد على الأبرياء، وأن الوقت الآن لا يتلاءم مع السرية ، وفى النهاية لدينا فرصة الحصول على مقاعد رسمية ، فلماذا لا ندعم هذا الوضع ونساهم فى جعل كل الطوائف تتفق على صالح المجتمع وأنا أتساءل بينى وبين نفسى عن عبارة قرأتها فى رواية «عندما لا تكون فى الأفق راية . . . أين تذهب الخيول » ، أتساءل بانفعال هل المناضل يبحث عن راية أم أنه يمتطى مهرته ويمضى فى طريقه ، منشقا عن أزمته ، لماذا لا يرانى الجميع بما أنا عليه ويحتكمون لظنهم بى ؟ عصام يرانى كراية منكسة على أطلال البرجوازية ، شرف لا يمكن الدفاع عنه أو حمايته ، سمكة ميتة مفتوحة للعيون الصغيرة التى تلعب بسناكى صدئة ، ولأندريا كنت قبلة مطمورة بالرمل الناعم .

كنت أحاكم الرفاق بما يعلنون ، ولا أقلبى فيما يضمرون خلفا أدائهم التمثيلى المسبوك بالفصلات واللوازم المنطقية لما يقولونه كنت أظن تروتسكى يشرب القهوة مُرة كمصل ضد المرارة التى تصيب روحه كلما انتهى من تغطية مقبرة لجماعة كل ذنبهم أن أقاربهم فى زمن ماركس كانوا فى كوميونة باريس ، عصام يحب شرب النيسكافيه بثلاث ملاعق من السكر الناعم ، فكنت أنا كامرأة طيبة ومتجاوزه للأفكار التقدمية مسؤولة إعداد المشروبات المنبهة لعقول زعماء مائدة الفورمايكا المستديرة بمقر الاجتماع فى بيت أمين حامد الذى كانت أمه تعاملنا «كعيال فاقدين» ، وطوال الاجتماع المغطى بالكتب الدراسية ومراجع اللغة «لرجب النجار» ، تظل هى على كنبة عريضة بغير مساند تجلس بجوار باب الشقة لصق حجرة أمين المجهزة بشباك أرضى وحقل اصطناعى صغير على ورق يغطى الحائط بأعلى سريره ، فكنت معهم ، من خلفى باب الحجرة المغلق بغير إحكام ولكنه

ينفتح ، بضعوبة وصرير بطيء ممتد ، بسبب امتلاء خشبه برطوبة الشتاء ، كان موقعى يتيح لى بسهولة رؤية النافذة المغلقة ودخان السجائر الذى يتزاحم عند فراغات خصاصها ، وحين أستدير أتأمل اللوحة المبهوتة بالأحمر والأخضر وظلها من زرقة سماء صيفية ، أذهب لعمل النيسكافيه والشاى وكوب خاص من القهوة لأمين الذى يؤمن أماكن اجتماعات تنتهى عادة بحفلة عشاء من ملوخية وأرز وطبيخ تخلفت عن غداء الأسرة ، ولكننى أغادر قبل بدء «بسم اللا» الرمزية على الوليمة متعددة الأطباق ، لأن خالى "حيبهدلنى" لو تأخرت لأكثر من هذا ، التقط الضحكات الرجولية الطويلة وأنا أمر بالنافذة التى سمحت لعصام ومحمد عبد العظيم أن يشاهدا أمين وسهام يتطاحنان على السرير المعدنى الصغير ، كيف تتبدل اللغة بمجرد رحيل شخص ؟ هذا كان يشغلنى وأنا ألتقط حوارات الرفاق كرجال كبار لا يحترمون الرفيقات .

★★★

لكل عاشق خطيئة تحرق الحب ، وأنا كنت خطيئة أندريا الذى كان يقول وعيناه تعتليان موج الخليج. . .

– إنك لا تنزل النهر مرتين لذلك ينبغى أن تظل أقدامنا غائصة فى النضال حتى يتحقق العدل .

هل كان عصام ضحية أخرى لى ؟ هذا ما وجع قلبى بشدة حين نادانى خالى بعد أن دخن سيجارتى حشيش أو أكثر فى شرفة البيت الأرضى المرهون لنزاعات العائلة التى كانت ترى فى بيع هذا البيت والفدادين القريبة منه حلا لأزماتهم المالية ، باستثناء أمى التى أصدرت بيانا تعسفيا تعلن فيه أن الإرث يورث ؟ رغم أن المنتفع الوحيد بهذا الميراث هو خالى الذى يعاملنى كأسير مسل . لأن زوجته ابنة اللواء سعيد غنيم لا تطيق العيش فى هذا البيت فاشترى لها أبوها شقة فى امتداد فيصل وكان على خالى أن يسدد الأقساط الكبيرة المتبقية من عائد الفدادين ، لأن راتبه بالكاد يكفى السجائر والسفر الأسبوعى أربع وخميس ويعود الجمعة ، وهو يوصلنى إلى قطار السويس ويتسلمنى منه أحيانا ، كتاجر شنطة:

– تعرفى يا سوزى ؟ أنا باخاف جدا من عيون أبويا وأمى المحبوسين فى صورتهم ، دايما يعاتبونى ، مش عارف ليه ؟ قولى لى أنا فىّ حاجة غلط؟

بهلوسة حزينة كتلك أدرك أن ليلة طويلة لصالح ملاحمه ستضيع ولن أستطيع متابعة كتاب الثورة الدائمة صغير الحجم الذى سنناقشه فى اجتماع قادم لا أعلم حتى الآن متى وأين سيكون . وبينما أفكر فى حجة للهرب يتابع خالى بمودة أدرك أنها طارئة يجوز لى أن أمنحه على صدقها وساماً ، رغم قوانين الطوارئ التى ينفذها علىّ بعد انحسار تأثير الحشيش عن مشاعر بغيضة تجاهى . . .

– لست بحاجة لان تصارعى للحصول على شىء ، حتى ما لا أمتلكه ، لدىّ الهيمنة على البشر ، بكل أفراحهم التى لو لم يستأذنوا فيها اقتلعتها من أحضانهم الدافئة ، بهذا الشتاء البارد ، أذيب صدورهم بالرضا ، أسحب عريهم إلى كل العيون ، أجردهم من سواترهم ، فيصبحون جنودا خائرين فى مقاومتى أنال من أبدانهم ، وأكرههم حين ينسحبون من المعركة قبل أن أنتهى من اختبار كل خبراتى التى أنتجها دعما لاستمرار الحرب ، لأحافظ على ما حققته لنفسى من قوة.

– سيان فلا وظيفة لمثلك فى عالم مسالم يرفل فى العدل الاشتراكى .

أقول لنفسى طبعا ، فإن سماع خالى لمفردات مثل هذه لابد فيه علقة فعلية ، حتى وان لم يكن يفهم رأيى فيه ، فإن كلمات مثل العدل والاشتراكية ووظيفة تعد من شفرات الخطر ، وأنا لم أعد مغرمة بتكرار الاعتراضات التى تعود علىّ بالأذى ونيران الصفع والركل فأنا فى السنة الثالثة ، وبالكاد حصلت على طرف معادلة أندريا وأسعد فى عصام بتنويعه المذهل عليهما كما يتمثلان فى وجدانى ، بينما خالى يوجه إليه إصبع الاتهام متعللا بحمايته المفروضة علىّ بقوة.

– الواد عصام لسة بيضايقك ؟

– . . . . ! ! !

– أنا عارف كل حاجة بتحصل فى حرمكم ، وعارف مبررات كل واحد عامل وطنى ، شوية تأمل يوصل لنتائج سريعة خصوصا لما يكون فيه أدلة وشهود ، مش كدة يا بنت أختى يا بطلة؟

– لكن عصام ما عملش حاجة معايا دا مجرد زميل .

– أنا عندى مصادر بتنقل كل نفس وعارف إللى بيقوله عنك وعنى طبعا ما إحنا عيلة واحدة ، سمعتى عن النكتة إللى ألفوها عنى ، يكونوا

ضحكوكي معاهم وهم بيقولوا إني ضابط أمن من أيام " الحجاج بن يوسف وإن أجدادهم داقوا المر على إيدى وقت حفر القناة ؟ طبعا مش ممكن تكون عجبتك النكتة دى ، ويمكن حتى ماتعرفيهاش ، مش ما سمح لهم يستخدموكي ضدى ، فاهمة يا بنت الكلب؟

حمدا لله وثناء على مهندسى قوانين الوراثة الذين لم يكتشفوا بعد معادلة كشف الأفكار ، وإلا كان خالى بادر باستخدامها كأدلة لإبادة دفعة بأكملها من طلاب الفرقة الثالثة والرابعة وربما الثانية والأولى بكليات الآداب والحقوق ووثائق المكتبات تحت حراسته . . . تنتقل نوبتها هنا على السور الذى يحيط بفراندة والتى خطت عليه العتمة جمجمة وعظمتين متعارضتين ، وعبارة غير مرئية ، احترس.. خطر هذا البيت قذارة .

والآن تحاك مؤامرة ضدى بالدرجة الأولى ، أنا الأثيرة التى ترمى بالحجارة كيلا يزعجها الذباب . . .

– أنا فرصتك النهائية ، جنبتك هنا فى هذا الإرث القديم ، لا يمكن لأحد التعرض لك ، أخرجى أخرجى إن أردت دقى كل الأبواب ، لن يفتح لك أحد، ستظلين معلقة بالأجراس إلى أن يرد على سؤالك بغير اهتمام ، سيضللونك، حتى تضيعى فى الزحام ، مسكينة يا بنت شقيقتى ، إرادتك فى الوهم قوية، كما أبوك البطل الذى فقد كل شىء ، ألست معى فى أن العالم يعمر بالفوضى وأن ربنا غضبان علينا ؟ فلم يعد شىء يوقف العنف غير العنف ولا الألم غير البتر ؟ عموما روحى نامى وأنا حاتصرف مع الواد ده ، ملفه اتملا كفاية ، عقد بالكيل ، تنظيم سرى ، نبات داخلة ونبات خارجة ، أدى مبرره عشان يبقى زعيم .

★★★

منذ الصباح ورائحة الخطر تشتعل من حولى ، حين يعترض خالى طريقى مبديا ازدراءه من ثيابى التى تمم عليها من قبل لأكثر من مرة وأجاز خروجى بها ، مصطنعا أمرا بحظر الخروج ، لأنى قليلة الأدب ولبسى ضيق، وكمان بأبص بوقاحة ، رغم أن عينىّ كانتا تتوسلان السماح لى بالذهاب إلى كليتى ، لأن محاضرة دكتور نصر مهمة جدا النهاردة ، وكيف لى أن أخرق حظر التجوال فى ظل حياة الطوارئ التى لا يعرف غيرها خالى ، ليمر يوم كامل وأنا معزولة بكامل ملابسى وحقيبتى فى حضنى انتظارا لحظة الإفراج ، التى تتأخر لصباح اليوم التالى ، فتتلقفنى محاسن على البوابة وهى تلقى على بخبر مداهمة البوليس لبيوت الجماعة بالأمس ، والقبض على أمين وعصام وسهام ، تسلمنى محاسن للباقين وتتراجع خطوتين إلى الخلف وهم يجلدوننى بلا شفقة أو رحمة لجهلى بكل ما حدث ، وكيف كان يمكننى أن أفسر اختفائى طيلة أمس ، حتى لا يتورط خالى فى وجودى معهم ؟ كيف أبرر تأخرى الدائم عن كل اللحظات الفارقة ؟

– طبعا ، إزاى تكون موجودة وهى إللى مبلغة عنهم ؟

– خاينة . . . عميلة .

– فين وديتوا العيال ؟

– الدور على مين يا مسرور ؟

– صحيح ما قدروش عالحمار .. هى مالها ؟ دا كان لازم يحصل وهيحصل تانى حتى من غير وجود سوزى بيننا .

تصرخ فيهم محاسن وهى ترج شعرها بعنف وتحيل بينى ووخزاتهم التى امتدت إلى كتفى ، وتنتحى بى وتسألنى باتهام . . .

– إنت فعلا ما كنتيش تعرفى ؟

– حتى إنت يا محاسن ؟

– حبيبتى مصدقاكى من غير ما تقولى ، بس. . .

كان من الطبيعى أن تصدق براءتى ، فهى الوحيدة التى تعرف بأن عصام وأنا نكرر مشهدا ساذجا وبدائيا فوق الشاشة المهترئة من عروض مليون عصام وسوزى ، فى فضاء نيل وقمر وحكايا متبادلة تثير ما يسمونه حبا جديدا ، نسمع فيروز تداعب وجدا ، وعينا عصام تتسعان لعالمى وأحكى له عن أندريا ليشاركنى إعجابى ويفغر فاه على لعاب التفهم والدعم والمساندة ، وأسبغ عليه من تصورات وظن يتيحه خيالى الذى يعاصر خوائى ، فيشاركنى عصام وحدتى وأحادثه طوال الوقت بصوت يتردد فى طرقات البيت، التى اعتنيت بتلميعها وترتيبها لتشرق بذلك الضوء اللامع الذى ينطلق من عينىّ، وأنا أجلس كما يجلس عصام وأكتب اسمه مرات ومرات حتى أوشك على نسيان حروف " أندريا " ، الذى انتقلت من زاوية تأمله ببعض من تعمد ، ومحاسن ورقتى التى أخط عليها مشاعرى الغريبة لعصام حتى وهو يتناولنى فى الاجتماع ، وكأنه لم يكن من كان يعزف على أصابعى منذ لحظات ، أسفل غطاء الترابيزة المشمع المزين بورود متشققة ، فقد تواعدنا بغير اتفاق على تلك الدقائق القليلة التى نستهل بها الاجتماع قبل موعد حضور الجميع ، بينما أمين منشغل بالكلام مع أمه يحاول إقناعها بضرورة عملنا النضالى وأن ذلك لا يؤثر على الذاكرة ولا على أحلامها ، وأنا أتفرق بأصابع عصام واسمع صوت أمين وكأنه ينصب فى بئر عميق . . .

– كنت عاوزانى أكون دكتور ، حاكون دكتور بس دكتور جامعة مش أرزقى يتحدف ف آخر الدنيا ويرجع يربى كرش فى العيادة .

– بس البت سهام دى أنا ماباحبهاش .

– سهام من افضل البنات إللى عرفتهم طول حياتى .
– ما هى معطلاك عن المذاكرة طول اليوم كلام فى التليفون .
– يا ماما . . . ما إنت عارفة إنى حاألم المواد كلها ف شهر .
– يا بنى حكاية آخر شهر دى بترعبنى ، لازم تعمل حساب للوقت والظروف .
– كله حيبقى تمام ، سلام بقى عشان أقعد مع الناس . . .
– ناس ؟

كانت تلقى بالتساؤل إلىّ ، فأنا بالنسبة لها كنت شيئا مريبا وغير مريح لأنها حين تستقبلنى، تضع ابتسامة غير متقنة على وجهها ، وأظل للحظات طويلة أنتظر أن تمد يدها بالتحية دون جدوى ، أصبح كل ما يدور تفكيرى حوله هو يد هذه المرأة البيضاء التى تبدو ناعمة ، والتى تبارك رأس عصام فى كل مرة أمامى وتدعو له :

– ربنا يحوش عنك الشر يا ابنى .

وعصام يبتسم بزهو وأنا أعلم وهى تعلم أننى الشر الوحيد الموجود بالغرفة . ظل عصام يقاومنى ويضعف من قيمتى أمام الجميع ، ربما مجاملة لها .

– أنت بعيدة عن الشبهات ، تستطيعين التحرك بحرية ، وعندك ملامح هزلية لا تثير الريبة ، حتى أنا نفسى لا أفهم سبب وجودك بيننا .

أمسك بملامحى محاولة اكتشاف الشخصية التى تواجهنى ، ليصعد من وجهى جنونا مفاجئا وحمى حرائق الغضب ، أحــدق فى عينيه بإصرار عنيد . . .

– أنت بتعاملنى كده ليه ؟

كان يشبه قطة خالى حين ترفض الطعام ، يصبح مهموما فاقدا نشاطه، يخفف من حدته بدعابة حامية غير مضحكة لى أو لأحد من الرفاق .

– الحقيقة أنت غير محددة ، كلنا عارفينك وعارفين نضال أبوك وتضحيته ، لكن وجود خالك فى المشهد ، معوق للتوازن ومثير للشبهة ، إحنا مش عبط ولا سذج . . .

جلسة جلدى هذه عبثية ومضيعة للوقت ، وجهى ينبسط مشلولا وأنا أنتقد بلا رغبة فى الدفاع .

– . . . ثم إيه علاقتك بالإخوان ؟

– ليست علاقة ، أنا فقط أتحدث مع خالد . . . صديقنا . . . ما إحنا لازم نفضل أصدقاء . . . وهو إنسان كويس بغض النظر ع . . .

– خالد بقى مع الجماعة ، يعنى ما بقاش مننا ، عارفة دلوقتى شايفك أزاى ؟ زبالة .

– أنا باحاول أفهم يمكن أعرف اساعده .

– وممكن نلاقيكى بكرة لابسة الحجاب .

– الشكل ما يهمش . . . المهم أنا باعمل إيه

– الشكل واللون والمضمون لازم يكونوا متجانسين .

– وكمان يا سوزى صعب يكون خالك عاطف بيه فى الوقت إللى أنت معانا ، وبتقفى مع خالد وجماعته .

– إزاى بتظبطى علاقاتك كده ؟

– إحنا مش بنقول لازم نسبق الجماهير بخطوة ، يعنى ما ننفصلش عنهم ، نعرفهم ، وإلا إزاى حيتبعونا ، وإحنا أساسا شكلنا مشوه ، ما يعرفوش عننا ، غير أننا شوية إباحيين بيدعوا للشيوع ، لازم العمل يتوقف

عند مرحلة ، عشان نراجع الأخطاء ، نحتمل كل الآراء ونلفت النظر لفكرنا الحقيقى ونكسب أعضاء للقضية ، ضرورى الكل يتقبلنا .

تبتسم محاسن تشجعنى وبليغ يطرق رأسه مبديا التفهم ، وعصام يفكر، بينما سهام تومئ لأمين كى ينهى هذا الجدل ، يتناول أمين ملعقة الشاى ويدق بحوضها على كوب الكركديه الفارغ ويغنى :

- الذبابة . . . وقفت على الزجاجة . . . قلت لها هش . . . قالت لى مالك؟ روح شوف عيالك .

ضحكنا وانتهت الجلسة بغير حكم ، ولكن عينا أم أمين تدينانى ، وتغرقانى بشعورها بالخطر ، محاسن تدعونى لألا أسيء الظن بعصام ، لأن هذه المناكفة معناها إنه يحبنى ، لأحجل على خطوط جيرية معوجة ، وقلبى علبة ورنيش ملآنة بالرمل الناعم ، اندمج عصام فى اللعب بجد ، سلمنى تاريخه وقاسمنى أحلامه ، سرنا طوال شارع البحر ، والنيل جاث تحت السماء ، متوقف عن الجريان وكأن أسطورة تخرج من رحم ما ، عصام يبحث عن يدى ويرتق روحى.

- أحبك ، هذه هى المسألة ، وأنت غير متاحة ، غيابك وحشة ، حضورك يلملم فوضى العالم ويملأ الفراغات المعتمة بالضوء .

كان يفجر بهجاتى وهو يطارد وحدتى ويتبع أحلامى ، يجمعها نطفة بنطفة، حتى صاغ طوقاً حول رقبتى .

★ ★ ★

أغادر البوابة وحدى ، الكل يتأمل ضعفى ، أنسحب من الضوء والصخب المسدد باتهامات نافذة إلى ما تحت لونى الهارب من أطرافى ، وأنا أتخيل يد أم أمين تصفع وجهى ، ليس هنا مجال للشك فى أننى وراء ما حدث لأنه كان تخطيط السيد خالى ، ماذا أفعل؟ تعاويذى معطبة ، وخالى يتلقى

تعاستى بسعادة حقيقية مرحبة ، كلماتى ترقص حول انتشائه لفاعلية سوار الألم الذى أحاط به معصمى منذ عقود من العلقات الساخنة ، وهو يلقى فى نهر حياتى بآخر حاملة زفت ، ينازع الموج روحه ، مادة من الكراهية تصنع هناك ، أقوى من طاقة الحب ، أمد يدى المغلولة بالغيظ واللوم لأدفع هذا الشر الذى يأوينى ، ألتقط القلم المفتوح من الأرض على ورقة بيضاء وأرسم الراقصة التى اعتدت استدعاءها كلما غمرنى الألم ، شعر غزير منساب يشعث ، بزة الرقص المحبوكة تتهدل وتسيح ألوانها ، استدارة البطن، تترهل كموج ذاهل ، وبفعل جاذبية ما تسقط الأرداف وينمحى الخصر ، أرسم هرمها بأعلى القدمين فى سمت زواحف زرقاء وحمراء تمر بوحوش سود ، تنتهى نعومة الجلد ، راقصتى طعنت فى الهرم ، لم يعد وجهها ينضح بغير الألم المضمد بابتسامة سكرانة ، سعيها الطويل بأستار المسارح التصق بسياج مكهرب بالتعاسة ، رقصها ارتجاف ملسوع ، التعويل على الابتسامة . . . حماقة ، فليس هنا إمكانية ، يعود القلم بألمى إلى دائرة مغلقة من صفر كبير يحفز قيمة الانتقام ، من خالى الذى يتضخم بـ التعالى والانتصار ، وبموضوعية غير محايدة أدفن غضبا مطاطيا تحت قهره المسلح بقوة المتحكم فى الإرث الذى يلقى لأمى بجنيهات فى آخر كل موسم زراعى، هى ما تبقى من إيجار نصيبها بعد خصم مصروفاتى .

– بنتك بتاكل زى البهايم .

حتى يصبح الأكل عادتى السرية على حائط فقرى ، حاجتى للدعم تواجه بلكمة من خرافة العائلة القابضة على مصيرى ، هل أسأله لماذا ؟ أم أترك كل شىء للنهايات ؟ يحاكمه عقلى بلغة فزعة بينما لسانى مثقل بتجلطات قلبى المنحدر من أرستقراطية ضاربة فى العفن ، يباغت هلوساتى فأنهض ملسوعة ، أسقط ساقى المدوتين على سطح المكتب القديم ، أغلق النافذة ،

وأتبدى له كصور الموتى المحاطين بأطر سوداء ، يتسلل ظلى كشريط مومياوى تهدل بالألم ، أحمل حقيبتى وأرحل عن الواقع الموجع وفراغ البيت الموحش وملفات خالى ، رحيلا مفاجئا يخرق قرار عناية خالى بين أقبيته المعدة لحركة الزواحف ، ألحق بآخر عربة فى القطار بغير خيارات واضحة لو رحت لأسعد وحكيت سأحصل على نفس النظرة المشفقة غير البريئة من إشارات الذنب ، لم أكن أتصور وأنا أستريح على صدر أبى أن عنائى سيزول ، بكيت حتى بللت جلبابه وألصقته بصدره . . .

– فين بنتى إللى باستناها واتنفس فيها حرية الموج ؟

كنت فى محارة كبيرة تفر من الجميع بالأعماق الكثيفة ، متهمة بلا ذنب غير أن رملها يحمل ظلال الآخرين بعتمة الغدر ، بهذا الكيف ترى سوزى المسكونة بأعماق البحر ، الكل يركض من الكل الذين يرمونهم بالحصى الكبير مقابلين تعاستهم بسعادة كسر قامات هزيلة ، "يارب" لماذا جعلتنى أرى– هكذا– بهذه القوة التى أعرف أنها ستنهار فى الظلمة ، مثلما أصاب العمى فجأة جدتى وهى راضية لأنها تعلم أن النهاية هكذا فكل الجدات أصابهن، العمى من قبل.

– هذا ميراث العائلة مع المرآة ، هو الآن نصيبى وسيكون لأمك وسيكون لك وسيكون لبناتك ، لكن تذكرى المرايا تورث مبكرا ، قبل أن تفقد جزءا من دورها .

★★★

لماذا إذن لم تعطنى المرآة ، أنسيت ؟ أم إلى هذا الحد تكره رؤيتى وأنا فيها ، فتشيح بمرآتها عنى طوال إجازتى ، لأصبح مهملة ، ربما تفعل ذلك لأننى لا أشبهها ، أو هى تخشانى؟ بالفعل هذا هو التعبير تخشانى وتلك كانت " أم أمين " أيضا تخشانى ، هل أنا تعويذة ضارة لا تكشفها إلا

الأمهات اللاتى يعرفن مسبقا أن لا شىء يفك الطلسم ، وأن الدعوات لن تكون مبطلة للقدز المقرر ، لكنهن يقاومن اللعنة بالصمت وعدم اللمس ، يالها من عقدة كيف أنسل منها ؟ أخرج من حب الجميع مرجومة بالكراهية ، أنا - كيان مرموق - كما كان «أندريا» يقول ويتوقف ليداعبنى ولكن عليه أن يتحقق .

كان «سليم» بجوارى يبتسم لى بضعف ، وأنا أبتسم له وأبكى أبى الذى يحاول أن يخفض من صوته وصوت خالى الذى يلقى خطابا على جمهور من الضحايا .

- بنتك مش رايحة الجامعة تذاكر دى رايحة تتسرمح ، وأنا مش فاضى لها ، خليها عندك وبناقص شهادة أهى مسيرها تتجوز .

- حرام دى ف سنة تالتة يعنى كمان سنة ويبقى ف إيدها الليسانس ، على الأقل تعرف تربى عيالها صح .

هذا المشهد يتكرر بخصوصى ثانية ، وخالى يمثل نفس الدور ، وأبى لا يدافع عن حقوقى ولكنه يطلب الرحمة ، وأنا أتفرج بصمت وأبتسم بوداعة ، لو كان أبى أخذ حقى فى المشهد السابق ، لما أضاعه اليوم لتتشكل عقدة منسية للتى تتبع أباها فى ضعفه ، كنت بحاجة قوية للرجوع إلى معتقلى لأننى تذكرت فجأة التحدى الذى اعتمدناه حين تخاطبنا وقال أمين :

- يا إما نكون دكاترة يا إما ننتحر جماعة .

- أنا لازم أكون دكتور .

يرد عصام بينما أنا لا أحدد موقفا من ذلك التحدى ، وما جدواه ؟ أما الآن فإنه لسنى بقوة وأصبح قضيتى أن أصبح مدرسة جامعية فهذا أمر لم يحلم به أبى ولم تتوقعه أمى ، وعلىّ أن أتحمل خالى فإن لكل شىء ثمن ،

لذلك كنت أتمنى أن ينجح استجداء أبى ليسمح لى خالى بالعودة لإتمام دراستى رغم أنه يؤلمنى :

– البنت حاسة بالذنب ، مش قادرة تواجه زمايلها ، يعنى مش حتتكلم مع حد أبدا .

– دى فاشلة بتخلق مأساة عشان ما تدخلش الامتحان .

– عشان خاطرى .

– خلاص ، بس أى غلطة . . . مافيش شهادة ،.مش حاخليها تعتب الجامعة .

★★★

لابد أن يفخر بى عصام عندما يفاجأ بزمالتنا معا وفى نفس القسم لنصنع أطروحة مختلفة عما نتلقاه من أفكار عرفية ، لا أعرف لماذا أتخيل عصام وأنا أجادله بجسده الضامر وبشرته الوردية ورأسه الحليق وهو عار مصفد من رقبته إلى جذعيه، يسقط كل الأفكار على أرضية غرف التعذيب الأسمنتية .

وأنا بجوار الجلاد فى قطار الأشلاء بينى وبينه حقيبة أتكئ عليها مدعية النوم لأتجاوز أى مواجهة تفقدنى فى النهاية حريتى فى تقرير مصيرى ، على أن أعزف على قوانينه طوال الوقت ، وأن لا أشعر بالذنب كثيرا حيال أصدقائى الذين ينعمون باختيار مجافاتى وكأننى موصومة بخالى الذى أنطلق ذاتيا مع أول نفس حشيش بابتدائه فترة مراقبتى التى ليس من المحتمل تهربى منها . . .

– إذا كنت حزينة على أصحابك ، فلحزنى أكتر عالى جاى ، الأوامر جاية بالطحن ، ما حدش محتاج لهم وبيعملوا دوشة مالهاش وقت ، الدنيا بتجرى بعيد ، والناس عايشة فى فقر وجهل وكدب ، وماحدش واخد باله ،

وحتى لو خد ، ماهه إتعود عالخيانات ، فاكرانى مش وطنى ؟ أنا وطنى أكتر منك ومن الزبالة بتاعتك دى ، أنا ضحيت للوطن بكل أملاكى من غير حتى ما حد يطلب ، وساهمت ف إنشاء الجمهورية ببيت أبويا وأرض جدودى إللى اتصادروا ، أنا لبنة فى حائط الأمة ، و لا أريد أن أكون الأضعف ، لازمنى كلابات وحاشية عشان أكون زعيم ، وأحب يكون شعبى حثالة عديمة القيمة زيك أنت وأصحابك ماتخوفينيش بنظرة النبل دى ، الخريطة مش طرق قديمة مرسومة ، الخريطة هنا فى الدماغ ، ماباقتش أتخدع من زمان ، حتى الأفكار المثالية خداع ، الأمن والثراء للجميع بنفس المقدار ، العدل على أرض من خطيئة ، ينفع تساوى بين قطة وفار وتخليهم عايشين فى سلام ؟ هل مازلت تصدقين ؟

- لأ يا خالى أنا عاوزة آخد الليسانس وخلاص .

كنت قررت وأنا أراقب أبى يفاوض خالى أن اكتسب بعض الحكمة ، فخالى الذى ينتحل وجه ذئب الآن يحتاج إلى المسالمة لحين نهايتين أيهما اسبق ، وسأستقل عنه تماما ، أفكر فيما سأفعله وأنا أقلب وجهى فى البيت ، وعيناى تتجولان بحرية ، سأسوى الملفات البيضاء الراقدة بسكينة فوق مكتبه ، وربما أقرؤها سرا فى أوقات الفراغ ، لن يكون هنا ما يخيفنى ويجعلنى كالقطة التى تتكئ على صمتها الطويل لتصبح غير موجودة ، أحدق فى أى مفردة تعكس حكايات رديئة ، تفاصيلها مهينة وجارحة ، تتجول عيناى طيلة الوقت بين خالى والقطة ، وكأن بصرى يهذى بهزيمته فى صمتى ، ثم أنظر للاشىء ، أكلس البكاء فى جحوظى ، حتى تقطر الدموع كبقعة سوداء تتمدد وتتلاشى فى تتابع رتيب بينما تتردد فى سمعى كلمات أبى ...

- سأنتظرك لتعودى لهذا البيت امرأة قوية ، تحمل سلاحها وترفع رأسى .

الآن يا سوزى تعيشين فى كوابيسك ، تسقطين فى القهر ، تنظفين بيت خالك من ذكريات الصفع والركل والتخلى ، حرق أفراحك فى شتاء بارد ، عاجزة هينة على الناس ، الكل يسير بعيدا عنك ، حتى أمين بعد خروجه من السجن بسرعة يتجنبك بعد أن قررت زيارته فى بيته لحظة سمعت بالإفراج عنه ، قابلتك أمه من خلف الباب ، الذى كان شبه مفتوح لتردك بالخيبة: أمين مش موجود . . . مع السلامة .

رغم أننى كنت أسمع غناءه من الفتحة المظلمة من الباب :

وبلغ يا سمير غطاس يا ضيف المعتقل ثانوى بصوتك داااللى كله حماس صباح الخير على الثانوى ، صباح يطلع بأعيااادنا من القلعة لباب النصر .

ويخمد كل شىء بعد ذلك لفترة .

★★★

كنت وعدت أبى أن أشترى له ماكينة خياطة يدوية عندما أتلقى راتبى الأول عن التدريس فى الجامعة ، مما دفعنى إلى اجتياز الليسانس بامتياز ، وفى السنة الأخيرة بالليسانس تغير كل شىء إلا غياب عصام ، فلسبب ما تم نقل خالى إلى جنوب الصعيد ، ولم يكن يتعامل مع الأمر على انه عقاب ، بل كان يبدو ممتنا لأن ذلك كان أقل جزاء وقع على إدارة أمنية شملته فيما شملت حماه ، نفذت حركة الإقالات والتنقلات بدقة وبدون السؤال عن الأسباب ، ربما لم تعد هناك حاجة إليها الآن ، ومن ناحية أخرى كان ذلك العقاب مكافأة لى عن حسن سيرى وسلوكى طوال فترة المراقبة الدقيقة لأنفاسى وصفحات كتبى ، عتق من خالى ، مكننى من إزالة الستائر القديمة الداكنة وإحلال النوافذ الزجاجية محلها ، لتنهمر كتل الضوء تنضى عنى حلكة روحى ، زينت العواميد الأسمنتية بصور لأطفال مترعين بالصحة ، يلعقون كريمة بيضاء .

أغادر البيت الذى كان سجنا لكلينا ، أغلق بوابته من خلفى وأتجول حول سور الكلية الذى انتهى عهدى به كطالبة وأصبح خطاب التعيين جواز مرور لما هو أرقى من كارنيه الجامعة ، كان التجول المتاح بعقلى للبحث عن مصدر الكراهية التى أحاطت شهورى الأخيرة فى الكلية ، حيث تجنبنى الزملاء كلهم لتتأكد فكرة وحدتى وغربتى ، فلم يمنحنى واحد القدر الكاف من الوقت لشرح أسباب ابتعادى . ماكينة الخياطة اليدوية إسعا أبى ، بدت أكثر فاعلية من كل الأحلام السرية للحزب السرى ، وأنها موجودة بالفعل فى محل أنس لبيع وإصلاح وشراء ماكينات " السنجر ".

أودعت حميدة أخت اسعد وطفلتها القطار ، انسحب مخلفا الفراغ بعد أن دست حميدة كتلة من النقود الورقية فى صدرى ،

– لما تقبضى رجعيهم .

وتقسم عليّ أن أزور أسعد وأرده عن فكرة الزواج بريبيكا ،

– فارق السن لا يهم . . . ولكنها غير طبيعية.

سرت أفكر وأتساءل، كيف يتزوج أسعد بريبيكا وبينهما كل تلك الجزر الفاصلة؟ مهما ادعيت القدرة على التفهم لكل ما يبدر من الآخرين ، فهناك أمورا تحدث أجدني عاجزة حتى عن تأملها.

توقفت أمام الفاترينا المواجهة لسور محطة القطار ، أتأمل الماكينة وأنا أحلم بأبى يدورها ليحيك السترات والقمصان البيضاء ، سأهدى منها واحدا لعصام الذى ما يزال معتقلا وذلك حين يعود ، لمست العامودين الرخاميين للفندق ومستتى برودة أعرفها ، فى لمسى القديم لأندريا ، حين كنت ألتصق به فتشتعل النداوة مزيحة أستار الأسى عن الروح ، وريبيكا تذيب المشهد بدخولها مسرعة لتقول شيئا تذكرته .

ريبيكا الوحيدة التى لم تغادر ، بقيت تحاول استرداد ما أخذ منها الفندق ، والنقود التى احتال زوجها مسيو عادل مدرس العلوم عليها وبنى بها بيتا ، أشهرت إسلامها وارتدت ما يشبه الحجاب الذى ينزلق عن خصلات شعرها الناعم ، فتحصل على الفندق ، وتتجول فى حجراته مطلقة أيقونات ضد الشر والكراهية والمؤامرات القابعة فى الأركان وتحت الأبسطة الثقيلة، كانت تمحو كل أثر تركه أعضاء الحزب فى فندقها وجسدها

– دى أكيد مجنونة ، وإنتى عارفة أسعد طيب أد إيه ، وفاكر نفسه يقدر يساعد كل الناس ، عايز يصلح الكون حتى وهو فاهم الدنيا غلط .

قالت حميدة وهى تحكى ما فاتنى حصده عن أسعد وحتى من نبؤتى التى انطلقت من ليلة كنت راقدة على أريكتى التى بغرفة أبوى ، استرق إيقاعا معقدا لاتفاق الهجرة المبرم بينهما ، هجرتى وأمى مذيلا ببعض

التوصيات المتبادلة ، كنت أفكر بأن كل شيء سيعود كما كان وأننى سأتزوج أندريا ويتزوج أسعد مدامْ ريبيكا لأنه أكبر من سنه وعاقل كما إنه لا يخفى إعجابه بها كلما تشمم عطرها . تنبأت وأنا أطوف شوارع هذه المدينة شبه الخاوية مع خيرية بأن أمى ستموت وهى تلد وأن أبى سيقتل فى الحرب ، ورغم تعرض أبى للموت بسببى ، فقد شطرت طلقة المدفع ساقه عن فخذه . وأمى أنفقت كل نقودنا على مظاهر الكرم والثراء هنا فى مدينة الهجرة ، واستنفذت كل أشيائنا الثمينة فى رشوة نساء البلدة الثرثارات ، وخالى طوال الوقت يصب فى أذنيها ضرورة الطلاق من أبى ، فهى موظفة ولها دخل إضافة لنسبها لعائلة سليم ، وكانت تستحق زوجا محترما وثريا ، لم تمت أمى ولكنها سقطت فى غيبوبة من الوساوس والمخاوف التى تفجرت مع مشيمة أخى، حين تصر على أن تخفى وجهه الصغير بغلالة سوداء وهى تحمله على صدرها أو تسجيه فى حجرها ، هى أو جدتى ، وفيما يتعلق بما تنبأته لنفسى فقد أحببت أندريا وأحبنى ، كنت نور حياته كما كان يردد ، وأنا أمنحه التماعات عينىّ ، وأرصد كشفه لمنابعى ، نتعاطى خيراتنا دونما إدراك يمسنا بأى خزى أو عار رغم أن أندريا كان يؤكد أننا فى النهاية لبعض إلا انه كان حريصا لأن أبقى على عذريتى ، لأنه رغم تحرر أفكاره وسبقها لما يقول الجميع ، يعشق قيم الشرف الذكورى والعفة الأنثوية وهو يشعر بفخر لكونه الأول الذى يكتشف أنوثتى العطاءة كالبحر والجبل متجاورين ، كان يحفر فى وعيى البدائى قناة من الخير تشقنى حتى تصب فى قلبى نداوة القشدة البيضاء المتماسكة ، وهو يعلن أنه أول من يبلغ قمة الجبل ويغوص فى البحر ويشدو بشاعره الذى قتله السكوت ... كافافيس.

الكثير من الشعراء على وجه الحصر

أما أنا فإننى شاعر مؤرخ

أنا لا أستطيع كتابة رواية أو مسرحية
لكنى اشعر فى داخلى
بمئة وخمسة وعشرين صوتا
يخبروننى أننى قادر على كتابة التاريخ
لكن لم يعد هناك من الوقت الآن

- أعلن أنا أندريا جورجانى أنه مهما بلغ بك القدم فلن أشيخ ، سأكون هنا دائما حين تحتاجين للثرثرة ولأنفاس الذكر تعبق أجواءك ، لن أطالبك بما لا تحتملين ، شاطئى على طول البحر أنت ياسوزى ، فقط كونى سعيدة بى أنا افتقد فكرة أن يكون أحد سعيدا بى ولا أعرف لما تصبغ رؤيتى الجميع بالألم ، نامى آمنة ، وأنا سأحكى طوال الوقت الذى تحرسه أمى بالخارج ، وأحافظ على إبقاء شمعتك مؤقدة ، فأنت خير جليس ، وأجمل حبيبة ، إلى أى حد جمالك مثقل بالعقل والطيبة ، أجمل من أختى ريبيكا التى تثير الفوضى أينما حلت ، سأهبك كهفا يمنحك الأمن ويصبح جنتك نعيد فيه بناء العائلة المنقسمة ، عليها لوحة من كلمات الرب ، بحق الله يا سوزى أين تذهب الكلمات ، وأنا أتحدث عنك ، أنت مشهد لا يوصف ولكن يصور كما هو، من أى زاوية تهيمنين بالتماع عينيك الذى لا يقاوم ، واستدارة كتفيك ، اتساع محيط صدرك ، شموخا أذوب لألمسه ، وأغوص فى حضنه للأبد ، لا يوجد شىء يشبهك .

،فى غرفة ضئيلة خاوية
ليس بها سوى جدران أربعة
مغطاة بكوة زاهية خضراء
توجد ثريا رائعة تسطع بالنور
وتتوهج بالأضواء

كل لسان لهب من مشاعلها
يتأجج بالرغبة العارمة
وينطق بالاشتهاء

الحثالة يتراجعون والمدينة تعمر بالعمل في البناء ، الكل ينتظر أن يعود كل شيء كما كان ، مازال أندريا يشارك تشيخوف وتولستوى وعبد الرحمن الشرقاوى تنمية فكرى دونما ادعاء صراع مع سلطة دموية ، أفكار تبدو بدائية ولكن جوهرها براح من العدل والمساواة ، حصلت فى تجربة حب صغيرة على ما لم يحصل عليه الملايين ، أن أكون أنا سوزى ، المرأة التى تمارس دور البطولة بأبدية ، فأندريا كان يرى أن الكومبارس يظل كومبارس مهما علا نجمه، لأنه سيعتاش على النموذج الأول ، ليمارس عهدا اسمه التمثيل ، وهو يعطينى كتاب التطور الخالق لهنرى برجسون ، قرأته فى تلك الليلة وأنا نصف ممددة بجوار جدتى التى أدعها تستنشق رائحة أندريا فى مذاق أنفاسى المنطلقة بانتظام حتى أنام بالكتاب فى وجد يوقظه صراخى وتهدجى بالكوابيس .

– ضفادع صغيرة تقفز من حلقى وتتخبط فى ساقى ، ثعابين سود تخرج من شقوق كعبى.

ما الذي ننتظره فى السوق محتشدين ؟
إن البرابرة يصلون اليوم
وفى مجلس الشيوخ لماذا هذا الإعراض الجماعى عن العمل ؟
لماذا جلس الشيوخ لا يسنون التشريعات ؟
لأن البرابرة يصلون اليوم
وما الجدوى من أن يسن الشيوخ التشريعات ؟

مادام البرابرة عندما يحضرون سيسنون هم التشريعات
لماذا صحا إمبراطورنا مبكرا هذا الصباح وجلس؟
عند البوابة الكبيرة في المدينة علي عرشه
مرتديا تاجه وزيه الرسمي ؟
لأن البرابرة قادمون اليوم

يوقظ نومى شعور مباغت بالفقد ، وأن أندريا لن يقرفص هناك بمقعده المفضل لصق زاوية الغرفة يدخن بهدوء ويلزمنى الصمت لأشاهد معه سقوط مدينتين أو الأب الروحى .

أراقوا دماءه بسببى ، لأننى مسلمة وهو مسيحى ، لكنهم لم يصبروا ، كان سيعلن إسلامه ويوقع الأوراق لأنه يعرف أن كل دين يدعو للشىء نفسه الذى لن يتحقق على الأرض ، كان سيقترن بى لأنه يرانى فى براءة العذراء، لماذا؟ لا أعرف حتى الآن ولم أعثر بداخلى على دافع لذلك التصور عنى.

أظل مصلوبة على فراش الاعتراف بذنب لم اقترفه لأسابيع ، بغير نوم أو طعام ، حتى أهزل بخزى شعور ضامر بالذنب تجاه الجميع ، حتى أسرة أندريا التى أغلقت بابها فى وجهى بلا رحمة ، كنا سنتزوج كما تنبأت خرافاتى

- لا تشعرى بالذنب يا سوزى فشقاء أندريا سينتهى قبل أن تجف دموعك ، أنا أيضا أحب أندريا ، ولا أحد فى العالم يدرك حزنك مثلى .

قال أسعد وهو يسير بجوارى وأمى بعد مغادرة بيت أندريا مطرودتين تقريبا ، وكنت أجهش بالبكاء طوال تقريع أمى الحارق لى ، والبكاء طقس دائم كالجنون لدى عائلتى .

★★★

عليّ أن أعود إلى السويس لأدرك مصير أسعد قبل فوات الأوان ، وتحقق نبوءه هى من أغرب نبوءاتى ، التهرب لم يعد يفيد ، ومهما كان الأمر عليّ أن أواجه أسعد بما عرفته وبأنه -هو- من كان سببا لما حدث بأندريا ، وأنه لايقل قسوة عن قطار البضاعة الذى يفرم الأبرياء ويعجنهم بالدم الطازج فى الزيت الخام ، وأسأله عمن منحه حق الوصاية عليّ بهذا القدر.

أعددت حقائبى للرحيل ، فقد مضى عامى الأول فى التدريس بما يشبه النجاح فى المحاضرات المعدودة التى كنت أقلد فيها معظم من تتلمذت عليهم، فكان أدائى مدهشا إلى الحد الذى جعلنى مقبولة بين طلبة الفرقة الأولى الأقرب إلى أطفال يبحثون عن معنى للصداقة المتاحة فى الاختلاط الجامعى ، لم يكن أحد يذكرنى بنفسى غير الصامتين منهم ، تحسنت علاقتى إلى حد بزملائى السابقين ، من اللحظة الأولى التى جمعتنا فى حجرة أعضاء هيئة التدريس ، استعدت بالفعل علاقتى بأمين وبليغ وسهام التى لم يصبها التعيين لأسباب أمنية ، تزوجت محاسن من قريب لها يعمل فى كندا ، ويزورها فى إجازات متباعدة ، أم أمين بدأت بقوة تعارض زواجه بسهام ، وعليه أن يؤسس بيته بنفسه إن استطاع ، ولكنهما قاوما وأعدا بيتا متواضعا للعيش ، بليغ يوزع أكواب الشاى على حسابه ،

- المدام حامل

- مبروك . . . مبروك وحتسموه إيه ؟

- لو جه ولد هنسميه شهدى ، لو بنت هتكون لطيفة .

- الله . . . سلم لى عليها كتير . . . لما أرجع فى الأجازة حازورها .

وبليغ مازال مطرقا يبتسم ، ولكنه يراقب كل شيء بهدوء ، مثلما أنا راحلة وسط حرارة النهار حيث تطرد الشمس كل الآثار المبقعة لجسدى ، وكأنه الوقت حان لحريتى ، أغادر بيت خالى هذه المرة وأنا أحب كل أركانه

وأشيائه التى أحار فى أيها أحتاج أثناء أجازتى التى وصمت بالواجب الأسرى ، وأجازة الصيف الأولى هذه لى كمعيدة بكلية الآداب قسم اللغة العربية ، استهلت بمشهد رومانسى بات يتردد بفرح على ساعات النهار والليل . . .

عندما يموت فيك الفرح يا سوزى تكونين جزيرة صخرية ، قد يذهب المركب لها كى يحتمى من عاصفة لكنك التى تحطم مراكبى ، لماذا تذهبين فى البعاد ، تذكرت أنثى كنتها ، فاقتربت وابتعدت لحظة على أية حال ، كنت بالنسبة لى امرأة تتجه إلى مستقبل ما بنفس قوة خشيته . أتجول فى لجنة امتحان المعتقلين السياسيين وغيرهم ، أقلب عينىّ فى أوراق الأسئلة المشرعة لعيونهم ، يقرأونها على عجل ويفتحون دفاتر الإجابات بتأن وهم ينمقون الأسطر بخطوط ثابتة ، وقد مارسو صمودا مؤقتا تحت العنف والتنكيل ، يتذوقون ملح أجسادهم المكومة وهم يحاولون حماية أعضائهم الدقيقة من ضربات العصى الغليظة ومقدمات الأحذية الثقيلة وهم يتفيأون الطاقة العظمى للولاء والبقاء على عهود أفقدتهم حريتهم ، وأصبحت مجرد معوقات يزيلونها بقليل من تعديل للصياغة .

أراقب عصام وهو يحفر الإجابات على الصفحة المزحومة بالحبر الأسود واضح الدلالة على إنه اجتهد كثيرا ليتابع التحدى القديم بالامتياز أميل عليه وأهمس: ح تجيب امتياز.

– ما أنا عارف .

– إنت لسه معتقل ؟

– ما إنت عارفة ، وإنت بقى بتراقبى علىّ يا دكتورة ؟

– هو دا جزاء انتظارى . . . بتدينى عشان سبقتك فى حلمنا ؟

لم أنبس بحرف اعتذار ، لكننى غبت قليلا عن العرض الصامت إلا من حكات الأقلام بالورق ، وأنا أخشى أن أفوّت منه أى خدش ، فأعود بكفارتى الأولى ، كوب شاى ثقيل بثلاث ملاعق سكر تتفاعل مع سخونة صوتى الهامس وأنا أذكره بمصطلح نموذجى فى نقد الأدب العربى القديم ، ينطلق الوهج السابق مع الصوت الهادئ لهجومه . . .

– سنتين ضاعوا فى الحبس لولاهم كنت مكانك أو جنبك على الأقل .

وخزات متعاقبة من الافتقاد لقصة حب مبتسرة الملامح والتفاصيل، ولاتهيمن إلا لشعور بالذنب.

يرسم بالحبر الداكن أسئلة مطبوعة بالشوق ويضع عينى بداخل شمس خريفية بسريالية عاجلة ، توقظ بقلبى وجدا متثائبا على الكلمات القليلة المتبادلة بلهجات العيون ، فى خطوط زرقاء وسوداء . . .

– امرأتى الخيالية حطمت قلبى وتركتينى وحيدا بغير أمل .

– أنا الآن معك وسأسلبك وحدتك لسنوات طويلة مقبلة " فاتنى أن أقول للأبد "

– أنا آسف . . . ظلمتك وأسأت فهمك . . . أعدك . . . لا مزيد من الألم

– سأظل انتظرك . . . فأنا احبك يا رفيق . . . ولا حذر

– الكذب هو ما نفعله فى السجن عوضا عن الحب ، فلا تصدقى غضبى القديم ، كان ذنبى هو عشقى لك .

يمد بكيانى أفرعا من الدهشة تزهر بسعادة مطلقة وأنا أودعه إلى صندوق عربة

السجن وأعده أن كل شىء سيكون بخير وأننى انتظره .

★★★

لم يعد شيء في المدينة كما كان يوحشني افتقاده ، لكنني عبرت الصحراء بشوق جارف لرؤية أبي وأمي وأخي وجدتي ، وكذلك لأسعد الذي أجبرتني قوة طاغية بالعفو عن ذنب اقترفه في حبي ، كما بررت أخته ؛ بأن ذمب المحب صلاة

وجدت أسعد مصدوما بالانفتاح وقفزات الأشياء المتسارعة ، ما الذي هزمه أخيرا ، وهو لم ينهزم من قبل حتى عندما مر بصراخ أخته وأنقذ عريها النسبي من فضيحة مشهرة من قبل مقاول التعمير الذي مر بكشك حراسته الخشبي بالمصادفة الدرامية وهو يظن أخته تغتصب ، فكان عليه بعد عدة لكمات في وجه الرجل الأسمر الضخم ودفسه في الأسمنت الناعم أن يتكتم ، لأن أحدا لن يصدق أنه أنقذها بالفعل ، أمن خروج حميدة بشكل لا يلفت انتباه أحد ، وقضى بعض الوقت ينظم غضبه ويلمع حذاءه ، ويفكر في عنف أقوى وهو يخرج من الكشك المحاط بالرمل وشكائر الأسمنت والأنقاض الخشبية الرطبة ، ليستجوب أخته التي صارحته بأنها تحب عامل البناء الغريب ، وكانت تقابله في الكشك الخشبي ليتفقا على ترتيبات الزواج. كان اسعد يدرك بيقين الموت أنها ستصرخ بلا توقف طوال حياتها معه ، فهما فصيلان مختلفان ولن يثمرا غير كائنات هجينة ليس لها حائط ولاء تركن إليه ، وبالفعل أصبح " الحسيني " مقاولا كبيرا مفضوحا بصراخ الفتيات في سيارته الراكنة عادة بأطراف المدينة مساء ، مكللاً بصراخ الأتباع في تربيطات أكل العيش نهارا ، كما أن حميدة المحبة للحياة والمتفهمة للجميع ، كانت تصرخ في وجه زوجها فقط بسبب الطريقة التي يدفع بها الطعام إلى فمه ، ويكوره وهو سكران حتى يكاد ينفجر من التخمة كأنما يأكل للمرة الأولى والأخيرة في آن واحد.

كنت أعد رسالتى لنيل الماجستير بعنوان " قدرة النص فى إنتاج نفسه " وذلك فى دراسة مقارنة ، اعتمدت فيها على نموذجين شهيرين من الأدب المحلى والعالمى فكانت «صائد الفراشات» ، و«السؤال» لغالب هلسا وكان علىّ أن أصل بالغرض من البحث إلى أن النص مواز للسياق التاريخى ، الموضوع كان يبدو مبهما بالنسبة لأمين الذى نصحنى بأن أهون على نفسى وأختار موضوعا تقليديا حتى لا أتوه فى نظريات مفتعلة ، لكن إمعانى السيسيولوجى أكد لى أن النص يستقل عادة عن خطة الكاتب منحازا إلى الراوى الضمنى الذى يلهث لتطوير اللغة وترتيبها فى مستويات المجتمع الذى يتجه إلى تحديد طبقاته فى قوالب ثابتة فوق بعضها ، والحقيقة أن دوافعى كانت مقيدة بشكل عملى بتأملى لكل من هم حولى ابتداء بأسعد وريبيكا وأبى وأمى وأخى الصغير انتهاء بخالى رجل الأمن الذى يعالج نفسه سرا من إدمان الهيروين بعد أن فتك الخواء السياسى فى الجنوب بخبراته ، هذه المصائر المحبوكة بشىء من المنطق كانت دافعا خفيا لبحثى ، فى علاقة الإبداع بالمرضى النفسى ، لم يفدنى «فرويد» كما فعلت أمى التى كانت ترى مشاهد دارمية بالغة الغرابة ، فى تلصصها الليلى على الجيران ، وتؤكد أن جارنا الجزار يخرج عند الفجر حاملا جوالا به جثة طفل مدبوح ، يبيعه بالكيلو .

★★★

لأسعد عينان كبيرتان مشربتان بحمرة تنتشر من بؤبؤيه كأشعة شمس ملتهبة ، لم تكن من قبل كذلك ، وكان الأذان يناطح دقات الجرس ، تحولت الرموز لمراعي صراع دائم يتبدى في سباق الارتفاع بين المئذنة وبرج الكنيسة المتقابلين وكان المشهد مختلفا من قبل حتى والبيوت تدك على ساكنيها وتجتمع الأسر المتحفظة على الخوف برسم الصليب والتشهد بتمتمات متشابهة ، أسعد يدفن نفسه في الظلمة ، يكره العمران الذي يمسح الدمار بقوالب من حماية مغلولة ، وليس بمقدور أحد الصعود باللغة إلى مستوى التطور .

في قهوة أم كلثوم التي تتحول إلى غرزة قاتمة لا يبدو لها وجود ، لولا بعض الخارجين الذين يلقون التحية على أسعد الجالس بجوار المدخل ، سائحا في خيالات وأوهام خضراء ، القهوة هي ما كانته قبل الحرب ، لم يقربها الترميم فاحتفظت بنفس الشعارات المكتوبة بالدم على واجهتيها في التوعد بالصهاينة ، ينفث أسعد دخان سجائره في سماء ملبدة وضيقة يلمحني بين الدوائر الشبحية التي انزعجت بي وكأنني أكدر صفو ترويقة المساء ، لا ينهض مصافحا ، لا ترحيب ولا شيء ، كان عليّ أن أنظف أذنيّ جيدا لأ تقبل أن من يتحدث هو أسعد ، وأفرك عينيّ لأدرك انه هو من يشيح بوجهه ، فأرى عينيه وقد فقدتا لونهما الأصلي ، أفتقد بهجة روحه المحبة للحياة والمعتقدة بالإنسانية ، وكل ما كان قد ذهب أدراج دخان الحشيش الذي يشتته بوجهه الملتفت لي بتأمل مهين :

– قصرت شعرك ولابسة جينز وشكلك مذهل ، دا انت عايشة ف مية البطيخ .

– إيه يا ابني إنتي حتلبخ والا إيه ؟ مالك ؟

– فيه كتير طبعا . . . إيه اللي جابك ؟

– قلقت عليك . . . إيه حكاية ريبيكا دى ؟

– مالها ريبيكا ، مش هى دى نبوئتك يا عظيمة وانت بتعملى مصير خدامك ؟

– عمرك ما كنت خدامى طول عمرك صاحى ، إنت اللى بوظت الدنيا .

– مكانش قصدى أأذيه .

– أنا نسيت الموضوع دا خلاص .

– أنا مانسيتش ومش هيفرحنى إنك تنسى . . . دا إنت لازم تفتكرى كل اللى عملته عشانك يا استاذة .

وقعت كالعادة فى خط الدفاع وكأن إرادة ما تردنى عن حقى فى الهجوم، لأصبح فى النهاية خاسرة، كنا كغريبين نتبادل كلمات لا طائل منها، تنفرم بسرعة فى ضباب الجهل بالآخر ، وعدم تفهمه ، لأرجع خائبة إلى البيت يوجعنى فيه افتقاد السلام بذنب جديد ، هل سيمنع وجودى بجوار أسعد مصيره هل يصبح غير المتاح من الأمور استعادته ، ليتنى ما ذهبت لكان كل شىء تجمد على ما كان عليه ، زيارتى حركت كراهية مترددة وأضرمتها ، لتجعل المسافة الوهمية بيننا تتمدد وتتمدد كالدخان المتصاعد من الغلاية التى تقلب فى غليانها وردات الكركديه القرمزية ، تذوب رائحتها فى رطوبة الجو ، شعلة الموقد معلقة فوق كرة نار دائرية ، هرمية تميل بذؤاباتها الصفر فى الهواء المتجول بين البابين المتقابلين ، على الدخول والخروج ، كما فى الأسطورة اليابانية " إذا كان ليتك بابين متقابلين فاتركه لأن الحياة ستخرج بالشقاء " أى فأل ، أحاول إغلاق أحد البابين فانتقل بينهما بتوتر يمسح على قلبى برودة وعقلى سكونا ولسانى ثقلا ، أحاول النوم كى ينقضى العمر أو يجدنى صباح مضىء ببهجة خاصة تنبع من الصدفة ، بعيدا عن قيد أسعد وأندريا الغائبين بحماقة ، أسعد ينكر على

حريتى وتحملى بالوعى الثقيل ، فى وطن مباع فى مزادات الخدر والطنين المصاحب للأفكار سابقة التجهيز ، أعانى فى سبيل أن يفهم أن لدى طاقة قديمة تئز بجيوب غضبى ويأسى وارتباكاتى ، ما على إلا أن أصوب نحو هدفى الذى يطاردنى ، فأنطلق أبعد من تصور أسعد الذى يعول على انهياراتى ويظننى موناليزا صامتة ترتدى الجينز تحفف شعرها وتحافظ على قوامها لتبدو أفضل فى عيون الآخرين ما هذا الظلم ؟ ، من بوابة أسعد إلى بوابة أندريا الذى يطل على أحلامى وهو فى حديقة منزل بالجحيم ، يروى زهرة غريبة باللهب تتحول من شكل لآخر ومضاءة بالليل والنهار بشاهد ينغرس تحتها ، " زائرتى سوزى " بخط أندريا الفظيع حين يكتب بالعربية؟ لا ينبغى لأى أحد أن يرحل مخلفاً كل هذه الفوضى .

★★★

تمر شهور الإجازة بسرعة ، وأنا أتقلب بين حياتين أولاهما مسروقة والأخرى لا أنتمى إليها ، أعيش كخرافة تتسع حسب المسافة بين بابين ، بكل الأمكنة فى رقعة واحدة لزمن يتربص كقانص محترف فقد براعته فى لا جدوى الحكايات المبتورة والمتقلصة فى كلمات الحب المهزوم بالحروب المؤقتة والانتصار النسبى ، ثم فى موت محتم بالطابق الثانى ببيت عائلة من المجانين ، أستيقظ على الخريف ، أغلق الباب الذى يبخ الدفقات الباردة ، أراقب الهواء المثقل بالغاز المحترق ورائحة القهوة ، وهو يخرج من الجهة القبلية ، أفرد صدرى وأبسط ذراعى للهواء المغادر عبر خشونة المبانى المعتمة ، فيسقط مضرجا بدكنة رئتى ، الصيف يتراجع وأقمشة الربيع التى وعدنى أبى بقصها وحياكتها لتليق بى كمدرسة جامعية ملقاة على نعومة خشب الصندوق المخروطى الذى يغطى ماكينة الخياطة اليدوية ، تبدو أزهارها الصغيرة ملسوعة بالسخونة التى فحها صيف طويل محموم ، يلفظ

حره الأخير على أعتاب الشتاء ، لم يقدر أبى على استخدام الماكينة لأنه اعتاد أن يحرك قدميه على الدواسة الحديدية ، فلم يعثر على الحركة السريعة لسن الإبرة ، وهو يرج فخذيه على الحشية القطنية التى تكسو مقعده ، وأدرك للمرة الألف أنه فقد ساقا ولديه أخرى ضامرة.

★★★

لم يكن قرار تعيين عصام مفاجئا لى ، لأننى وبسرية شديدة لعبت على أوتار الضعف عند خالى الذى كان فى كامل الرحمة بعد خروجه من المصحة النفسية لدكتور شوقى عبد الحميد الذى توطدت علاقته بالأسرة وأصبحنا نستشيره فى كل شىء ، حتى الأصوات الخفيضة التى تشبه شرز الماس الكهربى بداخل مسارى عقولنا المرصوفة بمواد هشة ، وكانت لكل واحد فى البيت حقيبة بلاستيكية من الأدوية والعقاقير المتنوعة والمدون عليها مواعيد مختلفة على مدار اليوم الواحد .

كانت هواية أبى الرئيسية مشاهدة المباريات والمسرحيات على شاشة التليفزيون ، لشرائه اقتصدت أمى وأنشأت مشروعا أسمه الجمعيات ، وهو الأمر الوحيد الذى كان يربطها بالجارات ، كن يجئن إليها ويسألنها عن أدوارهن فى قبض الجمعية ، يحاولن إطالة الوقت بالخوض فى أسباب حاجتهن الملحة والمبكرة لقيمة الجمعية ، إلا أن أمى لم تكن تحب أحدا من الناس بدءا بى وبأبى ، فكيف بالغرباء الذين ينتهكون حياتنا مرة كل شهر ، كانت تشطر الكلام ، وتنهض ، تفتح الباب للعضوة وتقول - دورك الكذا وربنا يقويكى ويقوينا - ، يتكرر المشهد حتى تنتهى الأدوار العشرين للجمعية التى اضطرتها إلى الخروج من عزلتها لبعض الوقت ، كى تحل مشكلة أكبر وهى طلبات أبى التى لا تنتهى حتى بالليل ، ثرثراته الدائمة عن قصة حبهما وأفلام ليلى مراد التى شاهداها معا ، كانت تقدس ليلى مراد ،

ويتشف مرح يسقط دموع الضحك من عينيه عن المرة الوحيدة التى هجمت فيها أمى عليه بالرغبة ، بعد أن وضع لها قطعة أفيون فى الشاى بغير علمها حسب نصيحة ما تلقاها بعد يأسه من خجلها وعدم استجابتها له ، لم تعد أمى تشرب حتى كوب ماء من يد أحد حتى أنا . . .

كل ذلك كان يزعجها بشـــدة ، إضافة إلى نـــداءاته المفاجئة لها ، والتى تفلت أعصابها وتسقطها على الأرض محتـــرقة ، اشترت التليـفزيون ليلهيه .

عشرون شهرا وشهرا إضافيا . من اقتحام العالم لكهفها الذى يفسد هواؤه بهم ، أبى لم يكن مشجعا جيدا لأى الفريقين ، كان يستيقظ فقط عند الأجوال ، يصفق بيدين رخوتين ويهتف جوول.

تنتهى جولاتى بأعوام الصفر الثانى نحو خيار وحيد يبدو ملائما الآن ، لم يكن تمهيد الطريق لعصام صعبا خاصة انه فى الحافة الأخرى من العالم اجتهد كليرالى صغير وحصل على امتيازاته بفارق درجات قليلة عنى ، رغم تخلفه عن امتحان الفرقة الثالثة ، حتى سمحت إدارة السجن له وبقية المحبوسين بدخول امتحان العام التالى ، فتقدمته بعام وسبقته إلى كادر الجامعة . وهو الآن زميل وبيننا مشروع حب ناجح أو عادى لا يهم ، المهم أن الذى كانت أبدع أعماله الهرب بى ، حين اغلق عقلى وألقى بالمفتاح بين حشد المتظاهرين المتوعدين بقتلة " سليمان خاطر " ، يشتد وطيس المظاهرة، بالغضب الذى يدمر واجهة مديرية الأمن ، ويحرق أشجار بيت المحافظ ومرافق لها أهمية جعلت الرصاصات المسيلة للدموع والخانقة تنطلق بحيوية مطاطة ، جذبنى من سترتى ، وفى اقل من دقيقة كنا فى مدخل إحدى البنايات القديمة ، نتبادل موج القبلة الأولى ، تدفق " الروك " علىّ وحدى ،

لأن عصام لم يعجب قط بموسيقى الروك أندرول ، كما كان يحبها أندريا ، هو كان يردد أغانى الشيخ إمام بوجد ويصوبها لقلبى . . .

شابة

يا أم الشعر ليلى والجبين شق النهار

والعنين بحرين أمانى

والخدود عسل ونار . . .

لعينى عصام نظرة ما ، أعرف منها أنه يحيك مؤامرة ضد أحد ما ، الغرض منها بالطبع ليس المزاح كما يدعى ، بل لتصبح نتيجة المؤامرة التى ستوقع الآخر بحبائلها دليلا على ضعف نفسه ونقصانه ، مما يتيح له أن يحتفظ بدوره كزعيم منزه ، فهو لن يصنع لنفسه مؤامرة بالطبع ، وإن كنت أحيانا أشعر بالشر ينهمر من بقاع موحشة فى نظرته ، وأنا أتراجع عن قرار الارتباط به . . . أحيانا ، لما يصرخ الخوف من الزيف الذى يغمر روحى فجأة ، لم يكن هناك شىء يوقف عصام عما يريده ، حتى جديتى وأنا أوقفه بحدة راغبة فى الاحتفاظ بقناعاتى بتلك الطاقة المنطلقة من الحداد السرى ، على أنا التى كنتها مع أندريا النموذج الأفضل من الجميع-لماذا؟ يبدو أننى نسيت- ، كنت أخرى غير المدونة فى الأوراق الحزبية ، نهائية ومطلقة ، لا حدود لها أو وطن ، لا جذور، ولا تعليمات تنظيمية بالمشاركة فى المظاهرات وتصعيدها لأعلى درجات من العنف التروتسكى ، طفلة أصبحت أشب لأطول قبلات عصام التى انتشرت فى كيانى كحمم عنقودية من الضوء المسلط على أزمات العالم الثالث والرابع والعاشر ، وهى قابلة للحل فى لحظة .

أحيانا يبدو عصام مغرورا وأنانيا ولئيما ، يذكرنى بأسعد وخالى ، يحيلنى بخيالى إلى اندريا الذى لم يكن مجرد فتى أوروبى الملامح

والحركات، كان بمصريته المنقوصة بجذوره اليونانية ، يشارك فى قيادة الحزب ويقود المظاهرات الطلابية التى تطالب بالحرب ، لم يكن يميل لفكرة الشيوعية بقدر ما يحمل بعقله أفكارا متوازنة أتذكرها على مهل فى رحلة العودة مع عصام إلى البلدة ليلا ، بينما الظلام يطل من نوافذ العربة الثالثة المفتوحة ، على برودة المطر فى شتاء ١٩٨٦ ، تطفو برودة المقعد الجلدى بجسدى ، ترعدنى كلمات أندريا .

★★★

- يا حبيبتى ، سوزى سندريللا بحاجة إلى أحذية العدل ، ليغفو قلبها فى الحنان ، لأن أمنك فى العطاء ، الحياة حق لأى شخص مهما اختلف ولاؤه ، ولا شىء فى العالم يهم أكثر من إنسان حر بطبيعته . . . يعانى ويغضب من القهر اللاذع ، الكل متماثل رغم الفروق ، ولا يجوز لقرية قوية أن تعلن عبر المذياع عن الحرية كسلعة ، إذا كنت تحلم بها فتعال إليها هناك ، لو أن الكل يمتلك الحرية لما ضاعت الحضارات فى حروب ، و ما أصبح الإنسان عرضة سهلة لآلامه عند محاولة تذكر اسم صديق قديم هدمت فوقه بناية أو مات بقهر القمع ، إذا حدث خطب ولم يصل أحدنا للجهة الأخرى سأقول لك بأننى احبك ، وأنا أخرج صارخاً فى هذا العالم الذى لا يبق الأحباب قريبا ، لا أحتمل قضاء يوم آخر بدون عدل ، ألسنا جميعا نرث الأرض وما عليها ؟ كل شىء محكم ولن تكون الروح مفقودة ، لأننى أنا وأنت ، لدينا الكثير مما لا نعرفه عن بعضنا البعض ، ونحن ندفع فوق احتمالنا لتأمين ثراء القوة ، حين نخفى وجوهنا فى الوحل ، وهى تعبر بأساطيلها المحملة بأخطاء تاريخية ، كيف نبحر بعد الآن فى البحار الميتة ونفتقد النعومة ؟ أو نغرق فى الوعود التى لا تنطلى على الصغار ، رغم كونها محكمة الصياغة ؟ ، الحياة تمر بسحر الشرق وثرواته التى تتدفق

على السفارات كرشوة مقابل ما نحصل عليه من نيران أسلحة طائلة القيمة، نصو بها على بعضنا البعض عوضاً عن غطلها في هناجر ذوى الثقافات الطارئة وتاريخ التيك اواى الطازج ، هؤلاء لا ينبغي لهم تولى أمورنا ، وإدارة شؤوننا .

– أنا مسالمة . . . كما أن الحياة هنا تروق لى ، فلماذا الرحيل ، الأولى أن أجمل وطنى وأعبد طرقاته بالعدل ، وقد اخترته وأنا أصرخ من رحم أمى أنمو ملاحقة مجده المؤرشف بكتيبات البلطجة لبلد صبى يلهو بذيل التاريخ معوقا مصائر الشعوب ، يعبث بالألعاب النارية التى تثرى وجهه بالحمرة ، تثقل جسده بالترع فوق جفاف الفقراء .

أقول لأندريا الذى كان مجهدا بالأفكار العنيفة مترددا بين حريته وبينى ، وأنا أنطلق من حيرته ، وأتساءل من سيكون الأقوى ، لمن ستترد الطلقة ، وأتطلع من الشرفة للسماء الصافية التى تمطر بنظام ، يشطر الحرير الملون بأقواس قزح وهو يناضل لإقناعى بالرحيل معه . . .

– سوزى أنا أريدك للمساندة وليس للفرجة ، كوننا مختلفين فى التوجه لا يشكل صراعا ، وأنا قضيت كل أعوامى الواعية فى البحث عن العدل الحق الحرية ، ليس لى وحدى ، للجميع ، بوسيلة آمنة وسريعة فالحياة حلوة، وأنت يا سوزى سحر يشبه الجنة ، البعد عنك جحيم ، حلوتى أحتاج إليك ، بدونك أنا وحيد حتى لو كل شىء رائع ، كونى معى وسأعنى بك، أنت أمام هدف سهل ، صوبى تصبح أحلامك حقيقة ، لو رحلت عنى فسيقتلنى الألم ، وأنا لن أندفع مرة أخرى بعيدا عنك .

كان عصام يتقرب منى وأنا أمرر له بشكل وبآخر أن خالى ساعده فى التعيين قبل رفع القضايا وارتياد المحاكم ، ليعرف جميع من اتهمونى بأننى السبب فى اعتقاله ، أن تسوية قرار تعيينه مع مدير أمن التعليم العالى تمت

بتوصية غير مفهومة المغزى من خالى ، ورغم عدم وثوقى بأكثر من الصدفة ، فقد نجح الأمر بإنهاء أوراق تعيينه ، انطلقت الشفرة بيننا ، أمام مكتب العميد والسكرتيرة القاهرية الأنيقة ، تبتسم بذكاء من صدامنا المطرز بالحاجة إلى قطعة سكر إضافية، من القدر الذى أسهم بقوة فى إنجاز لقائنا الأول المدعم بالصمت ، نعبر جلدنا وملامحنا لطرقات ، جسنا بداخلها، توقفنا وسط ملايين المطوفين نتراسل عبر تلك المسافات المدهشة ، استقبل ابتسامته كورقة حب سافرت كثيرا قبل أن تسقط على وجهى بمذاق قديم ، سلمنا وجلسنا نستريح على أقرب مقعدين ومدام " شهيرة " تشملنا بتأييد ، كان عصام يرتدى قميصا من الكتان المقلم وسروالا سادة بنفس اللون ، بدا صغيرا ، منطلقا كما رأيته فى اليوم الأول لدراستى بالكلية ، تشككت فى انصرام السنوات التى انقضت صلاحيتها وأنا أكرر لعق الطوابع ولصقها بالمظاريف البيضاء المرسلة على عنوانه فى سجن القلعة ، السجين عصام إسماعيل وبين قوسين معتقل سياسى .

– ألم تصلك خطاباتى الملآنة بإجابات لم تسألها ومعلومات لم تطلبها ؟ العمل لم يعد ساريا . . . الطبقة العاملة فقدت دورها .

– إنت إللى كنتى بتبعتى الجوابات ؟

– طبعا ماكنش ينفع أكتب أسمى . . . ما أنت عارف التشديدات .

– يا ستى إنت خالك عاطف بيه . . . ماحدش يقدر يقرب لك .

– هى الجوابات لسة معاك ؟

– طبعا . . . دى أغلى حاجة عندى .

– شكلك عاوز تسلمنى بيها يا عصام .

يبتسم عصام غائبا خارج النافذة الممتدة بعرض الحائط بمكتب سكرتيرة العميد ، لا ينفى نبؤتى أو مخاوفى الأمنية ، التى تدربت عليها أثناء تجنيدى

بالخلية التنظيمية ، وأن المعلومات المكتوبة بخط اليد تهدد الجميع بالخطر ، ولكن معلوماتى فقدت أهميتها بفعل الوقت ، ولم يكتب لى عصام أبدا . . . كما كنت أطالبه بإلحاح فى رسائلى الصغيرة ، التى أفكر الآن فى كيفية الحصول عليها وتمزيقها ، أحيانا أرى أشياء لا يراها أحد ، كما أدرك ما يحدث خلف الجدران.

كان جنون أمى يعاودنى ، ينقلنى من هوس إلى هوس، يظهر بغير رحمة كشبح يتجول فى غرف العقل المحرم عليها البوح .

★★★

درجات السلم ضيقة ، نحولها يشى بزلق مفاجئ ، وبلا تردد أصعد محاولة التمسك بخيوط لا تسرى بغير توقف للخلف ، كل المشاهد تعبرنى بغير زعيق ، خمول تام يؤطر هذا الشريط المتدفق من الذكريات ، وأنا أستغيث بين الذكرى وباب الشقة ، غياب ما يحفز كل التفاصيل المضببة بغروب ممتد وجارح .

هذه المرة ليست كالسابقات ، أندريا لم يعد هنا ، أنا الآن لا أزوره ، ولا أزور أخته ، أزور أسعد زوجها الذى يشاركها الجنون كما قالت حميدة بعد أن سألتها عنه .

لماذا أشعر الآن بأننى أفسدت حياتى على نحو ما ، لا أستطيع إدراكه به وأنا أصعد الدرجة الأخيرة إلى الصفر الثالث ، وتتعس أحوالى مصادفة الولوج إلى بيت أندريا لأدرك أية حياة طيبة فقدتها ، حين كان يؤكد وهو يزين شجرة الميلاد بسانتا كلوز وزيه الأحمر المقسوم بشريط أبيض يتوسط الأخضر والألوان اللامعة للأجراس والنجمات الذهبية .

– مين ؟

قالتها ريبيكا بطريقة أصحاب البنسيون فى أفلام فريد الأطرش ، كررت السؤال وأنا لا أعرف هل سيصبح لاسم سوزى عندها دلالة خاصة تجعلها تتذكرنى بغير إنكار ؟ لكونى سببا أعلنته الجرائد اليومية فى صفحة الحوادث لما نال أخاها ، حيث أشيع أن الاعتداء وقع كرد على علاقات الضحية الأجنبى بفتيات مسلمات ، وريبيكا تعرف أننى فتاته الوحيدة ، وكم كانت تبدو ممتنة لى وهى تؤكد كلام أمها بأن وجودى يحول شقاء أندريا إلى فرح ، تمنت أن يغمره وهو يخرج من رحمها مبتسما ، مثيرا بهجة فى وجهها المتقع بآلام المخاض .

– سوزى . . . أنا سو يامدام .

تفتح طاقة الباب تماما كأمها، حين كنا ندق الجرس بتردد ووجل قبل ميعاد درس الفرنساوى بدقائق ، والانضباط كان من أهم تعاليم المدام الخارجة عن المنهج ، أبتسم فتدقق هى النظر وتفتح فمها بالترحاب . . .

– سوزى . . . ها . . . إنها أنت . . . أنتريه .

تفتح الباب على غيبوبة تسحب عقلى بثبات إلى غرفة أندريا المضيئة فقط عند شاشة العرض يظلل وجه أندريا جزءا من الترجمة ، فيحكى قصة الفيلم الذى رآه لعشرات المرات :

– لازم تكون السينما ف مصر كده ياخدوها جد شوية احنا حنعمل فى هوليوود فلوس كتير اوى ، حاعمل بيها أفلام تكسر الدنيا ، عن الناس والأرض والحب ، أول فيلم يكون عن حصار مدينة بتطل عالبحر ، نمزج فيه التاريخ بالواقع.

أفيق على ريبيكا تدهشنى ، هى التى تشعر بأن هذا هو وطنها حقا ، وليس كما كان أخوها يحلم بالعالم وطنا واحدا ، بدت فى نفس أناقتها ولكن بموديلات قديمة وألوان أصباغ لم أرها منذ سنوات ، كانت تدخن سجائرها «البوسطن » بسرعة غريبة ملأت المكان بالدخان ، نفسه كما كانت تنفثه أمها، وهى تحذرها من الزواج بمسيو عادل ، مرددة أنه لا يشبه أباها الذى كان رجلا عظيما يسافر عبر البحار ويعود لأسرته كما هو ، لم تكتف أمها بتحذيرها ، لكنها بادرت العريس بصفعة على خده عندما لم تجرؤ هى والجدة على منع هذه الزيجة غير المتوازنة ، وكان أندريا يشاهد بغير اهتمام . . . وربما مال بعض الشىء إلى رغبة أخته فى الزواج من مسيو عادل الذى كان يخص أندريا بالاهتمام ويعامله كشخص فذ ، لم يرد هذا الموقف

المسيو عن حبه لريبيكا ، كما أخبرها وهو يغادر متحسسا سخونة خده المصفوع ، وتم زواجهما فى حفل صغير انتهى ببقائه فى البيت ، مما أثار استياء الجدة ، فماتت كمدا وهى تحقن تعليقاتها وتشيح عن الذى يلمس بيديه الطعام على مائدة الأسرة ، ويأمر ريبيكا برفع أكواب البيرة عن المائدة، وكانت ريبيكا الأنيقة الحالمة ابنة القبطان البحرى الذى قاد الملاحة فى القناة باقتدار بعد قرار التأميم تطيع زوجها إلى الحد الذى جعلها تواجهه بما يقوله الزملاء بعد وقت طويل من التألم والبكاء بصمت ، بأنه تزوج امرأة أخرى ويزورها فى الأجازات الرسمية وغير الرسمية ، وتصدق نفيه الكاذب وتعتذر له عن شكوكها ، التى كانت تدرك بأعماقها أنها حقيقية .

قفزت بسرعة الضوء فوق الذكريات المعلقة على قطع الأثاث والإطارات والأنتيكات الصغيرة ، كل الأشياء كانت مصفوفة بالقدم والحزن لدرجة أصابت جسدى برجفة الخروج المفاجئ للدفء ، فكانت النسمات اللطيفة تجمد الدماء فى أوصالى وتلون أصابع يدى بزرقة بنفسجية.

أحاول تذكر لماذا أنا هنا ؟ لأخبر أسعد بقرار زواجى ، أم للبحث عن سبب يردنى عن قرارى ؟ هل أستنطق أندريا الذى يعبر طيفه خلف مقعد مدام ريبيكا ، كوريث عرش ، تدعونى عيناه للحاق به ومشاركته شراب الليمون المغلى الذى كان يتناوله طيلة الشتاء ، تجنبا لنزلات البرد التى تنتابه بشكل دائم ، يذهب من عمره العشرات من أيام كاملة بالفراش ، مع عدم اقتراب أحد منه تجنبا لعدوى الالتهاب الرئوى الذى يشتعل بنزلات البرد ، كانت لأندريا شفتان صغيرتان بارعتا التمدد حين يبتسم ساحبا عينيه الضيقتين إلى ألق لا نهائى ، تحت خصلات شعره النحاسية التى تنسدل

على وجهه ليبدو كطفل يطلق براءته الشقية على المكان بقده النموذجى ، ربما كان يشبه زوربا فى أول شبابه ، وكنت أنا أميرته كما كان ينبهنى لمرات عديدة متفرقة بأن الأميرات لا يحملن الجهد فوق أكتافهن ، وأن أفرد كاهلى حتى أبرز اتساع صدرى وأشرع نهدى ليقتحما الفضاء ويقاوما الجاذبية ، أعتدل كما أمرنى وأنا أتهيأه وأجلسه أمامى ، ليتفرج على ما آلت إليه امرأته الأولى ، ليسحبنى برفق ويلقى بكتفى على نصف صدره ، تحوطنى ذراعاه فى جلسة خاصة وطويلة أمام الشاشة البيضاء التى تدهمنى قطاراتها وتقطرنى بالدمع وأنا أشاهد عاشقة ما وهى تنطفئ رمدة رمدة فى ظلال الكهف ، حيث لا شىء متاح غير الموت البطىء ، الذى تنتزعنى منه ريبيكا وهى تقدم لى سيجارة ومنديلا مطرزا ، أمسح حزنى وأرده إليها . . .

- لا لا . . . احتفظى به ، إنه جديد ، لا يصح تبادل المناديل ولكن لماذا تبكين ؟

أبتسم وأقرر الرحيل قبل التورط فى حكاية لا أعرف من أين أبدأها ، أو كيف أنهيها ، وقبل أن أتحامق بإبداء الرغبة فى دخول غرفة أندريا التى كانت مغلقة تماما وكأنما للأبد . . . على كل شىء حوته فى أمسيتنا الأخيرة معا ، والتى لم يدخلها أى منا بعد أن أوصلنى أندريا لبيتى وقال إنه سيتمشى على الكورنيش ويمر بالكنيسة ليشعل شمعتين ثم يصعد إلى مسجد الغريب، ليقرأ الفاتحة ويدس نذرا فى الصندوق المعدنى المحكم بالقفل الأسود الصغير ، ويعرج على أسعد فى القهوة - وأعود - ، لكنه لم يدخل حتى بوابة الكنيسة التى نبعت منها دماؤه وجرت حتى تخثرت على القبضة النحاسية المثبتة بباب بيته الخشبى ، لم تدرك أمه حينها أن الدقة الخفيفة على الباب لبقايا أنفاس تجمعت لتدق دقة ، ظلت تلح على أذنى حتى

أصابتنى بالصمم وأنا أسير على خارطة أندريا للمرة الألف ربما ، فأنا الآن التى أوقد شمعتيه للعذراء وأقرأ الفاتحة للنبى ، وأستعيذ بمارجرجس أو الغريب حامى المدينة ، أعرج على أسعد بالقهوة ، أرتعد بدفقات الهواء الباردة التى تنطلق زاعقة وساحقة بأوصالى ، لكنها أجمل وأرق من استقبال أسعد الذى أبادره :

– نفسى ف كباية شاى .

– اتفضلى جوا القهوة يا أستاذة . . .ماينفعش تقعدى هنا .

– أنا حاتجوز .

– وماله ؟ حقك . . . لكن أنا مش عايز أعرفك تانى . . . فاهمة . . . ياللا مع السلامة.

– تصدق بقى أن أنا غلطانة ، وإنك قليل الذوق .

– ....

– لو شفت وشى تانى ابقى... سلام .

★★★

لماذا يبدو العالم فارغا إلى هذا الحد ومنتهيا ، بينما عصام يردد أننا سنصنع عالما جديدا ؟ هل سيكون معادلا لعالمى المعبأ فى حقائب وكراتين ورقية قوية ، ثيابا جديدة وأوان معظمها ادخرته لى جدتى وحفظته بسرية كاملة بعيدا عن عينىّ خالى وأمى ، وهل الحب ينتهى فعلا بالزواج ؟ وهل أحب عصام أصلا ؟ توفر لى وقت طويل للإعداد للزواج وللتفكير مرارا فى التراجع حتى وأنا أحزم الحقائب الأخيرة ، بينما أمى تتأملنى باستخفاف ، وهى تجلس بجوار حجرة أخى النائم فى مقابل المرآة ، تضع التليفون فى حجرها لتخبر كل من يتصل بسليم أنه مسافرَ ولا تعرف متى يعود ، وعلى

الأخص " هدى " التى أحبته بجنون ، كانت تحظى بنفس الرد مضافا إلى حصة بليغة عن أخلاقيات الفتاة التى لا يجدر بها الاتصال برجل شاب يؤدى الفرض بفرضه ، وأبى يبدو كمن يبكى طويلا بصمت ، وحين أمر به يلتقط يدى ، فأميل بأذنى ، يهمس فيها بشكواه ، وهو يهتز بداخل كرسيه المتحرك المستعار من قعيد ميت ويقول . . .

– حتسيبينى يا سوزى ؟ تعبت يا بنتى وعايز أموت . . .

لم يسعفه أحد بالمبولة قبل أن يضطر إلى استخدام طبق الشوربة بدلا منها حتى فاض البول على يديه وأكمام جلبابه .

– مين يساعدنى ويخفف عنى بعدك يا سوزى ؟

بينما أعد له الحمام ليستحم ، وأســـاعده على ارتداء ملابس نظيفة ، فقد أصاب الضمور ذراعيه ، لأنه لم يستخدم ماكينة الحياكة اليدوية التى سكنت فى الركن تحت أشرطة التسجيل الخاصة بأخى سليم الذابل رغم عشب ذقنه وشاربه ، وغابة شعره المهمل ، وهو مبتل تماما ومفــــرغا طاقاته فى الدبيب المرعب على البيساط القديم بحجرته التى يغلقها عليه لساعات ، يستمع إلى الأغنيات ، ويرقص بعنف على زعيقها الصارخ ، ليخرج متسائلا . . .

– الحمام فاضى ؟

هذا هو وداعى لأسرتى ، نقترب من قمة التعاطف ، ولا ندركها أبدا ، جاذبية ما تسحبنى إلى الأسفل ، أقاوم باحثة عن ابتسامة غير مجهدة ، ونحن نقاتل الهوام كيلا تلتقى أعيننا بحثا عن تيه مميز ، داخل أجواء ملوثة بافتقاد الرحمة ، فرسان خائرون فى مهام عادية ، نحتاج إلى دعم . . .

الفـهم والمسـاندة ، ضـد آلاف من الكائنات الصـغـيرة التى تعـوق سيـرنا بالكسل والتراخي ، مرضى مـفصومون ، نسـوح خلف كل من يعد بترتيب فوضانا ، وتسليتنا برحلة جديدة فى الأضواء اللامعة القوية - حتى تعاودنا الغيبوبة كملجأ أخير ، نركض إليه بعد هجمة ضارية ، يفجعنا انتهاء الحلم بكابوس يسكب النار على أحلامنا وأفراحنا الصغيرة لنهيم فى الأدخنة الباردة ، ونذوب فى الدماء المراقة على حواف الذاكرة .

★★★

فصل ثالث

عادة ما كانت تمائمى من العملات المعدنية فضية اللون ، وغالبا كنت أستبدلها حين أتيقن من انتهاء فاعليتها أو انتفائها من الأصل ، فأحل محلها عملة أخرى بشرط أن أعثر عليها بلا قصدية فى البحث .

وتقريبا كانت كل الأمور تسير بى على هذا النحو، فى تلك الفترة التى أجزم – وأنا أشهد ذلك الهلال المضىء بالفضة اللامعة والذى يطل علىّ من نافذة أمى بين خصاص النخلة التى تجاوزت بطولها طابقنا – أننى لا أستطيع اجترار تلك الفترة التى عشتها مع عصام ، مع أن بعض التفاصيل الحلوة تمر بذاكرتى كشبح مخيف ، ولا أستطيع أن أعرف المرأة التى كنتها فى تلك الفترة ، أعتقد أننى كنت عبدا طائعا من القلب لكل ما يقوله عصام، لا أستثنى من ذلك أنه إذا قال يوما أن الشمس تشرق من الغرب لصدقته على الفور ، وهو لم يقل ذلك أبدا لكنه نجح ببساطة فى أن يجعلنى أشعر بأن الشمس تغرب فى الشرق ، ولم يكن ذلك مرتبطاً فقط بهلوسات الحشيش والبانجو ، بل امتد إلى كل اللحظات التى أعيها من حياتى ، وحتى تلك التى لم أع بها يوما حتى أننى كنت أنام النهار وأستيقظ مع اقتراب الليل ، وما أن أغتسل وأبدأ فى شرب القهوة ، أجد الظلام جثم على الأركان وفى روحى ، إلى أن تتجول الأشباح والعفاريت ببيتى ، فأظل طيلة الليل فاقدة البصر والبصيرة ، ثم معتوهة فى اللحظة التى أفتح فيها عينى بجرأة على ضحكات الأشباح وتقلصات وجوه العفاريت ، وأنا لا أذكر شيئا مما ورثته عن أبى أو أمى أو كل تلك الرحلات التى قمت بها على مدار أعوامى قبل الولوج فى الصفر الثالث منها وأنا عروس فى الثوب الأبيض لصباحية الزفاف، أتجول فى بيتى بخفة وأضحك بفرحة وأردد هذا بيتى.. هذا بيتى، كل الأشياء جديدة ولامعة وستظل كذلك للأبد ، جديدة ولامعة .

هذا الثوب الأسود الذى أرتديه حدادا على أمى ، كان سيبدو لى أبيض لو ارتديته فى تلك الأيام الأولى ، حين كان العالم بأكمله يبدو مبهجاً مثيرا للفرح.

تلك التميمة كانت الوحيدة التى تخلصت منها سريعا، ولم أسقطها فى الشارع أو على المقاعد كما كنت أفعل بباقى تمائمى، ليحصل من يجدها على بعض الحظ الطيب ، تلك رميتها فى بالوعة المرحاض ودفعتها بملء جردل من الماء الساخن كى لا تعود إلىّ ثانية، لكنها استقرت بعمق البالوعة لزمن طويل لا أستطيع أن أذكره إلا كشظيات عابرة تحرق بالغضب صدرى حتى يختل عقلى وأصبح امرأة يعميها الجنون ، لكننى سرعان ما أتمالك خاصة إذا ما انتابنى ذلك وأنا مكشوفة للعيان.

أما الآن فأنا وحدى تماما ، أجتر ما تيسر من تلك الحياة ، لأتدرب على مهاجمتها والتخلص من وقعها .

وكان أن تزوجت سوزى فى سن الثلاثين من زميل يكبرها بشهور وهى تحبه ، رغم نفورها من أصابعه التى يعقفها دوما ، فتشبه مخالب تتحسس الفراغات وتخمشها .

بقسوة ردنى عصام عن أحلامى المعقودة ببالون نوعى ، أى متواطئة كانت جدتى التى مهدت أرض ضعفى على فراش الحواديت ، بمفردة الانتظار الكئيب، انتظار رجل يدرك شفرة الأسطورة ، رجل يقينى بتعويذة مسروقة من حنك السبع، لعنات الشر التى تعوق حياتى.

الماء شراب الحمير ، والبيرة شراب عصام لأنه ليس حمارا ، فى البداية كان الأمر مقبولا حين نتقاسم ثلاث زجاجات ونصبح فى حالة من الانتشاء يبدد الفراغ فى حياتنا الجديدة ، التى تنغلق علينا بعد كل عشية ، حتى تقاربت ليالى الاحتفال بليالى الإحباط بليالى الضجر بالإجازات، أصبحت

صناديق البيرة تخرج فارغة وتعود ملآنة فى ظروف سرية حتى لا يلحظ الجيران أن الدكتورة والدكتور يقيمان سهرات شرب جماعى كل ليلة، يستقبلان فيها كل من هب ودب، أنصاف سكارى يملأون عالمى، لتبدو الحجرة المغلقة كحوض استحمام دخانى يفور بروائح الدخان والتجشؤات التى تبث أنواع الطعام المتخثر بالأمعاء ، كان القرف يجبرنى على اللجوء إلى الحمام الذى أحب الاحتماء به من الضجيج والثرثرات، تطبق على أنفاسى رائحة النتن الذى يخلفونه بحمامى المعتنى به أكثر من أى مكان فى البيت ، ويشرعون فى فتح سراويلهم قبل الدخول إليه مبتسمين كأشخاص ميتين يتجولون بلا حذر على أبسطتى المبقعة بطين أحذيتهم الأسود .

كان الخروج السريع من هذه التفاصيل المنقوصة هو الخيار الوحيد الذى لا يلح على ، ربما تأخر لرغبتى الدائمة فى ملء صفائح القمامة لآخرها ، وكى أمر بالتجربة كاملة ، حتى تطفح بالديدان الصفراء المغثية ، كدر مزعج لعصام هى أنا حين أهمس بغضب ، إذا كان لا يهمك ضياع وقتك فلا تهدر حياتى هنا .

- يا فاشل .

لا أعرف هل صرخت بها أم قذفتها فى وجهه ردا على صفعة لم يتوقعها وجهى الذى ارتد إلى فضاء من ألم ، وأنا متوثبة بحرص ، أستعد للانقضاض ، قبل أن ينفذ الوقت ، ويرتع الشر فى مكامنى ، كان على أن أرحل بغير مشكلات - لكنه الكسل مرة أخرى- ، بعد أن تلقيت إشارتى الأولى من عصام ، ولكننى حفظت نضالاتى بنفس عبوات المؤتمرات والقاعات الفسيحة المزدهرة بفخامة مسلوبة من جلود العراة ، لم يعد ينقصنى غير الخيارات المخزية التى تنهار بها البراءات مبكرا ، أسقط فى عالم من الألعاب المضجرة لعصام الذى يتحدث بلا توقف فى ميكرفون " الأنا " ، تلك المفردة الدائمة ، ليس هناك نحن . . . أنا وهى مثلا ، نفس

الموضوعات وتفصيلاتها ، لا وجود لأحد فى ظل سياقاته ، توصيه عيناى بالصمت ، والتنبه إلى أن لا أحد من المساطيل الذين يشرح لهم الثورة الدائمة معنيا بالأمر ، ولا يمكن تجنيد من يسكبون حياتهم فى طواحين جديدة .

أقراص مخدرة ، سجائر مخدرة ، بكاءات سكره ، "نفسين ورا نفسين" ، الحل لمشكلة التبوال طوال الوقت بسبب البيرة التى هى أيضا مكلفة إضافة إلى الأقساط التى نتهرب منها عند بداية كل شهر .

يا قلبى لا تسبب لى الألم حين أغلق باب الحمام على ، وأفقد الدفء والأمن ، ينفتح باب الجحيم على طقطقة البذور التى يصنع منها " عصام " السيجارة الأخيرة بعد انصراف الجميع ، لم يكن يحب إهدار أى "كيف" ، مهما كانت درجة نقاوته متدنية ، ولأننى الأخرى لم أكن من المهدرين ، فقد كنت أتناول حصتى من الطعام وزيادة كى لا تفوز به أكياس القمامة ، كذلك أحصل قسطى من النوم مضاعفا ، لأهرب من ضوء النهار وأخباره ، احتلت الدهون مواضع بارزة فى جسدى وزادت قياساتى . . . مرات ، لم يعد لدى من الملابس ما يصلح للخروج للعمل ، فتنازلت لعصام عن جدول محاضراتى، أصبحت امرأة بلا عافية ، لا خير أو شر فيها ، أحيا ساعات مرقطة بالكسل والمؤامرات الصغيرة ، أسمع أحيانا ضحكات قديمة واحتفالات راقصة على غناء أندريا: يا امرأة أنت الجمال بذاته .

فأتنفس هواء قديما وأستحم تحت عزف انهمار المطر ، وعيناى مفتوحتان برعب ، ليس هذا عرضا هزليا ، بل هى حياتى التى فقدت اللون والرائحة بمعاشرة موتى يصخبون ويضحكون بقوة رائحة احتراق البشر ومذاق دخانهم فى الحلق ، أعترف بقلبى بأننى فعلت مثلهم . لو حاولت أن تسبق الزمن فإنه سيردك .

★ ★ ★

شيزوفرينيا

منطقية ومتوقعة

حين تبلغ سن الثلاثين ستبكى كما لم ولن تفعل ، ستجرب أمورا عجيبة لم تخطر ببالك من قبل ، لكى تغير مصيرك لن تعود صاغ سليم كما كنت، وستجرع معهم آخر نفس بالسيجارة الأخيرة في الحادية عشرة مساء للمدينة الصغيرة التى لا تحمل أية ملامح ، لن تتجز أبدا أيا من الأمور المعلقة ، ستتعلل بالقفر الذى يصدم العابرين على الطرق الطويلة ، وأنت تفقد شيئا ما ببطء ، وتصبح شخصا آخر .

ينتهى بى إلى عالم وأنا مسلوبة، أديم التحديق فى الأحذية والأقدام، وهم يحاصروننا بإصرار ، بعد أن انتشروا فى بيتى يقمعون كل دروع المقاومة فيما صمتى ينطلق: ابتعدوا عن حياتى ، تتأكد معرفتى وتلازمنى الحيرة، عصام سلمنى لعالم محكم من الغياب ، وأنا لا أقاوم .

فى هذه المدينة الطينية شتاء ، كى تكون مشهورا ما عليك إلا أن تكسر كوبا فى مطبخك وسيعرف الجميع ، وعصام يخص أوانى جدتى الزجاجية والفخارية بالرطم فى الجدران، و كعادتى المرخية لعضلات جسدى ، أتكور لأصبح مطاطية ضد القصف، أنا أعرف مسبقا أننى محصنة ضد الشظايا وجل ما يصيبنى هو لسعات النار التى خمدت للتو والتى رغم تواضعها تترك آثارا وحشية ، وهو بالطبع لا يعبأ ، لأنه سكران إلى حد أتمنى معه الموت.

كان يفجر هلوساتى بسفح خيرية وفقد أبى لساقه ومس أمى بالجنون وعمى جدتى وهذيانى بضياع لا يقل شأنا عن توهان أخى تحت سوط خالى الذى يسوط به جسدى بلا رحمة، خاصة وأن سكراته تلك تفصح عن كراهية لا طاقة لشيطان بها ، وما عليك لتكسبها حظوة التملك إلا أن تلحق البيرة والبلاك بيل الرخيص بأنفاس أخيرة من كل سيجارة تدور على كل الأصحاب الزملاء الرفاق وكذلك حثالة"الطبقة الطارئة" ، حسب تعريف

سوزى محمد جلال التى تبدو الآن كسماعات ميكروفون كبيرة، تلتصق بالحائط الذى ينشع بالمياه لنصفه فى الشتاء ، ويتحول لأملاح هشة صيفا ، تتموج من البرد فى قميصها الشفاف ذى الأكتاف العارية ، تحاول لم قدميها المشققتين بالتفاصيل الشرعية والعرفية ، ولا شىء يحميها..

الغريب أننا نلعب الجيم بآلية ثابتة ، دون أن يدرك أحدنا قدرات الآخر على الانتقال بالجيم لمستوى أصعب من المطروح على ساحات التفاصيل اليومية ، لا توقع لنجاح الآخر فى الصراع ، فهكذا الحرب ، غالب ومغلوب ، وليس هناك ثغرات ، " دفرسوارية " أو مفاوضات ، هو يرغب لو يلقى بى فى صحراء تحوطها شمس تحرقنى ، وأنا أرغب فى أن يتفتق طين بارد تحت قدميه عن عقارب وثعابين ، قبل أن يهرب من رؤية مشهد صرعى على أنفاس المخدر الذى كنا نعرف أنه يضر بخلايا المخ بسرعة عجيبة، وأستطيع أن ادعم هذا القول بتجربتى ، حيث أننى بدأت أشعر بالبله يهيمن على وجهى المتهدل بفعل المخدر ، وما علينا قرب انتهاء السهرة إلا أن نمارس نفس لعبة الكراهية ، وتكون النهاية حفلة ينتعل الآخرون الجحيم، مقاعدها الأولى ليقتربوا بأعينهم من انتشاءة الفرجة ، وعلى عاصفة التصفيق أن تهدأ قبل المشهد الأخير .

قوة تأثير تحية كاريوكا وشقاوة سامية جمال فى الاهتزاز ، لن تحققا إيرادات أعلى من عروض دراما الصراع الهزلى لموسمى الصيف والشتاء للمتسابقين عصام وسوزى مع حفظ الترتيب " للتصنيف النوعى " وهذا مما أخص به السيد/ عصام سكرتير عام الحزب السرى ، الذى يحب أن يدعوه الناس بالدكتور المناضل ، والنتيجة فى النهاية نفى لصالح الكراهية والاختلاف ، وتسلية مدفوعة الأجر للمتفرجين الذين يلقون بخطاياهم فى مطحنة عوراتنا المكشوفة ، فى العرض لدراما تحوطها الصفرة ..

– تعرفى معنى اعتقال سياسى؟ أسرة كاملة تتعرض للاضطهاد والإذلال، خالك شتت روحى التى كانت راضية باللاشىء ، نقلنى للسجن واستأنف حياته، بغير شكر أو اعتذار لدافع ترقيته المتجلط بالزنزانة الفردية، تزورنى ركلة حذائه اللامع ، فى البرودة اللاذعة ذابت كرامتى ، لم أعد اعرفنى ، كل ذلك فعله خالك وعشان إيه ؟ لأجل جنابك ، ليبعدنى عنك لأننى نكرة ، حثالة نقتات على الفقر والكلام ، وأنتم عائلة سليم بك " فلمن الغلبة اليوم " لى أنا لأحصل على نفس درجتك وأنتسب لترقية خالك ، إضافة للمجد الذى طالنى باعتقاله لى.

هذه كانت كراهية عصام، كما سجلتها عدستى المصغرة وفى لحظة تطول وتتضخم كأنها الموت ، لتطرحنى فى نهاية الليل لأرى فى النوم ، أن الماركسية التى اعتمدناها ببيتنا لم تحل قضية اضطهادى، أعزز ارتخاء أعصابى بكوب ينسون دافئ ، أستيقظ بالإعياء ، يدخل عصام ، يقلب خاتم زواجنا الفضى المستبدل بالذهبى وبالفارق اشترى علب سجائر مارلبورو وعدد من كيلوات اللحم، كان يدير الدبلة الفضية المؤكسدة بأملاحه الصيفية وأنا أرتعد بغيبوبة موشكة على كيانى الذى يتلقى البرودة من النيل والحقول ، فيهتز جسدى بصعقات متوالية تفجر حمى . . .

– بردانة يا عصام . . . حاموت م البرد .

– أغطيكى كمان ؟

– آه وحياتك واحضننى حاسة أنى باموت.

– تموتى ، أنت حتعيشى ميت سنة . . .

جدتى ماتت بعد تسعين سنة وزيادة ، من غير أن تفقد أيا من أسنانها ، وبعينيها ذاتهما ، زرقاوين صافيتين ولكنهما عمياوان.

أصبحت على الموت ، وهى تبتسم ، أقلد ابتسامتها قبل النوم ، لأموت مثلها مبتسمة وأنا أرجف بالبرد ، وأثبت مؤشر ذاكرتى على أندريا الذى لم يكسر عامه الثانى والعشرين فى أحلامى ، واستدعاءاتى ، التى أصنع بها مزيجى الخاص من الألم والمتعة وأنا أتمزق باقتناصات عصام السريعة ، أشعر بجسدى تدوسه الزواحف وأتمتم فى صمت ، يا رب ، اجعلها آخر وطئة .

كان أندريا بارعا فى اختيار الأفلام ، ولكن كل النهايات لم تكن تروقه... أو تروقنى .

قبل أن يسحب النوم العميق عرض المخدر من وعيى ، تدخل جدتى من الموت ، وأنا أسحق الصراصير النشطة بخُفى الأصفر ، بينما البنك فلويد يدوى غناؤهم " ذاوول " كالمعاول فى بقع القلب، وبشكل خاطئ رفعت الصوت، فغطت الصرخات المكان ودرت بخوفى بين الحشرات الصارخة ، جاءت جدتى دون توقع بثوب أسود ، ووجهها ذاته المكتنز بالطيبة والابتسام والبياض ، جلست بجوارى على أريكتها ، مدت يدها تحت الوسادة ، منحتنى سرا أحكمت عليه قبضتها طويلا ، وحين فتحت يدى ، وجدت عماء بارقا ، ألقت برأسها على المسند الذى لازم عمرها ، تابعت ابتسامها وهى لا ترى أننى أصبحت عمياء تماما ، رفعت رأسى إلى ظهر السرير، وأبتسم هل يعرف أحد حقيقة ما جرى هناك فى المرة الأخيرة، التى يغلق فيها باب على من يشرف على الموت؟ أنا أعرف ، لأننى الليلة بالذات وأنا أستيقظ من حلمى كابوسى النزعة غير لاهثة أو مبهوتة من كل هذا الذى هالنى فى رؤياى، لكننى ولثقتى فى وجود خطأ ما فى الأشياء المطلقة نزلت من سريرى هادئة بلا كلمة . . . لأجد عصام يعبث فى الخادمة التى حملها على حجره وهى طفلة، لم تكن خادمة بالضبط، كانت قريبة له تدعى عايشة، طردها

أبوها إرضاء لزوجته الجديدة، فلم تجد من تلجأ إليه غير عمها الدكتور المناضل الذى سجن لأجل الفلاحين الفقراء ، وهى قروية صغيرة فى التاسعة من عمرها ، تعمل كل شىء بإخلاص لكل عائلة عصام ، وكنت أحتاج إليها لمساعدتى فى إدارة السهرة وما يتبعها من تنظيف مجهد،

فى تلك الليلة هدها التعب والوقت تأخر ومسألة الوقت تأخر لا تعنى شيئا لأى أحد، فالفتاة لا ثمن لها غير بعض الطعام وشباشب كثيرة لأنها تهلك نعليها فى المشاوير، الأهم فى المشهد الذهنى الآن هو أن عصام كان مقرفصا بجوار الفتاة ، يديه تعبثان بحدودها، يتأمل وجهها ليكتشف رد فعلها ، وهى وإن كانت تبدو نائمة إلا أن تجاعيد الألم كانت واعية تماما، مثل تجاعيد وجه خيرية من خلف خصاص العشة المعتمة ، فى هذه العتمة عصام ربما للمرة الألف يغازل هذه الطفلة ، التى تصمت وتدعى النوم ، لأنها لا تفهم إن كان هذا ضمن برامج الخدمة الطوعية ، أم أنه دليل على أنها جزء من العائلة، وتستحق معاملة خاصة ، هذا ما أفكر فيه وأنا أنسحب بهدوء إلى الحجرة مبتسمة، ثم أصعد إلى السرير ، مقرفصة ، وكأن شيئا لم يكن ، أسحب الغطاء وأدفس طرفه تحت رأسى ، يهولنى العرى وتعمل الهراوات أسنانها فى مشارف جسدى ، كما يروعنى ضوء الصباح الباكر الذى انقض على الغرفة ، متسللا عبر الغطاء الأحمر الناعم فى مطلقه، يجذب الغطاء، ويترك لى مساحة معرضة للتعرى، يتجول الهواء بيسر بينى وبين عصام النائم بجوارى للتو ، بعد أن أنهى اكتشافه لطابع بشرى ما ، وكأن المسألة تستدعى كل هذا القهر الذى فجره بروحى، وزرعه فى وعى طفلة تحلم بشىء أقوى من الخدمة ببيت أسرة تدعى التقدمية.

★★★

كم كانت طقوس الوداع بخسة ، لامرأة كانت بالأمس فى المرآة . . . أين ذهبت ؟ هذا ما لا أعرفه وأنا أحاول دفع جاذبية المرآة عن عينى ، وأخرج امرأة أخرى مازالت تحتفظ باسمى ، وأنا ببساطة أغطى شعرى وأخفى رقبتى . . . وعصام يخنقنى بصوته المستخف..

– انتى لبستى الحجاب . . . مبروك . . . شكلك أحلى

– ما اهه لازم امشى مع التيار . . . ، الأفكار . . . خلاص . إنت قلت كدة

– طبعا ياماما . . . الزمن ده مافيش حد ثابت عليه ، عشان كده لازم نتغير ، مش برضه دى أفكارك الحزبية العظيمة ؟

– أنا ماقلتش نتغير فى الشكل ، أنا قلت نتغير فى الموضوع ، ونمسح الفكرة الزبالة عننا ، بإننا عيال عايزة الدنيا تنام مع بعضها

– انت غضبانة عشان طلبت منك نظهر زى بقيت الناس ونعيش زى ماإحنا عايزين ؟

– أنا عمرى ماعزت حاجة ، غير نبقى نموذج ناجح، خوفى من خالى خلانى ألبس النقاب ، كان مجرد زى ، لكن المشكلة كانت فى إحساسى انى باتخفى زى ما باختفى دلوقت ف كل اللى انت عاوزه .

– فكرتينى بخالك .

– طبعا ماانتوا اصحاب اخيرا .

يحكى عصام وهو يهز ساقيه مبتسما عن خالى الذى عاد بترقية إلى منصبه بأمن الجامعة ، بعد أن أتم شفاء نسبيا من تعاطى المخدرات، وقد استسلم وقبل بالقليل من لفائف البانجو ومكعبات الحشيش التى يهديها له زملاؤه من مكافحة المخدرات ، وهو يقابل عصام كثيرا ثمة سلام مريب بينهما، يصل إلى حد التطبيع.

– زرته بالأمس بمكتبه ، تمشينا على الكوبرى ، وقفنا أمام النيل ودخننا سيجارتى حشيش قويتين ، جعلتا النيل ينسحب للجنوب ، وسيارته تهتز لعينى ، وأنا أحاول إمساك نفسى عن الضحك من مقامات خالك عاطف بيه المدلوقة من فمه كأهزوجة ، ويقلد عصام أداء خالى بجمود ...

– أنا فقط أقوم بعملى ، هذه وظيفتى الأولى ، وأنا أعلم أننى لم أغير شيئا لصالح أى طرف ، العنف بالعنف وكلنا فى نفس النار ، لا يستطيع أحد منح السلام للآخر ، أنا مجرد متفرج لمعارك متبادلة ، الكل يخرج منها خاسر ، اليوم فيلم إخوان ، وبالأمس كان الشيوعيون، وغيرهم فى أوقات الفراغ أسماك مقسمة فى حوض ضحل أميزها بالألوان وألتقط منها حسب الطلب، والباقون يسبحون ويلتهمون بعضهم البعض ، أكثر ما أحب رؤيته فقاقيع الهواء التى تصعد وتفرقع وتخبو حين تصطدم بسطح الماء نفس المذاق ، وأنا أتفرج على اللعبة وأعد هراوتى، أضرب فى العمق ، ليسقط الجميع لافظا قواه ، الآن اللعب هادى وغير مسل ، يصيبنى بالهرم .

– خليكى لابسة الحجاب لحد مانشوف هنروح فين .

يعقب عصام بهدوء فأرد عليه متهكمة: مفيش فرق كبير بينكم.

يصمت غير مصدق لتطاولى على شخصه النموذجى ويشير بعنف إلى وقاحتى ! وقاحتى لأننى لم أعد ذلك التابع الشاعر بالدونية أمام حججه المنقولة عن الصفحات والأفواه.

أهدئ من خيالى العنيف، أتناول حقيبتى وأنا أرشف ما تبقى من كوب القهوة الثقيلة المخففة باللبن ، أقول بسرعة وأنا ألقى بعينى على عايشة التى تسحب الأكواب وطفايات السجائر والأطباق الفارغة :

– أنا اتأخرت ، الوقت بيفوت بسرعة واللى بتخسره دلوقت ، عمرك ما حتعوضه ، مش كدة يا عايشة .

- إيه يا أبله سوزى ؟

تبتسم الفتاة بخجل وعصام يرفع يّديه مسخفا منى بابتسامة من أدرك كل شىء ، وهو عموما أداؤه العام حين يلقى بالكلمة الأخيرة ، للجاذبية سيمفونية ليس لها نهاية .

لغويات وإشارات محملة بالأيدلوجية ، وكأننا الوحيدون الذين نفهم فى هذا العالم ؟ أنا أعرفك جيدا ، وأدرك رسائلك التى تلخبط الكيان ، وحكاياتك التى تدوخنى فى فضائك المترع بالشجن ، ها ، ما رأيك بهذه اللغة ، هل تدغدغ روحك كما فعلت قصيدتى الأخيرة التى أهديتها لك سرا وأنت كل جمهورى ، كنت أعرف بأن خالك هو رئيس حرس الجامعة ، الذى سبنى فى أمى وهو يسألنى إن كانت ترتدى سروالا تحت جلبابها أم توفره للأعياد والمشاوير ، ويأمر العسكرى بتقليد جلسة أمى على الترعة ، لا يمكن لأمه أن تكون أفضل من أمى .

أغلق الباب من ورائى على عصام وعايشة ، وذلك الوعد المخطوط على جوانب الدولاب وفوق شاهد السرير نصف المستدير "سوف نصنع عالما جديداً ، جملة تتشظى خلف الأبخرة والدخائن المتصاعدة من تفاصيل الجهل المداوم لأحدنا بالآخر ونحن نكرر خلسة . . .

- كل شىء سيكون بخير . . . هناك ما لم نفقده بعد من الفضائل المحكمة على الآخر ، وهيهات أن نصدق هذا الهراء ، فهل يمكن لسحب غطاء المائدة ألا يسقط الكئوس المصفوفة فوقه ؟ دون أن يمتد نهر الألم والكراهية فى مساقط الروح والمشاعر التى كممتها القسوة .

عارض خالى زواجى من عصام بيأس ، لأن تصميمى كان موجها إلى وهنه وهو شبه معفى من سلطته ، وكان يرى أن عصام لا يمتلك غير جراب يحوى الكلمات والشعارت فقط.

– ما اهه كان مسئول الجهاز الفنى للتنظيم هو اعترف لى انها سبوبة عشان يوقع البنات الواقعين وانت يا بنتى مش واقعة للدرجة دى .

وعصام كان يستجوبنى فى خالى الليال طوال ، مثلما فعل الأخر فى النهارات القائظة بعد استعادته المفاجئة لمواقعه ، وأنا بينهما مجهلة تماما ، لم أمثل كائنا بالنسبة لأحدهما ، بل محض صورة شاحبة لموظف يسلم رسائل خطيرة متبادلة ، مبعوث معرض للتعذيب ، وهو يتحمل المزيد والمتنوع من ردود الأفعال العنيفة غالباً وبشكل مفاجئ لأن التحقيقات عادة ما تسفر عن معلومات كانت سرية على الرسول بالذات ، كى لا تعوقه المعرفة عن أداء مهماته، بت وأصبحت مربوطة بطرفى الخيط ، احتقار الخال لعصام من جهة ، وكراهية عصام له من جهة أخرى.

" إن خسروا وإلا كسبوا الكل آلهة "

وألف طظ ف سوزى

★★★

الشتاء يذرع السماء بالرعد ويبرق مودعا ، انهمرت أمطاره سخية ، تملأ معاجن الطرقات بالطين اللزج طيب الرائحة ، الخصوبة ، أحاول ضرب رقم تقديرى لخطواتى بهذه المدينة اللصيقة بى كرائحتى طوال سنين عددا ، بينما يلفحنى صخب حار على مدخل سينما نون بتهليل الجميع لأندريا الذى أعد رحلة قمرية لشاطئ العين السخنة ، حيث نغوص أميالا فى الرمل على طول الشاطئ ، تمسح امتزاجنا الناعم تحت الضوء النافر من منافذ القمر ، تشبثى بأندريا حائر ومضطرم كموج المد ، هل كنت أنا يوما الممسوسة بتلك السعادة المطلقة والضحكات الخصيبة ؟

أنا هنا وحيدة تماما ، فيما عدا نفوسى الساخطة ، لا أعرف تحديدا ما يتوجب فعله ، بصوتى الضائع فى الجوقة ، من قبل كنت أخرى . . . توجه

المواهب بعيدا عن التكرار ، نضال يشبه فى تأثيره تبديل نعل حذاء ، سرعان ما يهترئ بقسوة الطرقات العشوائية ، أصرخ فى مدينة ببرودة الموت ، لم يكن أحد يشبهنى أو يقبلنى ، أجول فى الأروقة وحدى ، الزميلات يتجنبن الجهر بمعرفتى ، ينزّهن أسماءهن عنى ، ويصببنها فى قوالب كبيرة، تقليدية لأن " الابتكار بدعة " ، فيصبح لا وجودى مثل وجودى نفسه . . . شبح هائم بلا قيمة . . . مُساء التقدير ، لا شيء حقيقى فى هذا العالم غير كوابيس ، حين أعود إلى زورقى ، أجدف فى تيارات وعيى ، ونومى بالفعل " وردة عارية مجرحة " بالأصوات التى تعبث ليلا بالأشياء ، وهم يلقون بأغطية الرأس المشتعلة بالكراهية فوق أنفاسى التى تبدو وكأنها الأخيرة ، أكاد أختنق كلية وأنا أحل عقدات شعرى المَجعدة من خصلاته المنتصبة ، كغابة عشوائية لا معنى فيها للدساتير وحقوق المواطنة ، بما أننى أصعد مدرجات معتمة ، وأطوف بها وأهبط ، وأنا سافرة تحت الضوء الشاحب للقبة الجامعية.

كيف بالله كنت أرفض عرض ملك متوج، أن أكون ملكة ، على قرية تلتهم الأيام والأسابيع والسنوات ، فى الظلمة الدائمة بنهم وحشى ، وأنا أمارس أسرى الطوعى وأنتقل بين الرؤى بحثا عن حلم ملائم لذهن مسحول ، خلف سرعة الزمن ، أضيع فى رحلات بحث لا جدوى منه ، عن رقم أو صفحة بداخل مئات الحقائب والصناديق المكدسة بالكتب والعطور والأقلام وقطع الملابس الصيفية والأوانى ومعلبات الأطعمة المحفزة للجوع، وحجرات نوم مشرعة كمرحاض عام . . . كما أن استقبال كل الأساتذة فيها لتناول الشاى وقطع الحلوى أمر مزعج ، خاصة وأننى لم أكن هناك ، بل هنا ، أركض خلف الوقت المنطلق بسرجه اللامع ، أحاول أن أمتطيه لأعود إليهم .

كوابيس . . . كوابيس ، أقفز منها متربعة أبحث بلا هدف بين الوسائد والأغطية ، عن مكمن الفزع فى سنوات قضيتها فى التعاطى اليومى لانتظار حياة أفضل ، أبتهل بضراعة حقيقية -يا الله ما هى قوانين رحمتك ؟ ومتى يكون عدلك؟ وكيف الهرب من هذا الفضاء الممسوح بعينى عصام مليكى الذى يردد أنه بذل الكثير لكى يتقبلنى شعبه ، وهو بالمقابل يقرر تفاصيل حياتى ويذيعها على الملأ ، يسلبنى فرص السلام ويكممنى بأقمطة الخدر فلا أتذكر أحلامى . بحسب تقاليد عشيرته المقدسة وبمتطلباتهم الجسيمة ، أنا مقيدة بمحرابه الأسطورى ، ليكتشف كلانا فى النهاية ، أنه أخطأ فى اختياره ، وأن ما يربطنا هو إدمان يمارس بشكل سرى كممارسة الأزواج عموما للجنس .

★★★

أنا واحدة من أولئك الذين يتحمسون بسرعة ، وأفقد اهتمامى بقوة غريبة ومفاجئة ، يتجلى ذلك فى أتفه الأمور ، وأجلها شأنا ، ينصرف هذا على فعل المقاومة ، كما أن بكائى ينتهى دوما بالضحك . . . والعكس ، وإذا صح لأحد أن يعرف هذه المعلومة فلابد أن يكون شخصا محترما وقويا ومتجاوزا بدرجة معقولة لسقطات البشر ، لا أنكر أننى أسبغت هذه الصفات على الأشخاص الخطأ لمرات عديدة وغالبا فى اللقاءات الأولى للعلاقة التى تنتهى على كراهية ، ويا للهول إن كن نساء ، غير أن الدكتور سيد دياب ، لم يتخلف قدما عما وجدته عليه، رغم وقوعه السريع فى أخطاء منهجية ، إلا أنه كان يعاود الصعود بنمطية جهلى إلى التحرر من قالبها المتعصب وأنا بالفعل أنشط كل خلايا مخى الضامرة لئلا أفوت أيا من تغضنات وجهه وهو يرمى بأذنه إلى: يا دكتور ما رأيته كان كثير وليس جديداً ، فقد عشت هنا سنتين كمهاجرة أودع طفولتى فى كل يوم ، وأربع سنوات كمراهقة شابة

تحاول الثورة على مخاوفها تحت قبة الجامعة وفى بيت العائلة بوصاية الخال ، ثم ها أنا الآن اقتربت من الأربعين ولم أحقق شيئا مما توجب علىّ ، حتى ذلك الطفل الذى لأجل إنجابه تزوجت عصام لم أنجبه، وقد اتفقنا حينها على أن ننفصل تماما عن بعضنا الآخر ، لأحتفظ أنا بطفلى ، ويحتفظ هو بصداقتى، لم نصبح أصدقاء ولا حتى أزواج ، ولم أحصل على طفلى . . . لكن بالمناسبة هذه ظاهرة على معظم جيلى .

-لا توجد ظواهر، يوجد هرم بالبشرية ، يتبدى فى شكل ظواهر غير طبيعية ، وأنتم جيل يمرر مؤامرة العقم تلك بطواعية ، كيف يربى أحدكم طفله وهو لا يعرف حتى نفسه .

– أنا من نفس الجيل يا دكتور وفى سن صغير عملت بيت وعندى ولد وبنت ، حضرتك بتتكلم عن حالات شاذة.

تكلم بليغ وبوجهه نصف انحناءة وهو يسدد عينيه فى وأنا أتابع ببطء: كل أصدقائنا لم ينجبوا .

– من هم أصدقاؤك ؟ عينى لى فئة داخل سياق متوازن ، أنتم حالات فردية ، تجمعت فى مناخ كسول ومنهار لا يجوز أن نطلق عليها مقولة كظاهرة ، وبعد إذنك دكتور سيد هذه إرادة ربنا ، " ويجعل من يشاء عقيما" .

– نسيت " صدق الله العظيم " يا مولانا ، وطبعا يا ولدى توجد أشياء كثيرة عصية على التفسير منها وجودك هنا فى الجامعة ، أنت مش كنت شيوعى؟

يتوجه دكتور دياب . بتهكم نادر عليه وهو يتلقى رد " بليغ " الهجومى ...

– أنا يا دكتور كنت الأول على الدفعة بامتياز ، وكلها أيام وأحصل على الدكتوراه.

- على راسى من فوق .
- العفو يا دكتور سيادتك قامة كبيرة
- والله ما ح يقصفها غيركم روح يا بنى اطلب لنا حاجة نشربها على حسابك وصحح قايمة المراجع بتاعتك ، لا يجوز أن تكتب الاسم باكتر من طريقة يا اما شالوميت أو شلوميت وبقية الرسالة نناقشها لما تضبط اللغة، عيب عليك ما تعرفش تتهجى .
- تعرفى يا سوزى انت والولد ده يتخاف عليكم، من الممكن أن تحققوا أشياء عظيمة، عندكم طاقة ما لهاش حد ، ومخيفة ، عصام مختلف.
- أزاى يا دكتور ؟
- عصام رغم كل مشاكله عارف هو عايز إيه، وقادر يحققه، لكن إحساسه بالوقت مفقود .

كنت أود اطلاعه على كل وجعى ، غير أننى توقفت عند ابتسامته الصامتة ومقلتيه المترجرجتين على الجهل المتأبط للسلبية بداخل الأروقة الواسعة الصماء.

بدا الدكتور كمن يلقى بسمعه فى رجع الصدى الذى يفرض هيمنته على القاعات المعمورة بحليقى الرؤوس ومسدلات الثياب والقارصين على الصليب واللاهين عن الحياة ، لتبدو لنا الجامعة كجنة بلون الجحيم المتوقع ، أختم قدرى فيه بامتنان وأنا أدوس مخططات إبعادى المدعومة بتفتيش أفكارى، التى أطلقها على القطيع المشدوه والمروع بما يتلقى من معارف ، ويعود دكتور دياب من معاينته السريعة هادئا . . . موجوعا . . .

- الولاد دول مساكين صعب يتحملوا خطاب مغاير ، صدمة جامدة عليهم .

– الألم هو الطريق السريع للتعلم ، وهم يستحقوا يعرفوا ازاى ينتفعوا بالنار من غير ما تحرقهم .

– دكتور حسن ومجموعته تعبوا منك . . . مش عاوزك تتأذى .

– إدينى باتعلم يا دكتور . . . والبركة ف حضرتك .

– البركة فيكوا يا بنتى . . . إحنا خلاص . . . دورنا انتهى مابقاش غير النهاية .

★★★

لم يكن هناك مانع حقيقى للإنجاب ، ولكن . . . لأن عصام أراد بشدة أن يصبح له ولد بعد ستة سنوات من تواجدنا وجها لوجه أمام بعض ، لجأنا إلى الطبيب الذى كان صديقا له، وقد تطرق عصام إلى المشكلة بآلية جعلت الطبيب يبدى جدية لا تليق به، وهو من قصر عمله على عمليات الإجهاض والترقيع ، التى تـــدور فى أجواء عادية ، وهادئة ، وقرر أن يبحث فى حالتى ..

– هناك هرمونات ذكورية وأنثوية لدى كل شخص ، ولكن بنسب تميز النوع ، ويبدو أن هرمون الذكورة أعلى من نسبته المعتادة، لذلك سنسير على برنامج علاجى وأريدك أن تهتمى لأننى سأتابع حالتك بشكل بحثى .

كنا نضحك بشدة من كلام الطبيب الصديق ، إلا أن عصام كان يصر على أن يعطينى جرعات العلاج المقترح حسب مواعيده ، لم يعفنى أبدا إدعاء النسيان واللا جدوى عن تناولها ، ثم توقفت فجأة لألقى بها بعيدا عن جوفى إلى بالوعة المرحاض، بذات الانتظام الذى كان يمدنى بها، صرت أتمنى بشدة أن أنجب ولدا يشبه أندريا . . .

★★★

.حماقة تلو أخرى تجعل منى حسابا جاريا للتعويضات عن كوارث لم أسهم بها قدر ابتلائى ، ينحدر بى رصيد الحياة الطيبة إلى أدنى معدلاته ، بصفقة تعويض الآخر عن مرارة الحزن الخاص ، أعاود قراءة الحثالات والتفرج خلف الدخان النقى عليهم . . . أولئك الذين ينعمون بالوطن والأعياد، العباقرة فى انتقاء الجلطات والأصواف الحريفة والأقطان المنشاة ، يجرعون بدوام من الكأس المقدسة ، فتزداد حمرة وجناتهم وهجا ، ويحوذون الكروش المثيرة المشدودة على مرارة باردة ، يبرأون من الأمراض بسرعة عجيبة تتيح لهم طرح النساء على أسرة الاستشفاء.

أنسل من نفسى الآمنة ، لأمتزج بالشر والعنف والتيه على حدود الدخان، الذى يحرس حركات رتيبة مهدرة بداخل الجدران المتسخة بالدهانات الرخيصة ، حين يصبح ظل الحائط ضرورة استهلاكية لكل امرأة ، وأنا وهميا أفتح مصارع النوافذ وأصرخ فى فراغ الشارع الضيق المظلم

النجدة أخرجونى من هنا

لكننى فعليا مذعنة بخباء من فوضى ، يسحب دماغى للخدر الموجع ، يهدئ صعود الدماء لعقلى ، الذى يستسلم مثقلا بالخور ، للكوب المغلف بسوليفان علب السجائر ، يناولنى عصام الكوب المشبع بدخان حبة الحشيش المعلقة بدبوس شعرى ، أضم طعم الزجاج البارد بشفتى ، أجذب الدخان بألم يتقطع فى حلقى ، ينتشر الذعر فىّ ، وأنا وحيدة هنا . . . وغريبة بشكل نهائى ، ومثيرة للضحك والأسى معا ، وكأننى موج هادئ يتقلب فى خليج محاصر ، أعزف عن المشاركة فى ثرثرات تستمد حضورها من الفضاء التخييلى المشغول بالهلوسات المرقطة ، أتابع نجاحاتى فى عدم المشاركة ، لأنسى الوقت الذى يمضى ممتصا قدراتى واستعداداتى التاريخية ، لأصبح شخصا لا قيمة له، أتفرج من مخبئى وأداوم على فرك

عينى ، تلتصق أهدابى بأطراف أصابعى وحريق لا يهدأ بحدقتى ، ينطفئ حين تلدغنى كلمات مسددة إلى خلية يقظة فى وعيى المسلوب ، فأهاجم

– أنا شخصيا مع الاعتراف بالكيان وضد تجاهله ، ليس بالقبول ، وإنما المعرفة لتحديد الخطر الكامن فى أحلامه المزعجة ، انتوا ما تعرفوش الامخاخ دى متركبة ازاى ومحشية إيه ؟

– رز بالخلطة .

– ويا سلام لو معاه ملوخية وأى طبيخ أحمر

يرد عصام على يوسف وهو يتشمم رائحة المائدة المتخيلة والتى سيكون على أن أعدها لغذاء اليوم التالى، وأصر على عنادى

– لو بطلتوا تجروا ورا بطونكم حتفهموا الجهل بقدرة وتصميم الآخر بيكلف إيه.

– طبيخ إيه يا مساطيل انتوا ماتركزوا شوية .

تقول سحر وهى تطلق موجة دخانية كثيفة ، تتابع ذرفها فوق رأسها وتضيف تأييدا ممزوجا بالمرح

– كلام سوزى عملى وصح ، لكن انتوا عمالين تقلبوا فى نظريات ، مش عارفين حتى عايزين تعملوا ايه والا حتودونا فين ، ولازم طبعا نغمى عيوننا عشان ما نشوفش الناس الوحشين ، أوعوا تكلموهم ، حاضر ياماما حايبهتوا علينا ، فعلا فيه خطر وشوية شوية حنتحبس فى عششنا زى الفراخ لحد ما رقابنا تطير .

– الحريم كلت القعدة يا جو .

– يا عم سيبهم ما احنا بعنا لهم دماغنا وبنخدم على مزاجهم جت على دى؟

في كوب الشاي المحلى والمغطى بقطعة الزبد السائحة يسقط عصام حبات الفول السوداني ببطء ، الدهن يحكم الاختناق بأوردتي ، أقاوم بتقلصي آلام الرأس وعصام يسقط كلماته في خدري الذي يميزني ويشل أسبابي البسيطة للبقاء .

– أخبار الواد على إيه ؟

– إنت ما تعرفش ؟ اتمسك هو والواد مينا ، لبسوا قضية نصب تمام .

يجيب يوسف وهو يبتسم وتبرق عيناه كدائرتين بيضاوين متسعتين على فراغ ابيض وأسود ، ويتابعان :

– يا راجل ؟

– والله العظيم نصبوا على بلد بحالها ، لموا خمسين ألف جنية عشان يرحلوهم لايطاليا .

– وما سافروش حد ؟

– ولا واحد ، من عشرة دفعوا وخمسة فوق البيعة ، خمستاشر بغل ، من عيلة واحدة ، فلاحين بطينهم ، وماتعرفوش عايزين يعملوا إيه ف ايطاليا .

– انت تعرفهم ؟

– طبعا ، تصدق ؟ عملوا لهم حتة عزومة إنما ايه .

– رحت معاهم ؟

– حصل ، رومي وحمام وبط ولحمة محمرة ف رطل زبدة ، ذا غير البيرة والجيهات ، طول الليل طخطخة وف الاخر وصلونا بيوتنا ولا البهوات .

– كنت عارف انهم بينصبوا ؟

– حتى لو كنت أعرف ، وانا مالي ، أنا بحب أتفرج بس ، ما أقدرش اتورط في سبوبة زي دي ، رغم انهم عرضوا عليّ لما رفضت قالوا لي ان

فيه واحد صاحبنا بيشتغل فى ايطاليا حيبعت عقود بجد عملت مصدق وسكت .

– ما تيجى نعملها ياله .

كنت فى طفولتى أتساءل عما يفعله الذكور بأعضائهم الزائدة التى لا تشبه أعضاءنا نحن الفتيات ، والآن أتساءل ماذا يفعل الذكور بعقولهم التى لا تشبه عقولنا ، وسحر تصرخ

– إنت اتهبلت يا عصام ؟ مالكش دعوة بجوزى اعملها لوحدك .

– يا بنتى قصدى نسافر مش نتسجن ، نطلع كلنا كدة على إيطاليا ومانرجعش البلد الزفت دى تانى .

– طب وشغلنا الجامعة والدكتوراه .

– شغل ايه يادكتورة انتى فاكرة دا شغل ؟ التعليم باظ ، ولو ربنا نفخ فى صورتنا وخدنا الدكتوراه ، حناخد كام ؟ الا بقى لو اشتغلنا ف سبوبة الكتب والمذكرات ، تقدرى تبيعيها بالاكراه يا دكتورة ؟

ودكتورة دوما تهمة تسقط دفاعاتى حين يرددها عصام بطريقته التى تتجلى بشاعتها حين يعرف بى أحد الدكتورة سوزى جلال ابنة أخت العقيد عاطف سليم ، يعض عصام على شفته ويقول: عندى سؤال . . . بس قليل الأدب .

– دا العادى بتاعك .

– باتكلم جد اسمع وبعدين أتكلم .

– راجل يخلع بنطلونه ف أى مكان عشان حاجة واحدة هى أيه ؟

وبعد كل الردود الطائشة يحل عصام فزورته بفحز

– عشان يتبول ها ها . . ها ها

– طبعا ، لازم يكون دا السبب .

– مش مقبول ، جربت متعة انك تعملها على نفسك ؟ راحة استثنائية .
– راحة ايه وقرف ايه ؟ غيروا الموضوع ده ؟
– وعشان إيه ؟
– والله فكرة تعالوا نعترف باللحظات دى ايه رأيك يا دكتورة ؟
– اللى تشوفه يا دكتور ما اهه الميكرفون معاك .

★★★

قد يغادر الشتاء فجأة ، لكنه يعاودنا بقوة بعد أن تنسرب ملابسنا الخفيفة على أجسادنا ، المقشعرة بالبرد المفاجئ ، ويترك الشتاء فى قلوبنا لوعة لفقده ، وأنا أتساءل . . . أين سأكون فى الشتاء القادم ؟

" قلبى رميته وجبت غيره حجر
داب الحجر . . . ورجعت قلبى رقيق "

تناوبنى الرجفة إياها وأنا أهتز وأسعل من قوة الضحك المتقطع وأنا أقول لعصام :

– يا ابن النصابة ، ازاى ضحكت على وسايبنى أرجف من البرد.

أضحك وأبكى حتى يقولون: إنت مسطولة يا سوزى

والله أبدا ما سطلت ، أبكى وأضحك أبدا على خياراتى التى اتسمت بالغرابة ، بلا ادعاء لفضيلة ، أو زعم بدخولى اللعبة مكرهة ، وأنفى أننى انتميت لحياة الجرذان ، أو أنى لم أرح ضميرى قليلا من علة الذنب ، وأنا أشارك فى الحوارات المكرورة فاقدة القيمة التى تنقطع بسؤال مصيرى : هييه احنا كنا بنقول ايه ؟

– إنت اللى كنت بتتكلم .
– أهم ح يقعو ف بعض .
– أحسن ما يفضلوا يلحسوا دماغنا ويتفقوا علينا طول الوقت .

– ماشى يا ست سوزى ما أنت عاقلة وبتدعى الفهم..

لم أستطع التوقف عن تعاطى الطعام من الأطباق المصفوفة على الأرض بلا تنسيق ، كما كانت أمى تحاول تعلمنى ، أو كما كنت أراها على مائدة أندريا ، حيث كل شىء يتسم بالأناقة والإدهاش حتى فى طريقة شرب الشاى ، أعلق فيجيب أندريا

– كل اللى شايفاه وعاجبك ، إحنا أتعلمناه منكم الأسرة ، قيمة الاجتماع على مائدة ، التزين الخلاب ، لو رأيت رسوم الفراعنة على الجدران ، لعرفت أن ما يعجبك هو منك ليس من الخارج .

وكنا عائدين من مشاهدة الألعاب النارية التى تنطلق فى ذكرى بدء الحصار والمقاومة الشعبية ، كنا منتشين بلا خمر ، سحر انتهاء الخريف كان يرقق قلوبنا ويصطدم بقلب أسعد وهو جامد ، يرقب عشقى لأندريا بعينين حجريتين ، وأنا أتجاهل مزهوة بأننى أحصل على إعجاب شابين مختلفين تماما ، تجاوزنى أندريا بخطوتين والمتفجرات الزاهية بالسماء ، خلفه تطلق مجالا كرنفاليا من السحر، يفتح قدميه ويفرد ذراعيه ، بعد أن يطلق ذكره من سرواله ، يرفع وجهه للسماء لينطلق وشيشا طيبا من الأعشاب التى وببساطة، يبول عليها " أندريا ." ذلك الفعل شدنى إلى الشق الفاتن بين ضلاع ظهره ، هل ولعت به لهذا القدر الذى يدفع بأسعد لأن يهاجمه وهو يرخى جسده مبتسما بعد أن عاد لموقعه بجوارى ، بينما أسعد يسدد جمرات غضبه .

– أنت قليل الأدب . . . ازاى تعمل كدة ؟ . . . أدامها ؟

– مش حتخاف عليها أكتر منى .

– أنا راجلها غصب عنك .

– أسعد أنا بحب أندريا .

أنقل الأطباق الممسوحة من كل الطعام ، وسحر تتبعنى مترثرة بعصبية أحاول تجاهلها ، فى أشياء غير مفهومة تفجر شعورى بالغضب والإهانة .

– الرجالة قاعدين هاروئات وسايبين الحريم يخدموا .

– عادى . . . أدينا بنضيع وقت

– أنت روح الخدمة عندك عالية أوى ، أنا ما عرفش اعمل زيك أبدا .

– أهو فى الآخر بيتى .

– لا يا ستى أنا احب أتخدم فى كل حتة .

صفير الصنبور مع سرسوب الماء ، يضيفان عمقا ، وأنا أنغمس فى غسل الأطباق، بقايا طعام وكئوس مترعة بالبصمات ،.وظل الشفاه الناشفة ، وورود الربيع الرخيصة التى أهداها لى عم حسن الفراش وهو يضع القهوة أمامى فى غرفة الأعضاء ويهمس لى باحترام .

– كل سنة وأنت طيبة يا أستاذة ، ما فيش هدية أحسن من الورد ، وأنا طول الوقت عايز أهاديكى بحاجة ، عشان أنتى احسن واحدة هنا خلى بالك من نفسك يا بنتى .

كيف ولماذا أنا كوينسة وأحسن واحدة هنا؟ قررت رفع قيمة البقشيش لكنه رفض أخذ أى نقود، حتى ثمن ماشربته من قهوة وشاى، تناولتهما بصباح اليوم الذى ألزمنى الذهاب إلى الجامعة لمقابلة المشرف، وانتهت المناقشة برأى كبح حماسى المضاعف لموضوع رسالة الدكتوراه المقترح وهو يبتسم مشجعا ومحفزا لطاقاتى.

– ذاكرى كويس وبعدين اختارى الموضوع وبلاش تهويمات علمية

بالوهم أنا أرغب فى التخلص من الأصوات التى تقتحمنى عابثة بثباتى ، تحيلنى نفسى إلى هوات الغضب واللا اهتمام ، أتفقد وسيلة أساعد بها الليل على الانزياح ، لأستقبل الصباح كأميرة البجع التى عادت إلى الحياة ،

سأفعل بها ما يميزني ، سأحسن استخدام الوقت المسبوك فى الظلمة والسكون ، والإغفاء الإجبارى لعصام والآخرين المعجونين فى تفاصيل يومى والقادرين بحسن نية على إقصائى من محيط الوجود ، لأقف على أرصفتهم كظل خدوم ، ضمن طابور ، لا يجوز أن نمنح بلا مقابل ، فهذا يبخسنى وأنا الآن سأطالب بالمقابل ، أدخل باندفاع نحو عصام، الذى يبتسم لرقاقة يقوم بلفها فوق التبغ المخلوط بأعشاب البانجو المطحونة وهو يقول ليوسف.

– أنت قليل الأدب .

نسيت ما أود أن أقول والتفت إلى يوسف الذى يرد بلؤم .

– البضاعة تقيلة ، مش لاقى حتة أشيلها فيها ، خليها عندك وبالنص ، بس فضى لها مكان.

– تمام .. تمام ، إيه رأيك يا سوزى تسافرى تطمنى على والدك يومين ، أنا سمعت من خالك أنه تعبان .

اومئ موافقة . . . ومتورطة ، طريقة مجربة يلجأ إليها عصام حين يحبك خطة إيقاع بامرأة متاحة ، ربما يتقاسمها هو ويوسف الذى يطلق لعبة أخيرة يقضى بها على الوقت المتبقى للهلوسة . . .

– مين يقدر يحافظ على السيجارة واقفة وهى رماد ؟

– المساطيل .

أجيب ، فينظر إلى بوقاحة ، يلهيها عصام

– دا تحدى بقى ، أنا قابل

– لا يا واد ما أنت راجل أوى .

– تحبى تشوفى ؟

– على إيه يا اخويا ، أنا ما أقدرشى ، بس احاول عشان خاطر حضرتك .

تضحك سحر وهى تنظر ليوسف ، الغريب أننا نجحنا جميعا فى الاحتفاظ برماد سجائرنا البريئة مستقيمة ، بعد أن التهمناها فى ثوان ، بعثرت سحر عامود الرماد على ملابسها ونفضتها على الكرسى والبساط وهى تسعل بخشونة واهتزاز ، وتحيط رقبتها بيدها كالمختنقة ، وتتألم . .

– يا بن الوسخة بوظت لى صدرى ، قاصدة عصام وليس يوسف ، الذى يتوجه إلى قائلا

– شوفى بقى ، أنا ممكن أثبتها كدة نص ساعة ، بالطاقة الخاصة ،

فأجيبه بنفس التحدى وأنا أواجه عصام :

– عموما احتفاظنا كلنا برماد السجائر منتصب ، دلالته الوحيدة اننا مساطيل وكمان معقدين

بينما عصام يثبت سيجارته المحترقة على سطح المنضدة بإخلاص ، وينجح قليلا قبل أن يهدمها بزفرة طويلة لأنفاسه المنتزعة من جوفه .

– حصل إيه يا عم عصام ، ما تحوش الست بتاعتك عنا . . . دى حتعقدنا .

– ماتزعلش يا جو ، أصل الدكتورة بتقرأ فرويد لها يومين .

– يخرب عقلك يا سو . . . إنت ح تحللينا يا بت ؟

تتقطع ضحكات سحر بمرونة هذه المرة ، والحقيقة أن ضحكاتها المنفعلة كانت تنتقل إلى بشكل جيد ، فأقع فى الضحك بعنف وبلا توقف ، وأردد بين دموع ضحكاتى التى تعمينى .

– الله يخرب بيت الزمن اللى لمنى عليكوا يا جرذان .

وجرذان لم تكن سبة بقدر ما كانت توصيفا لنا جميعا ، اقترحناه بغير اتفاق ، كنا نتحلق حول الأطباق والأوانى الباردة تماما ، والمحتفظة بجو

ثلاجتى الصغيرة التى تصدر صوتا مريبا ، كنت أحرك الثلاجة البيضاء الأقصر منى، وأظل أدور بعينيّ خلف المواسير الرفيعة وعتمة الموتور المنسوجة بتراب رطب ، أبحث عن مصدر الصوت ، انهالوا بالضحك على وكانوا كثيرين ، كل اللوبى تقريبا ، وأنا أقلب كفى مدافعة . . .

– ما فيش حاجة ، لا فار ولا قطة ، يا جرذان

– يعنى إحنا فيران ؟ دى شقتكوا اللى مسكونة .

منذ تلك الليلة ونحن جرذان ، وأنا أتلقى هذه الإشارة من أحد الأصدقاء لا أذكر من منهم ، ولكن حقيقة أن البيت كان مسكونا قرت فى ذهنى ، تذكرت ما قالته بائعة اللبن عن " أبله عنايات " التى قضت ثلثى عمرها هنا حتى ماتت وحيدة كما عاشت.

– ما كانتش بتحب تكلم حد ، ماتت فى الشتا ، وفين لما الريحة طلعت وأنا جايبة لها اللبن .

هذا ما قالته أم شحاتة الريفية العجوز ، التى كانت تفضل أن تحضر بنفسها اللبن البقرى ومشتقاته لأننى أذكرها بابنتها المتزوجة فى الغربة ، وتهدر صحتها فى خدمة أهل زوجها .

فى ليلة إطلاق اللقب تلك شعرت بأن أبله عنايات مازالت موجودة ، فأيقنت أن هنا شيئا يخصها، لم يعثر عليه أحد ، ربما هو سبب فساد تمائمى التى أستبدلها بهوس وصل أننى كنت أبحث فى كل مكان، حياتى صارت معلقة على عملة معدنية تلمع كضوء القمر، وما أن أعثر عليها حتى أسارع برميها لأنها عادة ما كانت تزيدنى نحسا ، فى هذا البيت أصبحت قضيتى أن أعثر على متعلقاتها المنسية ، حتى هدانى حدسى وهو عادة يصيب ، إلى البحث خلف ماسورة الصرف المتآكلة عند انتهائها بحائط المنور، الذى يسقط بعض الشمس لوقت قصير، يضىء فيه مطبخى ويشبعه

بالدفء طوال اليوم ، فوجدت لفافة بداخل أكياس بلاستيكية ، مغلفة برجل سروال قديم ، إلى الحد الذى نسله وأنا أفضه من كيس أسود أجير نقل إلى شعوزا بخشونة محتواه، عندما لمسته انبعث صوت الطقطقة المعهودة، خفق صدرى، دسست اللفافة مجهولة الهوية خلف أحد رفوف المكتبة، لم اخبر أحدا وأجلت اكتشافها ونفض الزمن العالق بها ، لأجل غير مسمى .

يوسف وسحر يغادران ، ونبقى أنا وعصام ، نتأمل بعضنا مبتسمين ، نفكر ، كيف سنقضى الوقت حتى يغلبنا النوم . وأفضل وسيلة بالنسبة لعصام هى أن يبذر أجنته فى أحشائى، وهو يعلم أننى بسبب هذا الضياع الذهنى لا أريده، لا أرغب حتى فى أن يلمسني، ليس الآن على الأقل، فأنا أراه عظيما فى بشاعته وهو يدق بعنف على أعصابى المتهتكة ، وأشعر بأن هناك شيئا غريبا حدث وأنا أطبق عينىّ وتصرخ دواخلى ، كأننى خيرية أو عائشة ، المهم أنها ليست أنا .

يهده التعب وينام ، أجمع كسرات قلبى المنثورة ، أرتقها فى ظلمة وحدتى المعتادة ، نظرات قهر وابتسامة رخوة تسكن جروحا ميتة ، أنا هنا يا عالم ، أعانى أشياء غير منطقية ، ولا يعنى بها فرويد أو غيره ، من جراحى النفسية والعصبية ، الجنون وشيك كأمطار الشتاء المؤجلة لنهايته ، رعد على النوافذ الموصدة بإحكام يحرقنى أنا من دون العالم ، وما قيمتى مقابل ضياعى ، فى حروب وهيمنات سديمية . الهواء بالخارج يتفجر عند بابى ، محتفلا بانتهاء العالم بأكمله والذى كان أنثى ، وأندمج فى جين أكلة لحوم البشر الذين يخلفون علب السجائر المعجونة ، ومئات من الأعقاب المنفوخة فى المنفضة الكبيرة المعبأة بالماء ، فأنا لا أحب سحق الأشياء حتى السجائر

قصاصيات الورق المقطعة بالتساوى فى سلة المهملات ، أضغاث كلمات وبقايا حرائق ، تنشر عدوى السعال ، أطباق الطعام الفارغة ملقاه كامرأة منتهكة ، لم تمنح مرة حق اختيار من يلتهمها.

★★★

كل النساء يؤكدن أنهن عاديات ، إلا فى وضعين العشق والعراك فحينها تنبرى لهجات التفوق والتميز والنسب العالى لشجرة عائلية ، ممتدة أفرعها إلى مشارف الإله ، وبالطبع أنا منهن ، لكننى فقدت تلك النزعة ، فشعورى بذاتى معدوم عند ابتداء أى لقاء ، ويكون الصمت هو معالجتى الأخيرة للأمور ، أمارس تميزى فى اللاوعى وأنا أسير واثقة وهادئة كالمومياوات ، أحافظ على انبساط وجهى وداخلى يموز بالقسوة والاحتقار.

أجروا يا غنم ، دوسوا كلكم بعض ، متصورين تلاقوا الجنة هناك ؟ ، ابقوا قابلونى هناك ، دا لو فيه هناك . الآن يوجد هنا ، مكان للوقوف بالعربة الأخيرة المحترقة فى محطات الملوك ، أو متاح للبعض أن يمتطى سلالم تصلبه كروبوتات ، ولن تلمحوا امرأة مهووسة بالبحث عمن يشبه رجلا صغيرا اسمه أندريا، تسجل خواطرها على زجاج المحال المغلقة ، ثم تتوقف للبحث عن جرائد الأمس التى ستفوتها وهى تتسكع قبل أن تفتح نوافذ الصرف ، فقد علمنى أبى أن أتواجد قبل الموعد ، لكى أحصل على المشهد بأكمله ورغم أننى عادة ما أتأخر، فقد حرصت على مشاعر أبى القلقة ، بشكل جعلنى أقفز من الفراش مبكرة ، ولم أكن قد نمت من الليل شيئا ، أغسل وجهى وأسنانى على استعجال وأرتدى من الملابس ، ما يسهل مهماتى غير العادية ، وما يليق حتما بمن ستتوجه إليه مهمتى ، وأنزل السلالم مسرعة ، مكتفية بنصف علكة أشق بمضغها ريقى على مذاق مؤقت التحلية ، سرعان ما يزول ويتحول لمذاق الدمع ، ومهمتى الآن قبض معاش

أبى ، معاش الإعاقة ، وعلى السلالم الرخامية للبنك الموصد بالأبواب الغليظة والنوافذ الحديدية ، يترامى المستحقون على البرودة ، يملأون أكفهم بدفء وجوههم الصغيرة المنحوتة بإهمال من نصل الفقر والعاهة والقهر والنسيان، والبلد الحكيم الذى يعذب خدامه ويجمد أرصدتهم بالكامل ، يقف مزهوا ، وكأن الوضع الغريب أمر عادى أن ثمن التضحية يؤمن بالكاد أسبوعا من الخمر الرخيص لأبى ، تليها أياما من التذلل الروتينى لأخى والذى يكون بلا جدوى ، لأن أخى يعنفه ويسبه وأمى راضية لأن مفيش راجل محترم يبعت ابنه يجيب له خمرة ، فكيف الحال بالابنة التى تدس الخمر لأبيها تحت مقعده الثابت المكسوة أرجله بالمشمع الثقيل ، وأنا أتستر من أمى على قيمة معاش أبى وهى تواجهنى متشككة بابتسامة تعنى القبول بالكذبة

– عمرك ما ح تتغيرى يا سوزى . . .

– إزاى يعنى ؟

– مشكلتك هى أبوك

كانت تردد تلك الجملة كثيرا ، وكان شىء من التعالى يجعلنى لا أسألها عن مغزى ما تقوله ، أكتفى بالجلوس ساهمة ، فقد توفرت لى أوقات كثيرة لزيارة أهلى ، ويتزامن ذلك مع قرار نفسى بحزم حقائبى والرحيل للابد ، حين يعاودنى يقينى بعقم حياتى وعصام ، الذى اعتاد أن ينبهنى لضرورة الاعتناء بأبى ، كلما كانت فى الأفق فتاة ما ، تتساوى مع الأخريات فيما يخلفنه فى البيت ، من لفائف الوجبات الجاهزة وزجاجة نبيذ ربع ممتلئة ومفتوحة للهواء ، كذلك أعواد النجو المتعارضة على قطع من أوراق كتب مدرسية قديمة ، وكميات مهولة من أنصاف الليمون جافة وبنية لم أدرك يوما دلالة لها ، والحقيقة أن ثبات التفاصيل ، يجعلنى أجهل بطبيعة أو سن امرأة عصام فى إجازتى الزوجية ، وأبى بالفعل يحتاج إلىّ ولأنه ليس لى مكان

ألجأ إليه ، فإن وجهتى تكون لهذا البيت الذى لم تلمس الحرب شيئا من بنائه ، أسافر لأمنح عصام الفرص كاملة لممارسة عقده النفسية وهو مبررى السريع لنفسى ، حين يلمح أحد الأصدقاء بما يحدث فى غيابى قاصدا الهزر ، خاصة الصديقات منهن واللاتى يكسبن وشايتهن تعابير الجدية ، فبرغم كل التراث النسوى إلا أن بعضهن ضمرن لى بعض الحب، ربما لأننى امرأة لا تفضى لأحد بما تسمع ، كما أن روح الخدمة عندى عالية، بالنسبة لى كانت المسألة تتلخص فى أننى أهوى الاستماع والنسيان فكن يدلقن الحكايات بلا حذف أو تزيين، وسهام أكثرهن حبا لسرد حكاياها . . .

– بعد أن اقتادونى بفضيحة وهم يسبوننى طوال الطريق إلى مديرية الأمن ، لم يكن هناك من يقف بجوارى ، حتى أمين تجاهل كل شىء تماما ، رغم أنه خرج من الحبس بسرعة ، لم يسأل حتى عنى أو يبعث برسالة – ربما بإيعاز من أمه – ولكن ما بيننا لم يكن قليلا، وكانت بالفعل أيامى سوداء، وأحتاج إلى أقل دعم فى مواجهة الإهانات المباشرة لعلمى وشرفى الكل يعرف كم كنت متفوقة دراسيا ، ونشطة حزبيا ، وخطابية ثائرة ، وأن علاقتى بأمين أمر غير سرى ، أليس الزواج إشهارا ، لم نكن نخفى ما بيننا عن أحد ، حتى عائلتى وأخوالى الجزارين ، كانوا يتغاضون ، لأنهم يدركون اختلافى وتميزى عن كل بنات العائلة ، ربما بالنسبة لأمين اختلف الأمر ، فهو بطبعه لم يكن حذرا ، لأنه يعتمد على أمه لتصلح له ما أفسده هوجه ، كان يعتبرنى أكثر منه ثراء وإيمانا وطاقة واواواوا ، ونحن ننام متجاورين على سريره ، بينما الشرفة مفتوحة ، هو كان ينساها ولكننى كنت أتطلع لفكرة التحرر من زيف التابو الذى يضعه الجميع كعائق للتحضر ، وقتها فقط عند التحقيق معى كنت أشعر بأننى أؤذن فى مالطة عارية ومحقق

الطوارئ كان مدربا بحذق في التعامل مع الذوات أمثالي ، راجع على كل طرائقه ، طعنني في شرف أبي الميت ، وفي شرفي مباشرة ، وهو يسدد عصاه في جسدي ، ويستعرض كل ما لا ينبغي أن يعرفه أحد عني ، وكأنه هو نفس الرأس الذي يطل من نافذة أمين . . . في تهيؤاتي . فأصبحت قابلة لكل أنواع الإهانات ، بالدخول في أخطائي الاجتماعية ، وليس أخطائي وحدي بل كل من أعرفهم ، وأولهم أمين ، الذي يعرفون عنه حبه لسرقة الأشياء الصغيرة وأولها الكتب متعذرا بغلو أسعارها . . . إذا ما كشفه أحد ؛ أمين الذي عذبني عاما كاملا قبل أن ينبس " بحبك " استنزفت وقتها كميات مهولة من السندويتشات والهدايا واحتمال أمه التي لم تكن تقبلني إلا لخاطر عيونه ، خرجت وسلمني خالك أمر إخراج شفوى وقال :

— المرة الجاية استعملي عود ملوخية مش لازم تروحي تجهضي ف القاهرة.

خيبة كبيرة جعلتني أقرر أمرين مهما كان ثمنهما ، الزواج بأمين والحصول على منصب كبير في العلاقات الدولية مثلا .

. . عصام وأمين هل يتشابهان ؟ أم هما رجلان بوجه واحد ؟ كنت أرجف وأنا أسمعها تحكي بصدق ، عن أشياء أعانيها تماما ، في رجل آخر غير الذي تزوج بسهام بعد تسهيلات عظيمة من أهلها ، هم أرادوا لها الستر فغطوا مقدم الشقة وفرش البيت وتأثيثه من ميراثها في أبيها ، وكان على أمين أن يتحمل باقي الأشياء ، كي يشعر بقيمة درتهم المصونة والجوهرة المكنونة التي تزوجته وهي تضع عينيها على الهدف التالي ، ليصبح أكثر صعوبة ، ليس لتقصير منها ولكن لأن أمين أغرقها في سيل من الخيانات التي دفعتها للرد بالمثل . . . كما اتفقا فعليا من قبل وعلى طريقة شادية وصلاح ذو الفقار في أحد الأفلام .

لم يكن أمين حاذقا فى تغطية أموره فكان يترك خلفه أدلة قاطعة تجاهلتها كثيرا ، حتى انطلقت فتياته المعذبات يرددن الامهن لسهام ، وأمين كان سببا مباشرا لها ، يمتصها كطلقات مطاطية بالأكاذيب والمداراة ، واتهامها بالجنون والهلوسة ، وأن عليها معاودة طبيب نفسى ، فتصدق هى وتتعاطى المهدئات إلى الحد الذى حين تراه يقبل إحدى زميلاته التى تستعين به على إنجاز رسالتها للماجستير ، تتراجع بهدوء موصدة بابها عليها ، وتسقط فى نوم طويل ، وتستيقظ بعد أن تسقط ما رأته فى معية الأحلام ، حتى وهى تنظف البقع المنطفئة على كسوة كنبة الانتريه ، الموضوعة بغرفة المكتب للاسترخاء ، ولكنها تصبح فراشه الدائم إلا فى حالات المرض ، ينتقل لغرفة النوم كى تتمكن من الاعتناء به طوال اليوم ، بينما أمه ممددة بجواره ، تقرأ له القرآن، أو تتسلى بقراءة نشرات الأدوية الكثيرة ، وهى تتحرك كأنها فى حلم ، وكل ما يحدث حولها عصى على عقلها المجهد الذى يحيل كل شىء إلى الخيالات .

- وحتى لو كنت واعية ، ماذا كان بمقدورى أن أفعل وأين أذهب ، وأنا بالفعل أحبه . . . فقط لأجل الحب الذى أقوم برعايته وحدى ، فأنا وحيدة تماما بدونه ليس لى أب أو أم أو حتى طفل أفرغ مشاعر أمومتى فيه ، أصبح أمين هو ابنى وأصلح ما يفسده بكل ارتياح ، حتى وأنا أستمع إلى اعترافات يسكبها البنج الرخيص حين أؤدى دور الممرضة لبعضهن فى نطاق عمليات الإجهاض والتتويج ، يقوم سريرى بدور النقاهة بعد كل عملية، يكون أمين قد أدى كل ما يلزم من المساومات لتخفيض أتعابها ، كى يتبقى بعض المال لشراء المتطلبات والعلاجات من الصيدلية الكبيرة بأسفل عمارة الطبيب ، وأخيرا شراء الدجاج الذى أسويه وأنسله فى حساء المكرونة وأطعمه بنفسى لنسائه قبل مواعيد الثيرجران والفيلوسيف القوى ، بنفسى

أرفع الحفاضات المغموسة بكتل الدم عن أرضية الحمام ، أدسها فى الأكياس السوداء لأخفيها عن عينى الزبال المداوم ، ثم أعود لأغسل الملاءات لآلاف المرات ..

ممكن تقولى إيه غير أنى أصبحت مجنونة ، والله العظيم مجنونة ، كل ذلك كان ينتهى كحلم يعاودنى لمرات وهو يؤكد بعدها أن ذلك لم يحدث ، وكنت أرد وأنا أشعر بأننى أيضا أحلم.. الأحلام مجانية ، فليكن ما يكون ومرحى للجنون.

★★★

أبى بحاجة فعلية لرعايتى ، ربما من الأفضل لو بقيت معه لأسبوع آخر، فقد أصبح أخى لا يحتمل ، وأمى كذلك والعالم يبدو فارغا من الأهل والأصدقاء ، وربما أزور ريبيكا وأقابل أسعد زوجها الذى يشاركها الجنون كما قالت حميدة، التى خصتنى بمعرفة حجم كراهيتها لزوجها وتمنيها الدائم لموته ، أخى خرج عن الطوق تماما بعد أن صفعته هدى على وجهه ، قال لها أنه لا يستطيع التزوج بها ، وأنه سيختار قريبة له أو فتاة بنت ناس- بيضاء ، تطبخ كويس ، ولا تعرف إلا ما يلقنه لها ، وأن هذا الاختيار لا علاقة لها به ولكنه مبدأ ، فهو لا يحتمل مغامرة الاقتران بفتاة سلمت نفسها بسهولة وبلا ثمن بلا زواج . وهو للآن لم يتزوج ، طوق نفسه بغرفته .

" صاحبت ناس م الخمرة ترجع وحوش

وصاحبت ناس م الخمرة ترجع بشر "

- ما فيش حاجة تقوى عليك يا بطل . . .

قال أبى وهو يخفض صوته عن أمى . . . وأخى . وأردف . . .

- آخر مرة يا سوزتى ، حابطل بعدها . . . وأنا بابا حبيبو ، مش

مصدقني ؟ طب هات المصحف احلف لك ، هو فين ؟ ياللا حبيبي . . . بابا قرفان .

– يا بابا الحاجات دي بقت صعبة ، مش زي زمان ، لازم أروح آخر الدنيا ، وشوف بقي الناس بتبص لي ازاي ؟

– أشمعني بتشتري لجوزك بانجو ؟ أسعد قاللي .

– بابا . . . دي حاجة قديمة وخلصت ، ما يقدرش يطلب مني كدة تاني.

– خلاص . . . خلاص مالناش دعوة ، ياللا بقي حبيبي ، انت عارفة السكة.

يمكن أول شمال تاني يمين ؟ لم يعد هنا شيء كما كان ، المدينة غريبة ومتمنعة عليّ ، الشوارع مخلوطة بذكريات قديمة و أحيانا خربة ، حتى الكورنيش عند اللسان غير مسموح لي الوقوف عنده أكثر من ذلك ، حسب تعليمات رجل الأمن الذي يباغتني :

– الوقوف هنا ممنوع .

بينما الناقلات العملاقة تغطي القنال الضيق هادئة ، حتى تسقط إلى الخليج محملة بالجنود والأسلحة الثقيلة ، هل هناك خير . . في الآخر ؟ أنقل يدي إلى بطني المختنق في السروال الجينز ، وأحاول بث بعض الهدوء في جنيني الذي بدأ في التشكل منذ أيام ، يقاوم محاولات الإجهاض الشعبية ، لأنني رفضت أن يكون لي ابن مدسوس عنوة في رحمي المغلق على مرارة تعفنت بالوقت والرفض ، عم إسحاق لم يعد يبيع الخمر غيّر نشاطه إلى بيع الأدوات المنزلية ، وأبي لا يتوقف عن متابعتي بنظراته المتسولة فأمر بأسعد الذي أعرف أنه سيلبي كل مطالبي ، رغم استهتاره الموجع لي وهو يلقاني متجهما: أكيد عاوزة حاجة

– أسعد . . . أنا جاية لك

– انت فاكرانى إيه أمك؟ مولد العدرا؟ مقام الشيخ بتاع مزبلتك المحمية؟ تلفى اللفة وتيجى تحكى حكاية شكل اللى قبلها واللى بعدها، مرة خالك، ومرة جوزك .

– أسعد بلاش انت أرجوك .

– وعشان ايه ؟ بلاش أنت أرجوك ، عشان لونى المحروق بالدخان والا عشان فى نظر زعامتك انهزامى ؟ والا عظمتك خايفة تحبينى ؟ عشان كسلان مابيديش حيلة غير سيجارة الحشيش اللى باهديها لمزاجك فى كل زيارة ، فوقى يا أستاذة فكى أفيونتك بكباية شاى وسجارة ، لكن ماتلعبيش معايا ، الجيم ماسخ ومالوش مستوى تانى .

– أنا تعبانة يا أسعد ، فى حرب حقيقية مع كل العالم .

– يا شيخة حرام عليكى ح توقعينى م الضحك، حرب إيه وصراع إيه؟ طلقة ال "لى أنفيلد" بتاع أبوك اللى لسة ما طلعتش بطل مفعولها، ما بقتش تنفع آخرها توش، وأنت راضية بالخيبة، مفاتيحك فى أيد الكل، كلابشات .

– لو كان أندريا هنا .

– ما تحاوليش ، لا أندريا ولا غيره ، كنت برضوا حتفضلى زى ما إنت .

لم يكن الجنون كافيا للرد عليه ، ولم أقدر على رمى تسليمى واقتناعى بين يديه الملوحتين لوجهى بسياط تجلدنى بحقائق مروعة ، أظنها بعيدة عنى كل البعد ، فليس من الضرورى أن تصبح الحياة صائبة فى كل لحظة ، أنسحب بخزيى. هكذا ينتهى كل شىء ، وعلى انتقاء طريق صائب ، أغذى قدراتى لبلوغ الفرصة الأخيرة فى التحرر من الاستلاب اليومى، وإعادة توزيع الأدوار وبقسوة ، اندريا لم يعد موضوعا ، وزواجى بعصام فاشل بكل المعايير ، وأسعد يظل رهانا أخسره على الدوام ، لم يعد لبكائى قيمة وأنا أجهش به على بسطته الأسمنتية المكسوة بالبلاط البارد ، يتركنى مغلقة

بالوحدة ، خيالى يقاوم الامتثال لجرعاته المغرقة فى سوء الفهم ، الشعور بالفقد هو أكثر هيمنة من لعنة التقييم التى أوقفت خط إنتاج الثقة العمياء ، فيمن عقدت معه مذكرة صداقة كى أحتفظ به للأبد ، حتى لو تابعت طوال الوقت هذا الوضع المعتم ، انتظار مبهم للأشياء ، ثم الركض بنسيانها . ضد القهر الإعلامى ببث معادلات كيميا العلاقات المثبطة للأمن ، لزمن لا أستطيع تحديده ، شهر، عام، أم أربعة عقود كاملة ، أؤدى فيها دور سفيرة بالصدفة ، تهدى مبعوثى الدول المعادية هدايا سخية بابتسامة ترفع وجنتيها إلى السماء ، وأنا فى النهاية منفية ، مهددة طوال الوقت من عاشق أو صديق ، لا أمان فيهما ، أتوقع الخطر فى كل غياب للحذر ، أترك فيها قيادى لرعاية هيستيرية ، حيث لا نوافذ للفرجة أو أبواب للفرار ، لا هواتف ولا بريد ، وأنا ألزم فضيلة الصمت والبدانة ، حتى أصبح أسفنجة تطفو فوق خليج عارم بالجنون ، ثم أغرق للأبد مختنقة بالثقل ، ممسوسة بالجاذبية ، لا مذاق لكل ذلك ، غير طعم انسحاب سرب مهزوم ، يسقط دماه على كل شبر يتيحه للآخرين ، الذين يستمدون من ضعفى القوة للهيمنة على حياتى وجداولى . لم يعد أسعد نفس الشخص المستبعد من الوجود ، ليس هو من عرفته فى زياراتى القصيرة المتباعدة ، ليس هو من كان يجلس على الكنبة الخشبية المكسوة بأبسطة الكليم المرقعة ، بقصاقيص من قماشات متباينة كالحة ، تذكرنى ببطاطين كان الصليب الأحمر يوفرها أثناء الحصار وملابس زاهية واسعة عادة وبعض المعلبات ، نسيت كيف سرت فى ظل قامة أسعد التى بلغت خمسة آلاف عاما سابقة ، أصبح كقعيد على كنبته التى بدل رقعاتها بأحجار باردة ، صدمنى أسعد تماما حتى إن ذلك الجموح الذى مارسته طيلة حياتى تمثل فى وجه أمى المعذبة بفقد وليدتها ، كانت

ككابوس يسحق نومى وأنا أتساءل هل ترضى عنى أمى ؟ لعل من اللازم أن أسألها ، فربما أحصل على رضاها ولو شفاهة .

★★★

تتلقفنى عتمة المدخل الطويل للطابق الأرضى ببيتنا ، والمقسم إلى حجرات ثلاثة متباعدة ، الباب مازال خشبيا رغم رغبة أمى الدائمة فى استبداله بآخر حديدى ، بسطة واسعة ثم سلمتان ، بعدهما بقليل الحجرة التى كانت تسكنها جدتى ، ولم أدخلها بعد موتها ، على الحائط المقابل بعد خمس خطوات ، حجرة أخرى خاوية ، ثم درجات الطابق الثانى على اليمين ملاصقة وتلتف فوق الحمام البلدى الذى دخلته منذ أعوام " فاطمة رشدى " لتبول فيه وقد كانت عجوزا لم تفقدها المساحيق الثقيلة جمال وجهها ، وكانت برفقة صديق لنا ، لا أعرف أين سقط اسمه ، وتحضرنى ملامح وجهه الجامدة والمتضخمة بأثر غضون لا علاقة لها بسنة ولا تنقص من جاذبيته .

فى آخر الرواق وبمواجهة مدخل البيت أو الشارع غرفة أخيرة مغلقة على ماكينات أبى القديمة و كومات صغيرة من الأقمشة والملابس والقصاقيص المعدة للخياطة وبكرات خيوط بعضها ملون والأخريات سوداء وبيضاء ، كل ذلك بالطبع تعلوه طبقة كثيفة من التراب ، رغم أن الغرفة محكمة تماما، وبها نافذة مغلقة لصق حائط عمارة بنيت حديثا لآل عطوان ذوى السمرة الرائعة، وكانت لى منهم صديقة حميمة لا أذكر اسمها أيضا ، ولكنى أتذكر جيدا شبهها المطابق " للبنى عبد العزيز " بسمرتها وتصفيفة شعرها فى فيلم الوسادة الخالية ، أصعد الدرجات بوهن وأنا أبتسم وأعجب لذلك الزمن وكيف انقضى والى أين ، وماذا أصاب ذاكرتى ، هل ذلك بفعل المخدرات كما يقولون أنها تفقد المرء ذاكرته ، ضاعت الأسماء فقط ، بينما الوجوه والتفاصيل تلح علىّ بوضوح كامل.

الطابق الثانى لا يختلف كثيرا عن الطابق الأول ، سوى أن الحمام المجاور لباب الشقة تم تحديثه ومواضع الحجرات متطابقة ، باستثناء حجرتين زائدتين حلتا فوق دكان الخياطة الذى أجرّته أمى لعم سمير العطار ، وللحجرتين نافذتان كبيرتان تطلان على الحارة الضيقة، ويطل منهما الصخب ، وروائح التوابل والبخور القوية، ورغم معاناة الأيام الأولى ، غير أننى اعتدت كل ذلك ، ولم تعد الروائح توقظنى مختنقة بالسعال وسيلان أنفى، كنت فى البداية أظنها تغطى على رائحة دخان السجائر القليلة ، التى أدخنها بحذر ، كى لا تكتشفها أنف أمى التى فقدت بالفعل حساسيتها للروائح ، وللصخب الذى بات عاديا وغير مثير للركض والفرجة ، البيت المقابل لم تمسسه الحرب بضرر هو الآخر ، فظل به سكان الطابق الثانى تواجه شرفتهم نوافذنا ، رغم أن ملامحهم قد تبدلت كثيرا ، إلا أنهم احتفظوا بالوجوم ذاته ، الذى اكتسبوه من يوم فضيحة ابنتهم التى كانت تحب سائق بيجو أسود ، وكان يمر تحت البيت ليل نهار ، فربما يصبح بمقدورها أن تنزل وتسبقه إلى حيث يركن سيارته فى الميدان ، وفى نهار بعيد ، قبل رحيل أندريا بأيام اجتمع رجال العائلة، وانهالوا على كامل الأسود ضربا بالعصى الغليظة حتى صرخت ثناء من الشرفة وقالت اتركوه اتركوه ، حينها فقط توقفوا عن تهشيمه بأمر أكبرهم ، الذى قال بلهجة قوية..

– البنت تحبه وتريده اتركوه ، زوجوه لها ، ولتتحمل قدرها .

فقد كان كامل متزوجا بامرأتين إحداهما راقصة والثانية ابنة قهوجى سمين ، كانت ثناء جميلة وفاتنة قبل أن يكسر فكها ويجعله معووجا لأنها أرادت الطلاق فيما بعد، ورغم محاولات عم راشد وأمها واخوتها وكل الجيرة ردها عن فكرة الزواج به إلا أن ثناء أصرت ، تزوجته وانقطعت صلتها

بالأسرة تماما ، ولم يعد أحد يعرف عنها إلا أخبارا قليلة - أنجبت - فى قسم عظام النساء بالمستشفى تعانى كسورا ، ورغم كل ذلك فقد ظلت تحبه وتدافع عنه بشراسة .

يرن الهاتف رنينا طويلا متكررا ، انه عصام ، أقرر ألا أرد ، فأنا أعرف أنه الآن قد أنهى مهامه ويريدنى أن أعود ، يحملنى وجع الذاكرة إلى الفراش ، أذهب أم أبقى ؟ أظننى أعرف أنه لا ينبغى الرجوع ، فتلك المرة الأولى منذ عقود التى أشعر فيها بأننى أنتمى لهذا البيت ، أكثر من أى مكان أخر ، وأنه بمقدورى العمل على اختيار موضوع رسالة الدكتوراه الذى أجلته كثيرا ، خاصة بعد أن أصبحت الغرفة المطلة على الشارع لى وحدى ، وهى شبه معزولة عن باقى البيت ، وقد صففت ملابسى لأول مرة على أرفف الدولاب المعدنى الصغير ، أنا هنا أنتمى إلى عالم ممتد بجذوره فى ذاكرتى التى تبدو منتعشة بعد قضاء ما يقرب من أسبوعين ، بدون تعاطى "كلمة دالة بخزى" ، أبسط الأوراق وأشخبط خطوطا متعارضة ومربعات ومستطيلات ، ثم أكتب أسمى بالعربية والإنجليزية ، تحت إضاءة خفيفة تنبعث من الخلف ، فيبدو كل شىء معدا للسحر ، غير أننى لا أثق بشىء أكثر مما أثق بالمصادفة، وربما الإلهام ، لا علاقة للحزن أو السعادة بالرغبة فى العمل ، فالسعادة والحزن فكرتان لصيقتان ، تتراوحان بين اللذة والألم، مشاعر سخيفة لا ينبغى اعتناقها ، فهى زلقة وخطرة ، ويظل اسم " أندريا " هو الخيار الأفضل لقلمى السريع ، الذى يفرغ مداده ، فينسحب باقى الاسم فى بياض الصفحة مجبرا ، وأستعيد تاريخا من الحماقة والجنون بفكرة أن الآخرين لا يعيشون حياة أفضل بدونى .

- يجب أن تتعلمى الاندماج . . . إذا كنت فى إنجلترا فأى لغة تتحدثين؟

- الإنجليزية بالطبع
- وإذا كنت فى عالم الرجال ؟
- سؤال صعب
- الإجابة مجانية ، كونى أنثى ، أنثى قوية ، إياك أن تصبحى ابنة أو أما أو تابعا .
- دعينى أعلمك بعض الإنجليزية ، فرنسيتك لن تصلح لهذا الزمن .
- علمنى كيف يكون الحب بالإنجليزية.
- الحب يا حبيبتى يشبه الشتاء الحقيقى ، لا يمكنك وصفه ، أنا لى شتاء برده ووقعه ، ليسا كشتائك ، بالنسبة لك الحب مراحل أولها لمسة سيف لفارس يمتطى جوادا ، سيحرر قلبك ويرحل ، شاهرا سيفه لأجلك لا عليك ، مهما تقلب وجهك ، عندما يعود بلمسته الثانية ، سيتبدل كل شىء ويصبح القياد لك ، إذا أحسنت التصرف واستقبلتها وأنت تتقدمين ، الحظر أن تقعى فى الحب وأنت تنظرين للخلف ، لن يتبق عندها غير الندم ، لا تطاردى الأشباح ، اتركيها وتقدمى ، فان لها حدودا لا تتجاوزها .

كنت على حق يا اندريا العزيز ، ولم تكن يوما شبحا ، بل أنت شتاء لن يتكرر مهما تعريت لبرد أمسيات منفية بسطح الليل .

أمى بالخارج تصر على تكرار الأصوات ذاتها ، تغلق الباب وتفتحه عشرات المرات فيصدر أزيزا ممتدا ، تكشط الأرض بخفيها مئات المرات ، تتناوب فتح الصنبور ، إغلاق الثلاجة ، تحرك الملعقة بكوب الشاى الملآن لنصفه ، فتسقط الأصوات على عقلى كالمشارط موجعة حتى يتورم قلبى بالقسوة ، وهو يقرئ اندريا السلام لأواجه ابتسامة أمى التى تتفحص أبعاد ضجرى ، تتحرك الرحمة من مخابئى المقصوفة الآن فى مدينة يدميها الحصار ، تتفجر ملامحى باستشاطة الغضب المفاجئ ، وصراخى الذى

كتمته ، يخرج بالكاد من أسنانى المختنقة بالاصطكاك ، وكلمات مبتورة : أنت تتعمدين إقلاقى

– كنت أظنك نائمة

– كيف أنام وأنت تجرين عربة الصخب هذه ؟

– أنا داخلة إلى الحمام .

– ارحمينى

– مالك يا سوزى ؟ هل يضايقك شىء ؟

أهذه أمى التى تسألنى عن حالى وعما يضايقنى ، متى فعلتها آخر مرة؟ لتفعلها الآن ، بعد أن انتهى كل شىء وأصبحت امرأة ضالة ، لم تفعلها حين خرجت بى مكرهة من هذا البيت الواقع تحت القصف اليومى إلى الجحيم ، جحيم خالى ، وجحيم عشة خيرية ونقودها المعدنية ، التى أصنعها كتعاويذ معلقة فى شق بكتفى الأيمن ، لم تفعلها حين ودعنا اندريا معا وعدنا مطرودتين ، اللعنة وذنبها ، ولكن من منا الذنب ، أنا أم هى ، طالت تلك اللحظات ونحن واقفتين أو قصرت لم يكن يهم ، المهم أنها منحتنى الوقت للبكاء والتألم ، والشعور بالظلم ، وأنا أراجع عشرات الأعوام التى مرت وأنا على حالى ، كيانى يتلقى تجشؤ الموج المرتطم بجدار الخليج الصخرى، قبل أن يسقط الغروب فى باحة الليل ، يا إلهى الرحيم ، هذه المرأة التى تحتضننى الآن وتمسح على كتفى الأيمن بيديها ، هى التى ولدتنى حمقاء ، وهى التى جعلت من أخى راهبا وإرهابيا ، لماذا تفعل ذلك معى الآن فقط ، هل انتوت شيئا ؟ وتريد أن تخفف أعباءها قبله ؟ بعد أن شقت قلبى ودستها عنوة وهى تلقى على بذات التهمة.

– مشكلتك هى أبوك يا سوزى ، خلى بالك يا بنتى من نفسك .

★ ★ ★

رغم براعتى فى الحكم على شخصيات الآخرين إلا أننى صدمت من قدرتهم على التخفى فى ساحة التانجو المحافظ، ليتكرر شعورى بالعجز لمرات عديدة بينما تدور الرقصة ، فلا أجد من يستحق اللوم غير ذاتى المنغصة ، فأقبل على موت تزيده إخفاقاتى موتا فى ماعون الغيبوبة ، وصوت أندريا يقبلنى . . .

– الحياة حلوة أوى يا سوزى ، لكن عشان نعيش كويس ، لازم نكون متفوقين بأى معطيات ، اليونان حضارة جبل ومصر حضارتها النيل ، لو بنينا وزرعنا بروح واحدة ، يبقى العالم بخير ، اندمجنا وابتكرنا .

– هو يعنى الابتكارماينفعش غير فى السينما ؟ أنت ما تعرفش الكل بيقول عليك إيه ، حتى أهلك ؟

– عارف يا سوزى هونى على نفسك ، صايع ومجنون ومفقود فيه الأمل، أوعى تصدقى.

– يحصل إيه لو حاولت تشتغل أى حاجة ؟ معاك لغات وبتتكلم عربى زينا ، ألف مكان يتمناك .

– أو اعمل شغل خاص توريدات ملاحية .. أفتح فندق بدل اللى راح ، أوعى تتكلمى زيهم يا سوزى، أكتر حاجة حبتها فيك لغتك اللى بتعبرى بيها عن نفسك، مش تقليدك الفاشل لطريقتهم أنت فعلا مختلفة ازاى بتنسى؟

– أنا باحبك لكن صعب أبعد عن هنا ممكن أطلع معاكوا الرحلة وأرجع من غيرك ، مش عاوزة أخسرك .

يلتفت مقلبا فى شرائط الأفلام ويتركنى أتجرع حالى فى الحياة بدونه .

– تعرفى يا سوزى إمتى الأفلام الروائية تنجح ، لما صوت البطل والبطلة يأدوا ورا مشهد صامت نصوص من الرواية الأدبية ، لأن الكتابة تحمل أبعادا أوسع من المشهد ، وأكثر قربا من المشاهد ، شوفى مثلا الأدب عندنا

فى اليونان وهنا ف مصر ، قضايا مقاومة لا تنتهى فى الأدبين .. ذكرى قديمة معبأة بوعيى ، تمنحنى الإلهام..

هل كان ذلك صوتى أحدث نفسى ، أم أنه طيف اندريا الذى قبلته ألف قبلة وأنا أدور حول نفسى مهتاجة مزهوة بما توصلت إليه، صعدت الدماء بجسدى محملة بكل الأدرينالين ، فاندفع الوهج خارج لونى والمسافات ، قطعت الردهة الطويلة ذهابا وإيابا لمرات ومرات ، وأنا أمضغ رجفات قلبى أستعيد تفاصيل لحظة الإلهام تلك التى تسقطنى فى نوم لم أنله ربما أبدا .

فى الصباح الباكر حزمت حقيبة واحدة وقررت الرحيل ، وسألنى أبى :

– انت ماشية يا سوزى ؟ فيه حد ضايقك ؟

– أبدا يا بابا يا حبيبى دا أنا فرحانة جدا ، مش حاتأخر عليك .

– أشوف وشك بخير يا ماما . . . خللى بالك من نفسك . . . عشان خاطرى.

أقبلها بخجل وأحمل حقيبتى ، أدق على باب غرفة أخى دقات موسيقية وأنا أودعه:

– باى باى ياسليم ، لما أجى المرة الجاية حنقعد مع بعض كتير .

لم أعد أذكر لأمى ، غير صورتها وهى تقبل حذائى بعد أن تخلعه عنى وأنا فى سن السابعة .

★★★

مر الطريق بصعوبة مخلفا الصحراء ، وعقلى يسبقنى متجها نحو الذى أرى أخضره جميلا للمرة الأولى ، والناس يتوالدون عليه بدافع قوى للعمل ، حياتى صالحة تماما لأن أغيرها، وأدفع بعصام ليشتغل هو الآخر ، فهو لم يحصل بعد على مدرس مساعد وليس من اللائق أن أحصل على الدكتوراه

قبل حصوله على الماجيستير وأمازحه – ما احنا لازم نسبق الجماهير بخطوة .

المدينة الصغيرة تبدو طيبة وحميمة ، وقد فارقها صراخ خيرية ، ولكن على عادة كتب الناشئة . . . تأت الرياح بما لا تشتهي السفن ، البيت عامر بالأصدقاء والدخان ، العبث يتربع على كراسى الصالون حيث يعدون سهرة استقبال اللهو الخفى . . . سوزى ، وهم يبدون كالمواسين فى مأتم مزحوم ، العشب المخدر يوزع الذبول على وجوههم فتبدو نصف مشلولة .

لماذا يصبح العزوف صعبا ومستحيلا ، ونتراجع بضعف ، حد الالتصاق بالحوائط الوهمية ، التى تدعم عدمنا ولا جدوانا ، كانوا بالفعل مجتمعين . . . ليس هذا عذرا ، وأنا بزيى العملى ، والوجع المطروح على هيئتى ، والتثاؤبات الكاذبة المتسارعة لم تكن كفيلة بوقفهم عن الضحك والثرثرة ، أنتشل السيجارة الملفوفة من شفتى عصام وأقضى عليها تماما . . . حتى ينتبهوا إلى باندهاش:

– يخرب عقلك .

– دانتى حوت

– خلصت السيجارة على نفسين

– لأ ومن غير ما توقع ذرة رماد

– كنت ح اموت، والعربية كانت ح تتقلب فى الترعة وبتحاسبونى على سيجارة . . . يا جرذان .

– دا احنا بنتشتم كمان

– هى دى الصداقة هى دى المشاركة ، بتحتفلوا ف بيتى وما حدش يقول حمد الله ع السلامة .

أقلع عينى من عين عصام وألقى بكامل جسدى فى قلب المقعد ، تتقاطر

كلمات الأسف والافتقاد المكرورة وكأنهم فى عزاء ، أليس لديهم مقولات جديدة ومبتكرة لهذه المناسبة ، لم تنزح الكراهية عن عينى عصام وهو يسوطنى بسؤاله :

– مالك يا ماما ؟ هى دى أول مرة تسافرى ؟

تتردد الأصداء بتشجيع منه .

– دا إحنا الظاهر اتهزأنا ف بيتك ياعمنا .

– إيه يا سوزى أنتى حتعيشى الدور ؟

– موت إيه وعربية إيه ؟ ما أنت زى البمب أهو .

– خلاص يا جماعة ياللا نـــروح عند أسامة . . . والا كل واحد يروح بيته .

ينقلب المشهد تماما ، ويصبح واجبا على أن أستجيب لنظرات عصام اللائمة والإصرار على أن يبقوا . . .

– آسفة يا جمـــاعة الظاهر التعب مع السيجارة الجامدة خللونى اتسطلت .

ثم أتكوم فى مقعدى ، كل ما أرغب فيه الآن هو النوم ، لا يهم أن أكون مرفوضة من الجميع ، الأهم أن أحصل على انفراد حقيقى يتيح لى العثور على ذاتى الخارجة ، الآن على كل من يريد منى شيئا ويعتمد على فى إحضاره وأنا أضيف إليه ابتسامة الروح الخدمية العالية .

– طظ فيكم ، أنا عايزة أتخدم الليلة .

أنا الآن أصنع اختيارا، ربما أخمد بعده ، ولكنها فرصتى الأخيرة لشىء لا التباس فيه ، حياة لأجلى .

– اشمعنى الليلة دى ؟

– عندى موضوع للدكتوراه .

– يااه ، بسرعة كدة ؟

– شوف بقى يا سيدى اليونان ومصر حضارتين؛ جبل ونهر، أصبحوا تحت الاحتلال لعثمانى تقريبا فى نفس الفترة، كويس.

– أهلا وسهلا.

– الأدب فى اليونان تناول الفترة دى.

– كازنتزاكيس.. الموت والحرية وكمان .. مش فاكر.

– وف مصر؟

– كتير؛ عَندكِ فتحى امبابى نهر السماء، وسعد مكاوى السائرون نياما.

– كويس قوى. لو عملنا دراسة مقارنة لشخصية المقاوم، ممكن نوصل لنتيجة تثبت تكامل الحضارتين.

– زيك أنت وأندرية طبعا.

.. يسحبنى خلفه من المطبخ إلى غرفة الضباب وأنا أحاول تبرئة نفسى.

– إنت ليه بتحبط كل حاجة كويسة

– شوفى لك موضوع تانى وبطلى ضحالة.

نفس وراء آخر وأنا فى مكانى ، أمدد قدمى على رخام المائدة ، لن يزحزحنى شىء عن مكانى ، أتأمل ضيفاتى بابتسامة متفهمة ومشجعة لقوة بداخلى أدرك أنها تراودهما ، رغم وعورة الحياة بالنسبة لهما ، سهام وسحر اللتين تنتميان لأب غائب ، حب عبيط ، زواج إجبارى ، أصدقاء يغمدون مديات بين فقراتهم ، سحر تحلم بالخلاص من يوسف ، لكنها مربوطة بقوة إليه ، ليس بالزواج وحده ، ولكن بافتقارها لمكان تلجأ إليه ، لن تقدر على الرجوع إلى الحياة التى كانت تعيشها ، بين بيتين ، فى أول الشارع بيت أبيها وجبروت زوجته ، وفى أخر الشارع زوج الأم واحتقاره ، والأم منقوعة فى كراهية مطلقة للرجال وما يذكرها بهم ، حتى لو كان ذكر

البط ، أو الابنة التى تنتقل بشكل متوتر بين البيتين ، وحين تجد عملا بليسانس الإنجليزى ، يكون بمكتب الترجمة للدكتور رفيق ، الصفحة وكل شىء ، بجنيهين، وأحيانا علاوة ، قطعة ملابس ، أو زجاجة عطر ، مع السماح لها بالمبيت فى المكتب البارد ، حتى تصرف أمورها ، والخسارة بلل الشعر بالعرق على جلد الأريكة السوداء مما يحتم العودة إلى مصفف الشعر الذى يتقاضى مقدما ثمن حمام ساخن ، ونعومة شقراء للشعر المجهد ، وحين يصبح يوسف هو الملجأ بالزواج ، يقضم قطع لحمها الأبيض بعنف يؤلم عظامها ، ويستمتع فى الصباح بمشاهدة البقع الزرقاء المنتشرة على نحافتها المصقولة .

★★★

ننطلق نحو بوابة خروج الروح بالمؤامرات الصغيرة ونحترق ، ركضا وهوينا ، صراخا وضحكا ، حبا وكراهية ، ونقتلع أسوار المدى وبناياته ، نتعلل فى الرغبة المعبأة بالتوق إلى النهايات المفجعة ، نلتقط أنفاسنا تحت سنطة عجوز ، تمتد مظللة الفراغ والحطام والغبار ، إلى أن تنتهى المهلة ، وألقى بنظرة على سهام المنزوعة خلف الدخان الكثيف ، تغطى وجهها بألم ، وكأنها تجرع كأسا لا ينتهى من المرارة ، تحرص على مواعيده بدوام، ضاربة بتعليمات الطبيب ، الذى يفضل أن يستعرض معها أحداثا مهينة من حياتها ، تنتحى بى وتعطينى قرصا مهدئا ، ابتلعه لأفقد القدرة على التعريف بما كنته وما أردته ، وكأننى ما كنت أعرف ، أصبح غير التى كنتها بالأمس وسهام تستلم أذنى لتلقى فيها بما أتفق . . .

– إحنا جيل أتختم بالتعاسة ، ما فيش مفر يا سوزى ، حاولى تتكيفى ، صدقينى ، مش حتقابلى غير الوحدة والأرق والخوف ، لو قاومتى ، وبرضه مافيش فايدة ، يمكن لو كان عندنا عيال ، كان حالنا بقى أحسن ، إيه اللى

يخلينى أعيش مع واحد زى أمين ، أكلم نفسى وأضحك على نكت مش مقصودة ، أرمى ذاكرتى كل صبح فى الحمام ، وكل ما أتقابل بأمين أسأل نفسى ، يا ترى هو شايفنى ايه ؟ أنا شيفاه وغد ، بافضل ابرشم عشان أحسن صورته وأختلق له الأعذار.

وافق على النصائح وكأننى أتلقى صفعة ، أدير لها خدى الأيمن ، أتجاوز وكأننى ممسوسة بسحر أسود ، لروح حمقاء وسخيفة حلت فى ، هو كذلك أمر خارق عن طبيعته أو هى ضمن طبيعته ، شىء لم أخترعه ولم أرغبه ، حب ورفض ، كلاهما يحملانى فوق قدمىّ ، بين جدران معتمة ، بلا سقف لأى آفاق . فقط الحوض الأبيض، أتقيأ الدخان والنبيذ الأحمر ، البقع البنفسجية تطرطش على الحوض بغير نظام،أجأر بالوجع، أرغب أن يسمعنى عصام، ربما لو سألنى عما بى لاختلف قرارى.

★★★

بعد الأمسية الأخيرة . . . الدرامية نوعا فى تقديرى ، حيث جلست كحائط له أذنان بينهما لسان يتحرك ليبلل شفتى ويرطب سقف حلقى، لا أحد يعرف شيئا عن قلبى المدمى بوطيس الحرب ، حرب بلا مكاسب قدرية، كلنا شهداء تحت الحصار ، شهداء جهل تاريخى ، كل بيت أصبح مشفى مطوقا بالقذارة ، لكن هناك بيوت عادية تنعم بضجيج الأطفال ، لن تكون بيتى ، لذلك قررت فى الصباح أن أزور الدكتور " كمال " ، وأقبل بالعرض الأول ، مع إضافة عشرة جنيهات فى اليد الأخرى للتومرجى ، الذى قاولنى على التكاليف متضمنة محاولة الإقناع بالعدول عن الفكرة ، فهو يعلم أنى متزوجة ، وليس الحمل عارا أحاول إجهاضه ، وليس يعنيه أن يعرف أننى قررت الانفصال عن عصام ، ولم أعد أرغب فى أن يكون لى ولد يشبه أندريا، كنت أرغب فى الهرب . . . الهرب السريع من كل ما هو خلفى ،

بدون أن أمد فروعا تجذبنى إليه ، وقد عانيت عانيت فى كل شىء ، رغم أن التومرجى تكفل بشراء مستلزمات العملية ، إلا أنه لم يحمل عنى عناء صعود البنج بلا فاعلية فى دمى ، يلومنى الطبيب وأنا بين الهنا واللا . . .

– مخدرات . . . عشان كدة حضراتكو ما بتخلفوش .

وأذهب بعد حقنة البنج الإضافية ، إلى رائحة موت محايد ، لا لون ولا طعم ولا شىء ، محض رائحة ليس لها من الحياة أثر ، وأعود فوق حلزون إلى آلام الرأس الموخزة ، أمد يدى إلى بطنى ، وأنا أنقل وجهى فى فجاءة الضوء القادم من النافذة ، يفتح عينىّ بقوة ، على حجرة الإفاقة الواسعة ، والخاوية من كل شىء إلا من سرير أبيض ممددة فوقه ، وفى لحظات الإفاقة الأولى ، بدا كل الفضاء أبيض ، و كأننى انتقلت من الوجود ، حتى يدخل الممرض ، يكشف ذراعى ويشكنى بحقنة ، وألم شديد فى عضمة أذنى . . .

– الحقنة دى مضاد حيوى ، معلش قرصتك جامد فى ودنك عشان تفوقى . . . كنت بتقولى كلام صعب أوى ، خليتى كل اللى فى العيادة يضحك ، حتى الدكتور كمال قعد يكتب وراك .

ما الذى يمكن فيما قلته أن يجعلنى بطلة على مسرح فى مشهد هزلى ، هل قلت مثلا أننى لم أخبر عصام بحملى من الأصل ؟ وأننى بالدور أجهض بغير موافقته ؟ ماذا سيفعل لو عرف ؟ وقد عرف ، رآنى أحد الأصدقاء وأنا أخرج مترنحة من مبنى عيادة الطبيب والكل يعرف ما يفعله دكتور كمال فى عيادته.

–أنا ممكن أوديكى السجن . . . أنت عملتى جريمة يا دكتورة .

يهاجمنى عصام بلكمتين فى بطنى . . . ويسبنى بأمى

– يا بنت المجنونة ، احنا لينا تسع سنين بنتمنى نخلف .

– إنت السبب . . . حياتنا بايظة . . . ما ينفعش نجيب أطفال نفرجهم على فشلنا .

– فشلك لوحدك . . . أنا كنت مستنى طفل ، أغير عشانه حياتى ، ايه الفايدة انى أقاوم عشان ولاد غيرى ؟ أنا ماعنديش أى حاجة أمتد فيها ، غير ابن يشيل أسمى

– وأنا ؟

– إنت . . . إنت لعنة . . . مجنونة . . . حيوانة .

وينهال اللكم على كل أجزاء جسدى . حتى يدخل الجيران فيردد عصام فضيحتى .

– الهانم سقطت نفسها من غير إذنى ، قتلت روح . . . الكافرة بنت الكلب .

الخناقات الزوجية ، عادة ما تنتهى بهدوء ، حين يروح كل واحد لحاله ، لكن هذه الخناقة تحديدا ، بلغت تفاصيلها خالى ، ربما من متطوع يرغب التقرب إلى العميد عاطف . . . فربما يحتاجه يوما ما ، فى الحصول على حق فى زمن لا سيادة فيه للقوانين ، وخالى منكفئ على قانون الطوارئ ، يدرس إمكاناته ، لحساب الغير الذين يعنونه .

يسحب عصام بهدوء من سهرة فى مكتب أسامة للهندسة والمقاولات ، والذى اعتاد أن يدعو عصام وبعض المهمين ، كلما تعرف إلى زبون جديد ، كشكل دعائى ، لا يحتمل اللبس فى طبيعة الصفقة ، ومدى مصداقيتها . وقد امتدت السهرة حتى نقطة تبادل سجائر الحشيش ، وحتى تم القبض على عصام وحده من دون أن يمس فردا من المجموعة ، التى لم يسعها إلا أن تذهل لدقائق بما حدث ، ثم يعاودون السهرة صامتين .

★ ★ ★

حين ينام الواحد ليلا ويستيقظ نهارا ، يصبح يوم قد مر ، بالنسبة لى توقف هذا ، منذ الليلة الأولى التى لم يعد فيها عصام إلى البيت . . . حتى اليوم التالى ، إلى هذا اليوم الذى لا أعرفه ، لأننى حبست نفسى فى بيتى بعد أن عرفت بما حدث ، وفهمت أنه خالى ، لأنه لو كان أحد غيره لقبض عليه هنا فى بيتى ، فسهراتنا باتت شبه معلنة بالضحك الجماعى والأصوات العالية وحزم الدخان المتسربة من المنافذ ، لقد أراد خالى أن يحمينى للمرة الثانية من عصام . . . وفى الوقت الخطأ وبالطريقة التى تنال منى ، لأن الكل كان يعرف أننى أريد الطلاق من عصام ، لم أجد كلمات تعبر لهم عن قدر انزعاج مشاعرى منه، ذلك التوحش فى الكراهية أصبح من المتاح رؤيته بالعين المجردة .

– الحب يولد فى لحظة . . . ويموت فى الكراهية ، لن أستطيع المواصلة.

فيترك سيجارتين على الكومودينو تماما بمحاذاة شريط الكبسولات المضادة للاكتئاب والتى تبقت به برشامتان ، قبلنى على جبينى المحموم بالانفعال ، وقضيت الليل فى صمت وادع ، تحففه ابتسامات متبادلة طوال ليل لم يسلم أحدنا للنوم ، كنت بغرفة النوم أحافظ على مقاومتى ، لا تراجع . . . الحب أو كل واحد يروح لحاله ، أردد القرار على وقع الخطوات على خشونة البساط و الأرضية المصقولة ، هل سيدخل الآن بعد أن اجتاز المطبخ فى طريقه إلى الحمام ؟ وصوت الماء الواهن يتقطع مثيرا الوجل والخوف . .. ما اختياره ؟ سأقول له لا أنتظر الرد الآن . . . فكر شوية . . . هذا أيضا فيه تراجع ، لقد طالبته بالاختيار الآن . . . الآن الآن ، أحاول أن أقرأ وأدون الملاحظات ، أو أحاول أن أبدو كذلك ، وأنا أقلب وأوزع الفيشات المستطيلة المصقولة ، كالكوتشينة ، تزداد الجلبة فى الحمام ، تتوقف ليظهر وجهه من الباب ، سأدعى النوم ، ليس حلا ، فقد جذب انتباهى بصمته ،

وغبت فيه ، حتى قال بعدم فهم ، تصبحين على خير ، لتعود جلبته فى الخارج ، أقاوم فكرة النهوض لعمل كوب من الشاى ، أو أى شىء يبرر تدخين السيجارتين ، وقد كنت قررت الإقلاع . . . لكن العطش لمذاق ما فى هذه الحياة الثقيلة المترعة بالتوجس ، بوهم الحاجة لمأوى . . . لرجل مختلف عن الآخرين ، ولكن أى اختلاف وأى آخرين ؟

أعد الموقد للإشعال ، وفكرة إيقاظ النار الخامدة تصيبنى بالجوع والرغبة فى النوم ، لكننى أعاود محادثة نفسى ، اجتهدى يا سوزى وامتلكى ما تواجهين به معركتك ، قبل أن تسيحى فى الأدخنة والعنف ، وتصبحى تاريخا منسيا فى مجد عصام ، الذى يشعر بى كامرأة هو صانعها ويمتلكها .

– أنت مدينة لى بكل شىء .

– وبنهدىّ وشعرى ولون عينىّ وقدرتى على النطق وإرادة التبول .

– إنت أصلك جاحدة . . . مرة ككل النسوان .

– بما أنك بهذه البراعة . . . لم لم تصنع نفسك ؟

– اتفلسفى بقى . . . ما أنا إديتك الفرصة وخليتك أستاذة .

– لازم واحد منا يمشى . . . كدة هنقضى على بعض .

– أنا إللى حامشى .

★★★

الصمت أصبح طابعنا ، صمتى وصمته ، ولولا صوت إذاعة لندن وقناة الجزيرة ، كنا فقدنا علاقتنا باللغة ، يأكل وهو يتفقد بريده الإلكترونى وغرف الشات المزحومة بغنج النساء ، يشرب نصف كوب الشاى ويطفئ فى النصف الثانى سجائره ، حتى ينام ، ليستيقظ فى الليل . . . ينتظر الجرذان. "وأنا أحتسى مدامع قلبىّ . . .

– أنا تعبان النهاردة ، محتاج شوية مرح . . .

يقر عصام حفلة المرح ، ويعلن فى الفاصل . . . على الجميع

– أنا وسوزى . . . قررنا الانفصال ، ودى آخر سهرة ، إلا لو فضلنا أصدقاء بعد الطلاق ، الدكتورة مش عجباها حياتنا ، بتقول حاسة أنى بتورط فى مستنقع .

– أنا ماقلتش كدة . . . أنت ليه بتكذب ، عشان تمرر اللى عاوزه ؟

أمور كثيرة وددت توضيحها ، لكن اختياره كان أقوى من كل توقعاتى ، أصابتنى المفاجأة بالعمى والجنون ، عيناى تؤلمانى وكأننى أرتدى نظرات غيرى ، تلبست بالبكاء ، لم أكن أعرف من أين يأتينى الخطر ، وتمنيت الموت، والشهاب الذى أودعه أمنياتى يلتهب ، كنت أتمنى أن يختارنى ، سهام تهدئنى وتقول .

– هو يقدر يستغنى عنك ، ياعبيطة دا كلام مساطيل ، عصام بيحبك أكتر ما أى راجل من دول بيحب مراته .

– دا دبحنى ، أعلن القرار من غير حتى ما يرجع لى ، أنا كنت الخسرانة مش هو .

– كله بيتساوى ، تعال نكمل القرف اللى احنا فيه . . . وانسى

تسحبنى من يدى وتجلسنى بجواره و ترتجل . . .

– يا بشر لو فيه حب بجد . . . صعب يخلص أو يموت .

يصفق الجميع وتعلو هتافاتهم التى تجمل سهام إلى الخجل ، تجلس مزهوة بقدراتها فى إضحاك الجميع ، بمقولة حسبتها عابثة .

يطل أندريا ، تملأ ابتسامته المكان ، تتجمع غيمة من دخان بزرقة عينيه ووهج وجنتيه ، يرتدى قميصا من الديولين السكرى وهو ينظر لى مرددا من بين أسنانه البيضاء . . . سوزى حياتى .

– متشكرة أوى .

قلتها لعصام وهو يغادر مع الرجال ، لإكمال الليلة عند أسامة الذى تأخروا على موعده ، ولا يعود . ... باختياره أو بخيار خالى لى ، لا يهم ، المهم أننى فى النهاية أقف عاجزة داخل رواق محظور إلا على التعساء وأنصاف الموهوبين ، حيال السرعة القصوى للعنف ، كيف يفكر فىّ الآن ماذا سوف يظن بى الجميع ، أأدان للمرة الألف ؟

كيف تسير الحياة وأنا أفقد الثقة فى عدالة العالم، يركل خالى الهواء بمقدمة حذائه وهو يرفع ساقا عن ساق ليواجهنى وأصبعه مسدد إلى نافوخى . . .

– وإيه العدل اللى تفضليه يا بنت بطل المقاومة ، شوفى وبعدين اختارى، جوابات بخط أيده بيسلمك فيها أنت وشوية أسماء مالهاش معنى ، اسمك هو البطل ، فى كل تقاريره اللى بيكتبها عن الجامعة ، سوزى محمد جلال ، سوزى جلال . . . سوزى سوزى سوزى . . . وادى كمان سوزى ، بيسلمك للكل ، لمكافحات الشيوعية والإرهاب وكمان المخدرات ، تحبى يكون دا العدل؟ يضرب بنت أختى أدام الجرابيع وأسيبه ؟ لازم يتربى .

– أعتذر ؟ لابد أن أعتذر ، فقبل أن يغلق خالى المظروف على التقارير ، واجهنى برسائلى التى كتبتها لعصام منذ ما يقرب من عقدين وهو فى المعتقل .

– مش دا خطك يا دكتـــورة ، لولايا كان الدبان الأزرق ما يعرفش طريقك .

هل كنت مصدومة ؟ أم تحققت إرادتى فى الحصول على دور البطولة للأبد ، فى اللعبة ، وأنا أزور خالى كداعية سلام ، تناضل فى سبيل الحريات، أشهد العالم بأننى أدافع عن حقوق عصام ، وخالى نصف بشرى

يحضنني بعين التآمر ، كلاهما نجح في إذلالي عبر الآخر ، أتمزق كشاشة بيضاء ، يجذبها طرفان يصبح من الصعب عليّ تخيل ملامحي ، كيف أبدو الآن ؟ وأنا أغذي النوم بالنوم والأكل بالأكل ، أحلق بصعوبة في فضاءاتي ، رنين الهاتف ودق الباب ، محاولات لا تستدعي الاستجابة ، يجثم الوقت كخامة ثقيلة سوداء لا انتهاء لها .

أحاول الخوض فيها ، فيما خلفت من خراب ، من خراب قبل أن أبلغ الصفر الرابع ، ولا يهم أن امتلكت القوة الكافية فأنا أعتنق المصادفة.

الصمت ومائة ساعة من العزلة ، وصلت بي لقدرة تأمل ذاتي ، بعد أن أذبت بالبنزين والنار الهوان الذي يحاصرها ويقمع قيمتها ، من أصدقاء حقيقيين حين لا تحتاج إليهم ، ثم يصدموننا حين تلوح الحرب خلف المروج، ولسنا في المكان المناسب من أرض المعركة ، نفقد المقاومة والصواب فجأة أو تدريجيا . . . لا يهم فالعقاقير النفسية للفقيرة سوزي ، تزيدها فقرا ، خاصة حين تضطر طوال الوقت أن تعلم هؤلاء الأوغاد . . . الذين لا يقدرون قيمة العقل "لا ينبغي لك الآن أن تستخدمه . . . فهو بدعة" ، عليها أن تتركهم يتجولون باحثين في أرفف الخرابات ، غير معنيين بعوراتهم ، ونصبح كلنا في نفس الوضع المرهون بالخوف والتردد فنأكل المتاح ونشرب بولنا ، مضافا إليه الكلور ، ونصبح كائنات درجة عاشرة ، قاومت . . . قاومت بشدة وصوتي ينجلي ليصبح إسقاط دبوس شعر في القاعة ، أمرا مهولا ، كنت أرى روعة ما أقوله وقابليته للتحقق ، ساطعة في بهاء عيونهم جميعا ولاد وبنات ، مسيحي ومسلم ، مستور وفقير ، كلهم كانت تلمع عيونهم بالثورة ، التي تمنحني الطاقة على المواصلة العاجلة ، حيث أن الباقي من الزمن قليل لا يسمح بكثير ، من تلك القاعات وفي وحدة للزمن أتيحت في محاضرات تطوعية لغياب الأستاذ الدكتور ، خرجت من

معسكرات التدريب التى تبدو كحصن ثورى ، لإعداد نواة الثورة ودعمها ، مرددة أن العمل ليس بالأحلام . . . ولكن بالقوة التى سنصقلها فى عالمنا الجديد الذى سيكون بلا قضبان تصفد الأيدى والأحلام ، وكيف كان لى أن أعرف أن بين قومى جاسوسا ، يكتب ما تيسر تداركه خفية ، ولكن ما يكتبه مهم لشخص ما ، يهيمن على إدارة الجامعة ، فأعفى من المحاضرات ويحظر علىّ بتأدب ، عدم التردد إلا فى حالات لقاء المشرف ، أو صرف الراتب الشهرى ، وكان علىّ أن أرد بتأدب أنا الأخرى، وأقرر أن ألتقى بالمشرف فى بيته ، وأن أطلب من "محيى" الصراف ، أن يحضر لى راتبى عند أول كل شهر وإن حدث ولم يجدنى ، فأضطر للذهاب بنفسى إلى خزينة الجامعة ، حيث أقبض راتبا وشعورا بالبطالة ، فأدس لمحيى تحت كشوف الرواتب ، بعشرة جنيهات ، لأننى أظنه أكثر أهمية منى .

لو مت الآن فلن يكتشف أحد غيابى ، وربما أتعفن مثل أبله عنايات ، التى تركت أثرها مخبوءا بين أرفف الكتب ، لم أفضه بعد ، وأنا لم أترك أثرا بعد ، لا أريد أن أموت هكذا . . . وحيدة ومنبوذة، الكل يرحل تاركا خلفه الفوضى، وأنا قررت ترتيب كل شىء قبل الموت، يتزامن دق الباب مع استعدادى للموت، أنهض بسرعة ، أترنح وأوشك على السقوط وأنا أحاول انتعال خُفى ، بالطريقة الصحيحة ، فأنا غير متوازنة على الإطلاق ، لرقودى اليقظ ساعات طويلة متصلة فوق السرير ، وقيامى المفاجئ ، أستغيث بالطارق الذى والمصادفة سهام ، ما أن رأيتها حتى ارتميت بكاملى فى حضنها وبكيت ما كان من حالى بعد القبض على عصام .

– إيه يا بنتى ؟ مالك ؟ أنا فكرتك مشيتى ، ولا يهمك ، أنا متعودة على كدة ، كل الناس بتحب تترمى فـ حضنى وتعيط .

– شفت إللى حصل يا سهام؟

– يخرب بيتك ولو أنه مخروب بالفعل ، يا بنتى احمدى ربنا دا كان كابوس يا ريتهم كانوا أخدوا أمين معاه وخلصنا من محوزين للشر ، دى فرصتك عمرها ما تتعوض أطلقى بسرعة وشوفى حياتك ومشاريعك ، ما حدش يقدر يلومك ، عصام عمره ما كان ليكى ، مافيش داعى للكلام ، المهم انفدى بجلدك ، عودى لديارك ، فلا يوجد هنا ما يستحق المشاهدة ، دول رجالة تحسن .

نضحك ، أضحك ، وأبدأ فى حزم كل حقائبى ، وأنا أأتنس بسهام التى أضافت بهجة سرية لشعورى بالذنب تجاه عصام .

– ماذا أحمل وماذا أترك ؟

– عبئى أشياءك المهمة .

طبعا المهمة وليس كما قالت أمى وهى تخرج بى منذ عشرات السنوات ، أسمعها الآن وأنا أموت بمشارف العقد الرابع ، وأقرر أن أنتقل إلى حياة جديدة ، لا أعرف من سأكونه فيها وبأى وجه سأقابل العالم ، هذا الوجه البدين المتغضن بالأسى ؟

– إنسى نفسك شوية بقى وإسمعينى . . . أنا بحب .

– يا سلام . . . وايه الجديد فى ده ، ما انت كل يوم بتحبى .

– لأ . . . بحب بجد . . . ومن زمان . . . هو دا حبى الحقيقى . . . لكن من غير أمل .

– غنى يا سهام .

– بصراحة بقى أنا باحبه من قبل حتى ما اعرفك ، ولولا كده ماكنتش صاحبت واحدة نكدية زيك ، لكن طبعا بعد كدة حبيتك ، فاكرة لما خالك كسرك من الضرب ؟ ومنعك من دخول امتحان سنة تالتة ؟ كنت أنا كل يوم

أروح أسأله عنك عشان أغطى على وجودك فى الامتحانات ، أول مرة كنت أقرب منه وأشوف العذاب اللى كاسى ملامحه يمكن وقتها حبيته.

– يا نهارك أسود ، خالك عاطف ؟ أول مرة أتخيل أن واحدة تحبه خالى عاطف ؟

– يعنى حاجة كدة زى حبك الرعب ف أفلام فرانكشتين ، وأنت بتسرقى بصة على حتة مرعبة خلتك تغطى عينيكى بنص صوابعك ، كنت باسخسخ وأنا رايحة عليه ح اقع من طولى ، وهو واقف يرمى عينه على الدنيا ، كأنه ناظمها ، أيده ف جيبه والتانية بيسوى بيها شعر رأسه ، كان نفسى تكون أيدى ، وأنا حاسة أنه مفهوم غلط ، لابس بدلة حد تانى.

– ومخبية كل ده ؟

– الدنيا كات متلخبطة وكنت مرتبطة بأمين ، لكن خالك كان موجود جوايا ف نفس الطلة ، يمكن كان لازم أصدق أن علاقتى بأمين أصيبت فى العمق ، بعد تنكره لى لما خرج من الحبس ، لكن لما خرجت بعده بشهور ، كان بيبان رقيق ، ويحاول يكفر عن ذنبه ، ما قدرتش أسيبه وكان لازم أسيبه ، وأنا عارفة انه مايقدرش يحمينى، كنت أساعده فى كل حاجة، وهو فى النهاية نخاس تترى مكانه فى مشنقة على أبواب التحضر ، غامرت وفضلت أكون معه ، وأنا أحلم بارتداء فستان الحمل الذى لا أستطيع شراءه، لأننى لم أستطع الحمل منه ونحن زوجان ، كل الدكاترة قالوا أننا بخير ، وأن العقم نفسى ، علينا تجاوزه ، لكن كيف ؟ وأنا أبلبع البراشيم كى لا أشعر بالغثيان وأنا معه ، وأغطى شعرى كى أستحق لقب أم من الجميع ، ولم أكن أما لسواه .

– حبيبى لو تعرف إنى مشغولة عنك بالمذاكرة حتفرح . . . صح ؟

– طبعا يا حياتى ؟ على أد غيرتى لكن ماقدرش أعطلك . . . عن مستقبلك .

وفى نفس اللحظة وكأنه لا يعطلنى ، ولا يقطع على الوقت الضيق الذى أحتاجه حين يظل يزعجنى كطفل بليد . . . معقد

– حبيبتى انتى بتذاكرى . . . برافو عليكى . . . أعمل لك شاى ؟

– شكرا شربت كتير .

– هتعملى لنا غدا إيه النهاردة ؟ أنا بدأت أجوع

– فيه بواقى فى التلاجة.

– نفسى أكل محشى .

– حالا .

– مش عاوز أعطلك .

– مافيش مشكلة . . . أكمل بعدين .

بكل هدوء أستسلم وأنهض مسرعة .

تأخذ سهام استراحة وتغادرنى بدعوى عمل الشاى ، وأنا أدرك أنها تتألم ولا تمتلك الجرأة لإفشاء ألمها ، وتتركنى، أى كتلة من الوجع سنصبح عليها لو تم دمجى وسهام فى شخص واحد؟

تنتزعنى بسرعة شاشة أندريا البيضاء على أصوات فيلم الآلة الألمانية التى غيرت العالم ، وكان المشهد مرعبا يدق فى قلوبنا دمدمة انفجار دخان الآلة العملاقة التى تتصدر سطح الشاشة ، ولكننا نسقط ظلنا على الشاشة المغطاة بالأسود والرمادى ، ونحن نرقص "السيرتاكى" التى تشبه الرقص النوبية، فى مد الكتفين بالذراعين وهما ملتصقان كطوف قوى ، الرقصة الوحيدة التى أتقنها كما يتقن البندول حركته الدائمة ، أروح يمينا وأعود شمالا بانتظام لا يشوبه غياب عن عينى أندريا ، ابتسامته تشبه ابتسامتى

ونحن نرقص يوجد حتى تتلاقى روحانا . هل كانت الاشتراكية تشكل فى وعيى بروح لا تفقد العدل والمشاركة التى تجعل الكل يشعر بالآخر ، وكأنه منه ، ليسود عالم واحد بلا تقسيمات سرية ، ونصل إلى الشيوع المبهر لحضارات واعية ، ولكن الحلم يهدد بالفناء لحظة اكتشاف السر الأعظم لبقاء النوع ، كما أكتشف معادلة أنوثتى وذكورة اندريا فى لحظة واحدة أبانت لكل منا عن وجوب اكتماله بالآخر ، رقصة بسيطة بلا بزات فاضحة ، أبلغتنى السر الذى بدا به كل شىء كاملا ، فبات لعنة توتر علاقتى بالآخرين ، وتجعل الفرار الصبيانى كشفا نهائيا لكل أخطاء السنوات التى توافقت تبعيا مع سنوات غياب أندريا ، وربما من قبل ذلك ، قبل أن أراه مقيدا فى ضماداته وعيناه تتكسران كلما أردت له أن ينظر فى عينى قبل رحيله إلى بلده وهو يرتفع إلى السفينة البيضاء العملاقة ، المشطورة بالخط الأزرق الغليظ ، والذى كنا نخطه عادة على اللوحات المدرسية المعدة بلا تعمد ، كمجلة شاملة تولى كل الأبواب عناية خاصة ، ونرفعها على الحائط معا ، أنا وأندريا وأسعد وايدجيت ، مشكلين تحفة الحضارات الموغلة فى القدم والترابط ، تنتزعنى سهام بصوتها قبل أن تدخل الغرفة حاملة صينية الشاى وبعض السندويتشات .

– أنا كنت بحلم أكون زى ماجدة الصباحى فى فيلم " الحقيقة العارية " أشتغل وأدرس وأتجوز شخص متحضر يحتمل مغامرة الاقتران برفيقة ، لكن والله العظيم وبفضل السيد أمين بقيت مجنونة ، ابن الكلب بهدلنى ، وخلانى أوانس عليه وهو بيوقع بنات الناس ، وبقت أحلامى هى إللى فضيحة، لما قررت ف يوم أنى أبدأ من جديد وزرت خالك فى مكتبه ، تعرفى أنى دونت اليوم دا فى مذكراتى ؟ أسمعى . . . كان إزاى . . .

ريف سبتمبر ١٩٩٢

مقاومة قوية لأمين في حاجة إلى ترسيخ ، قلت له سيبك من حكاية الحب دى وخلينا أصحاب ، نلاقى بعض وقت ما نحتاج ، متطلبات الحياة أعمق من استعدادك ، وأنا تعبت من أني أفضل إدي من غير ماخد ، غير البخس ، الحكاية مش كلام وعشق ، ولا صراع نفسى فى السرير ..

أشعر بأنه كابوس يطارد مستقبلى ، أرغب فى الانتهاء منه ، أشعر بأنه تافه ولن يحقق أى شىء مما وعدنى به على الإطلاق ، لأن ضميره ميت وعقله معوق عن الفهم .

... تذكرى أن تعظمى من كل ما تفعلينه حتى لو كان لا يعنى شىء بالنسبة لك ، لا تبخسى بضاعتك .

... انتهزى كل شىء لصالح أغراضك السامية فى الحياة .

... لا تتوسلى . . . أؤمرى وعاتبى واغضبى فهذا حقك الذى تخوله لك قدراتك .

... إمنحى مجدك الوقت الكافى ليبقى أسمك . فأنت امرأة لن تكون لقبا لأبنائها

... روشته ماتخرش الميا ، كنت باسمعها لنفسى وأنا بادور على مخرج .

على أن أبدأ حياة آمنة ، وظيفة مستقرة ، قبول نسبى من الجميع ، قررت زيارة عاطف بك فى مكتبه ، كى يساعدنى فى الحصول على التعيين تجاوز سائق المبنى بعدة أمتار ، ناولته جنيهين ، وأنا أسير باتجاه الجنود والمخبرين المنتصبين أمام المبنى فى رخاوة فلول معركة مؤجلة ، قلت وأنا أؤكد الكلمات لنفسى المرتعدة من تفاصيل تعذيب قديم ، وكأن امرأة أخرى نالته ، ولست أنا ، كنت بالفعل خائفة . . .

– بشر مثلنا .

– أيوة عارفة . . . ربنا يستر . . .

وقتها كانوا بيلموا أى حد المهم . . . أسمعى الباقى . . . .

. . . وثقت خطواتى ورفعت صوتى

- فيه ميعاد مع عاطف بيه .

ناوبنى جندى البوابة إلى آخر بالداخل . . . المبنى كان أحدث مما كان عليه وقت اقتيادى للحبس، اليوم ذراعاى كانتا طليقتين ، ولكن هناك امرأة مقيدة تهمس بداخلى ، ليس لدى ما أفقده ، أشعر بالذنب فأقول ، فليسامحنى الرفاق أو لا يفعلون ، فقد بادر الجميع بالتخلى التام ، وأنا محبوسة بغير زوار .

- وقتها كانت أحوالى سيئة ، كنت خايفة أطلع من البيت ، الكل كان بيكرهنى.

قاطعت سهام وأنا أدافع بشراسة وهى ترفع عينيها إلىّ بتفهم مجازى وتابعت تلاوتها .

كنت فى مركب مثقوب ، تركه الأصدقاء بدعة ، وتركونى مصفدة إلى مجذافين خشنين ، أقاوم وحدى تيارات غاشمة ، انسحبت من نفسى قانعة بقناعة ، أنه لم يعد هناك خيار ، وأننى مجبرة ، كعذراء مجدلية غرر بها ، حتى صرت جسدا خاويا ، يتناوب العزاءات لجراح الشهادة ، أوجه شجنى إلى الباب الموصد على المقدم عاطف ، حتى فتح الحارس الباب ودخلت بسرعة ، سحب نفسه من المقعد المحاصر بالمكتب الكبير وهو يمد يده كانت ممتلئة قليلا ، وليست نفس اليد التى صفعت خدى وارتسمت عليه ، حين دافعت عن علاقتى بأمين ، وقلت أننى امرأة حرة ، ذكرته بتلك الحادثة ، فابتسم وقال . . .

- آه . وقتها كانت الأمور مختلفة وأنت لم تتعاونى ، لم يكن هناك لزوم للعناد ، كل شىء كان سينتهى لو تعاونت ، أخبرتك بهدوء ، بعض الأسماء

والتفاصيل التى أعرفها جيدا ، حتى أننى كنت أحاول إنعاش ذاكرتك بما لدى من أدلة ، كان المطلوب منك مجرد إجراء لإتمام التقارير ، أسماء ، أماكن ، تواريخ ، إصدارات ، نشرات ، كان عليك أن تقولى لتنهى معاناتك وترجعى لبيتك ، آه . كم كان طيبا ، شقيا وهو يلعقنى بعينيه كأننى قطعة سكر لا يجرؤ على تذوقها ، وأنا كنت أبدو قوية وجميلة ومرحة ، فكانت سعادته بى غامرة..

– ياه.. وعشان كده دايما بيسألنى عنك أنتى وأمين ، وأنا فاكراه بيستجوبنى ، دا أنتى شقلبتى كيانه بقى ؟

– صحيح يا سوزى ؟ كان بيسأل عنى ؟ يا حبيبى طب أسمعى دى .

. . . وجدتنى بلا خوف ، رغم حصارى بغير طعام أو نوم طوال ليل ونصف نهار ، أنسى كل ما عانيته وأنا أستعيد التفاصيل الموجعة لسجنى ، وأنا أختزل الرسائل ، أحفرها على جدار الزنزانة الأسمنتية مثل

بدمى أروى بذور الحرية

وكلمات أخرى لم يعد لها ما يعادل وهجه وهو يقول

– هاه ، تحبى تبدأى . . . أو أبدأ أنا ؟

– آه يا سوزى ، كان خالك ابن ناس بجد ، هادى ودود ، لا يرغب فى أى شىء ، لم يكن هو من كان ، كان كمن يعرف كل شىء وهو ينقر بقلمه على الورق ، ويقلب الملفات بغير اهتمام . . .

انداحت طبيعتى ، قلت ما لم يثر صمته إلا بإيماءات باسمة ، وكأنه طبيبى النفسى ، حتى دخل زميل له بشكل مفاجئ ، قاطعا النعومة التى أحاطت لقائى به ، سلم عليه وقبله وغادر ، ودون أن يلتفت إلىّ ، عاد كما كان منذ أعوام بعيدة دق المكتب بعنف قبضته وهو يتحدث بالهاتف وصوته يرن فوق رأسى والحوائط .

– ازاى ألاقى واحد كده فوق راسى ؟ حضر نفسك يا روح أمك . حابيتك الليلة فى الحبس .

تداخل الأبيض فى الأسود والأزرق فى اللوحات المعلقة بالحائط ، تمددت الأقلام مرتعدة على المكتب ، خفت ، كدت أنوب كقطعة سكر مدفوسة بضرس فاسد ، وغادرته وأنا استنطقه وعدا بمساعدتى فى الحصول على عمل وكأننى أسرق .

... أدى اللى حصل مع خالك يومها ، ماقلتش لحد غيرك، أمين اللى قام بالواجب وفضحنى وقال للكل ، ولما ألومه وأشاور على كل فضايحه ، يقول لى أنا راجل أعمل اللى عاوزه ، كدب وتلفيق ، قص ولزق فى كل حاجة ، يعمل كل فضيحة ونصيحة والآخر يقولوا علينا نسوان وناقصات ، أنا خلاص بقيت فيمينست.

كنت سمعت من أمين بتلك الواقعة، ولكن شيئا بداخلى كان يتعاطف مع سهام ، لأننى كنت أشعر بأزمتها وضياعها وكنت أبرر لجوؤها لخالى ، بأحقيتها فى التعيين كمعيدة بالجامعة ، لأنها كانت الأولى على دفعة تم تعيين بعضها بجيد جدا ، وكنت أدرك أنها تساعد أمين فى إنجاز الدكتوراه، بعد حصوله المريب على رسالة الماجستير ، التى لم يكن يعرف كيف يعرضها ويتركها هى تتولى ذلك عنه بانفعال وعشق للموضوع ، وكان يمارس ضدها كبحا منظما ، جعلها تخضع له ، وتضيع سنوات نادرة وجميلة ، من صباحات ومساءات ، وعلاقات غير مفهومة ، حتى أننا كنا نتصور أنهما يسهلان لبعضهما الأمور .

لملمت سهام أشياءها وغادرت على وعد بأن تزورنى فى السويس بعد أن تحصل على الطلاق من أمين ، لنبدأ معا من جديد .

– أنتى عارفة دا جيبقى موسم الطلاق ، أنت وعصام ، سجر ويوسف ، وأنا وأمين . . . ان شاء الله .

أمين أصل الشر ، وخالى ينظم الكون على طريقة الأمن للكبار ، عصام زعيم العصابة ، ونحن صبيانهم ، نتمم لوحة شيطانية بألوان ملائكية ، فى سيرورة الرعب الدائم ، الشر . . . الشر الذى يرتع فى كوامننا ، يكبح محاولات البدء من جديد .

★★★

أنا فى معركة مع نفسى علىّ أن أنجح فى قراراتها ، التى سأصوغها ، لأعين العالم وأحدد طبيعة العدو ، رغم صعوبة المحاولة ، الأصل فى اللعبة أن تحوم جول الضحية ، كلام من أجاثا كريستى ، لكنه جائز فى هذا الزمن الوعر ، ونحن وإن كنا جميعا نبدو ضحايا، إلا أننا رفعنا رايات العنف والتدمير وإجباط طاقاتنا ونحن نضع العالم بين أيدى الأوغاد المترعين بالثقة، ونحمل أفراحهم فوق رفاتنا المجهولة وهم يصعدون طريقهم المأساوى، ويجلسون فوق الأهلة المضيئة يصرحون بنبراتهم فائقة الروعة ، معلنين انتهاء كل شىء ، والبدء فى مرحلة التسويات السلمية ، لابد أن نصرخ الآن فيهم لا تهرولوا بأقلامكم إلى التوقيعات ، على صكوك البيع والتنازلات ، قبل أن تحصلوا منا على مذكرة تفصيلية بخياناتكم التاريخية فى شراء تقاوى سرطانات الأطفال والعظماء ، الذين يقابلون المذبحة بابتسامة سمراء مشلولة ، لابد أن يجدوا من ينغص طزاجة وجنات أبنائهم المعدين للولاية ، بعد أن يفلتوا من عقوبة جرائم الدهس على أرصفة المشاة ، وهم يباركون القرابين الحية كآلهة سفيهة تتخفى فى عقول التعبياء المحقونين بالأفيون ، وكيميا الهلوسة .

بين يدىّ لفافة أبله عنايات أفكر فى فضها ونثرها فى النهر بعد حرقها ، لكننى أخشى ، لو انتظرت سهام قليلا لكنا فتشناها معا ، أدسها بحقيبتى بخوف ، وأنا أفكر فيما وضعه دافنشى فى طبق المسيح لعشائه الأخير ؟

وهل كنت أنا عشاء طيبا لأندريا فى ليلة ذبحه كخنزير أهوج ؟ ، وهل كان عاديا أن أنصب عصام بمقعد أندريا ؟ ليأت على ما لم يلمسه فى طبقه؟ وأتركه يحطمنى مدعيا الاحتفال ، والرفاق يتفرجون باستمتاع من يلتهم طعاما ملكيا متبلاً بالمؤامرة والخلطة السرية للتيك أواى ، يقوم أندريا فى ابتسامتى لطيفه ، وأنا أراهم يلعقون النبيذ الزائد عن حاجتهم ، من سطح طاولة خشبية مستديرة وهم يحزنون على كل نقطة تجف .

ماذا سأفعل بنفسى ؟ وكيف أميز ما هو حقيقى ؟ تلك كانت الأسئلة التى تراودنى صباح مساء ، فأؤجل الرحيل ساعات وأيام ، وأنا أختلق دماغا واعيا ، أجمع كل التفاصيل، وأنظمها ، لأصنع فهما موضوعيا بالآخر بأى آخر ، والأهم تحديد موقعى الفعلى لدى هذا الآخر ، حتى لا أسقط فى تصورات خيالية .

يقظة مباغتة تشد عزيمتى وأقرر الرد على الهاتف حين يرن وأفتح الباب لأول طارق، والذى يكون خالى يخبرنى بموت أمى.

★★★

فيمينست

أربعون فى واحدة

من أى نهاية ابدأ ، مسألة رهنت نفسى لها ، قبل أن أقرر الخروج من عزلة اختيارية بمحيطى الفقير .

إلى أن بدأت أرتب لاستعادة علاقتى بالعالم والبحث عن أصدقاء حقيقيين ، فكانت سهام أول من عثرت عليها ، هى بحثت أولاً ، و زارتنى بشكل مفاجئ تماماً فى بيت أبى.

كنت استقليت بحياتى فى الطابق الثالث الذى لم يكن حتى مجهزاً ، نقلت مرآة أمى وماكينة الخياطة اليدوية ، فربما أحتاج إليها فى قيافة ملابسى التى أصبحت أكبر من قياسى الحالى ، ذهبت إلى عم منير الماركسى القديم ، الذى كان يعير أسعد الكتب ونزوره كلما احتجنا للفصل فى فكرة ما تثير جدلنا الطويل الذى يفضى للاختلاف المتعصب ، أصبح وجهه بلون الأنتيكات ، وجسده بدقة القطع الخشبية المصفوفة فى توتر بمخزنه الذى يمتد إلى ركن معتم ، يتصدره موقد قديم يتصاعد من براد فوقه بخار كثيف يشق العتمة ، انتويت أن أؤثث غرف الطابق الثالث بقطع من الأثاث القديم ، تلائم مرآة أمى فرنسية الطراز ،وهو مازال يبيع ما تخلف عن القصور القديمة .

– شوية دهان ، وتثبيت بالغرا ويبقى تمام زى ما كان .

قال وهو يسحبنى فوق الأرضية الأسمنتية للقبو المكسو بالتراب المتماسك، معتمداً على تصور ما اعتقدته حقيقيا ويخصنى ، بفضل إيثاره التحدث عن أصدقائه القدامى الذين تلقفوا الاشتراكية كفكرة سديدة ، ثلاثة أجيال تقاوم الظلم والفقر وتفوقا طبقيا يأكل العالم من القاع إلى القشرة .

– كنا مسيحيين ومسلمين ، فقراء وميسورين ، رجال وأمهات نتطلع الى الجماهير ونحلم لهم – بقوة – أن تكسو العدالة ملامحهم بالطاقة ، أن

نمحو شرورهم وفقرهم ، نهدئ الكراهية التى يبصقونها على الواقع طوال سيرهم . جيلكم ضيع كل حاجة ، وسختوا نضالنا ، ماحدش منكم أخدها جد ، كأنها سبوبة للغنى عشان يتمنظر ويملا فراغه ، البنت همها تطلع بجوازة ، والفقير عشان راسه تتساوى ويصفى حساباته ... وغيره زى غيره، كله بيتفك وخلاص مافيش إيمان ولا أخلاق ، دلوقت شيوعى باقت سبة بنهرب منها ونقول ماركسيين . لكن انتوا برضه غلابة ، أديكى دكتورة فى الجامعة مرتبك كام ؟ بتشترى عفش مستعمل والهم طايل عنيكى ماعلينا، شوفى ده ، كان مكتب رئيس محكمة عابدين ، هو والكاتب كانوا بيقعدوا قصاد بعض ، كان لسة فيه اشتراكية وأرواح بتقاوم ، دلوقت بنزعق فى الخلا ، واخدة بالك عريض ازاى؟ عمرك شفتى حاجة كدة تساع مستشار ابن باشوات وموظف درجة تاسعة كحيان ؟ خدى اللى تحتاجيه ياسوزى ، أنا تعبت، عاوز أتخلص من الحاجات دى كلها ، مش مهم الفلوس ، المهم اللى يقدرها ويحافظ عليها ، أنا خلاص مسافر لولادى ف كندا مابقاش ليا حاجة هنا.

أنتقى عدداً من القطع التى تبدو متناسقة ، ويهدينى عم منير إطاراً مطابقاً لمرآة أمى ، ولكنه يؤطر لوحة مبهجة للعذراء مريم ، ومقعدين من الخشب المطعم بالأبنوس عزمت على وضعهما على جانبى المرآة وبمواجهة الإطار ، ليصبح المشهد أكثر ترتيباً ، يدعونى إلى مشاركته الشاى هو وصديقه مرمم الآثار الذى انتهى به الأمر إلى تركيب قطع الأرابسك ببعضها ، منذ أعلن إثر عودته من ترميم آثار متاحف جنوة بإيطاليا ، أن ترميم الآثار فى مصر يتم بشكل خاطئ ، وأشار عرضاً إلى السرقات الصغيرة ، دون أن يقصد إيذاء أحد وبالفعل لم يتأذ غيره ، فما كان منه إلا

الصمت الدائم وجداله الطويل مع نفسه ، أفضى به إلى معادلة مريجة ، يعلنها بصوت مسموع وهو يرجف . . .

– من يشترى الآثار بمبالغ طائلة ، ويتحمل المغامرة سيحافظ عليها . واهى طريقة لحفظ التراث الإنسانى ، بعيد عن الجهل بقيمته، تعرفى هم ابتدعوا القطر ازاى ؟ شوارعهم نضيفة أد ايه ؟ وناسهم بيمشوا بسرعة ليه، لأنهم احترموا التراث وكملوا بعده ، يا سوزى هانم الناس اللى بتفهم التاريخ ، بتتجنب أخطاءه ، اللى بيعتاش عليه ، عمره ما يشبع ولايتستر ، لكن المشكلة لما كل تراثنا يتسرق وينفنت ؟ حيفضل لنا إيه؟

وضع كوب الشاى ممتلئاً لثلثه على المنضدة الصغيرة المستديرة ونهض ، أنهمك فى لصق وحدة أرابسك فى بارافان خشبى ،بدا لى من خلال الفراغات جدير بالتأمل ، وهو يردد كلما تطابقت أطراف الأرابسك ببعضها . . .

متشكر أوى . . . متشكر أوى .

هذا عاشقٌ ممتنٌ لفكرة الالتئام ، هزيل فى سترته الصوفية المهدلة ، و بالكاد يحتفظ بعظامه متماسكة ، تحت الألوان المصبوغة بقذارة أساور قميصه ، التى تطل من كم سترته كأسنان ملوثة بنفايات الزحام .

حصلت كذلك على دولاب ملابس رائع لحد كبير بسبب مجموعة الأدراج الصغيرة السرية ، التى أسقطت فى أحدها لفافة أبله عنايات التى بلون الفحم ، لم أعد أشعر بالإثارة كما كنت خيالها فى السابق ، فى تلك الأوقات المتسربة مع دخان التبغ المخلوط بالمنوعات التى كانت متاحة دائماً ، هل فقدت القدرة على الاندهاش والخوف والحب ؟ مذاق جديد كان يفقدنى الرغبة فى أى .. أى شىء ، وكأننى ورقة قديمة صفراء صعدت من موت بعيد، حملت غنائمى على الكارو ، أعطيت العربجى العنوان واستبقنى ،

سلمت على عم منير، شكرته وحملته السلام لصديقه ، مضيت أشعر بأسى ، أفقدنى حماسى تجاه فكرة البيت الجديد المستقل الذى يخصنى وحدى ، وأنا أتساءل ، لماذا لا يظهر الشرفاء إلا ليلوحوا بمصائرنا المخيفة، وبغير قصد منهم أو رغبة منا ، كل البؤساء الذين عرفتهم كانوا يشكلون لوحة من الأرابيسك ينخر فى عضمها السوس . كان السوس بالفعل ينهش قطع الأثاث التى ابتعتها من عم منير ، استدعيته ، فظل يدور هائجاً حول نثار الخشب المحوط لحدود كل قطعة

سوس ؟ سوس فى خشبى ؟ عمرها ماحصلت.

ثم استقام ، نظر إلى وقال بهدوء

– اتعلمت على إيد طلاينة فى اسكندرية ، عرفونى كل شئ ، لكن السوس ، ماحدش اتوقعه ، على أى حال مش مهم.. إبقى تعالى خدى غيرهم.

★★★

تركنى حائرة ، أحاول أبتداع طرق أقضى بها على الغبار الخشبى الذى أجده كل يوم ، حتى أدركت انه بطئ فى التهام الخشب ، للحد الذى يجعلنى أتعايش معه لفترة طويلة ، والحقيقة أن هذا السوس جعلنى أتحمس وكأننى فى سباق مع قوة خفية ، وعلى أن أسرع ، بدلاً من الانتظار .

ألم يكن ملائماً لذلك أننى أفضل شرب الكأس لآخر قطرة ؟ وأننى أدرك أن السماء تستعيد صفاءها بعد غبار القصف ، ذلك ما كنت أفكر فيه وأنا أرقد على السرير الكبير المعدنى الذى استبدلته بسرير عم منير موديل مارى أنطوانيت ، أراقب الناموس الذى لم أفهم كيف عرف أننى صففت عدداً من أصص الورد البلاستيكية فى الممر الطويل الممتد من باب الشقة إلى غرفتى،

كانت مراقبتي له من الناموسية الخضراء التي حاكها أبي بإبرة طويلة بدت كحربة ضئيلة ، خلتها تتعملق بين أصابعه وهي تخترق النسيج المفرغ بافراط ، يبدو الناموس الآن كقاذفات تلقى بقنابل من ظلال سوداء ، حين تحاصر إحداها الثقب المتكرر في وحدات عباد الشمس الناتئ بصفرة شديدة .

يا قلبي أين المفر ؟ هنا أيام طويلة ..... وهنا أيام قصيرة ، بينها العمر يمضى.

في تلك اللحظة كانت سهام تدق الباب فقمت أرفع طرف الناموسية ، وأفعص بها ياعوضة جائعة ، لتفترش البقع الداكنة خيمتي لفترة طويلة ، ويتحرك الجميع على سقفها الأخضر المورد بعباد الشمس، والمبقع بجثث الناموس المجفف ، حتى أفك أطرافها ، أغسلها وأجففها قبل أن تجثم على روحي وتخنقني .

أشعر بأن الله حرمني حضن الأم وجعلني أفتقد الدفء بصدري ، لم يعوضني حضن أبي ، فالرجال لا يحتضنون إلا في الأحزان الموثقة بسجلات الروح ، وقت الحصار كنا نبحث في معونات الصليب الأحمر عما يلزمنا ويخصنا ، فنقبل بتلك الرموز المسرفة في الترف والاستغناء ، فحتى الثوب الذي صادفته في اللفافة الورقية التي بلون رمل الغروب ، كان فستاناً كبيرا، ومطرزا بأزهار بدت كما لو نام عليها عنب أحمر فاسدً ، إحتفظت بالثوب وأنا أظن أنه سيأتي يوم أرتديه فيظهر محيط صدري وكتفي ، وأضع ساقاً فوق ساق ليصبح للشق الصغير في الثوب وظيفة ،حين يكشف عن ركبتي ، أرتديه وأخلعه ، لأعاود ارتداءه والجلوس واضعة ساقاً فوق ساق ، وأخلعه بسرعة، لأدسه في لفافة بعمق دولابي .

الآن ألامس عروش الزرع المصطف على جانبى الطرقة المؤدية من حجرتى إلى المدخل الذى يعتلى السلم مباشرة ، على بسطة خشبية متينة ، وقفت سهام شاهقة بارتياح ....

- إفتكرتك مش هنا وماكنتش عارفة هاروح فين !

- يخرب عقلك .... إنتى جيتى إزاى.

كانت تحاول إلقاء حقيبتها وأنا أعانقها بوحشة وافتقاد حقيقيين لرؤية بشر يربطوننى بحياة أخرى ، خارج هذا البيت الذى يعرف عنى كل شئ .

شعرت وللمرة الأولى بأننى بحاجة إلى شهيد على فشلى، أفضيت لها بأسبابى وهى تسمع بفهم، تحدثنا عن كل ما هو حول تجربتينا فى الزواج، ولم نتطرق إليها ، ربما لأن ما آلتا إليه ، لم يكن محض فشل فى علاقة ، ولكنه كان عمدة كل الخسارات التى جلسنا حول حدودها نتعجب ونفقد إيماننا بكل ما تعلمناه ، ذكرنا كل من كان بكل ما كان وأسبغنا التعليقات الضاحكة على كل شخص بما ظنناه ملائما ، أكلنا بإفراط وشربنا المزيد من النسكافيه الملطف باللبن المكثف والمعلب ، كان أسعد قد أرسل منه عبوة كبيرة على سبيل التحية مع بعض التفاح الأحمر المدموغ.

- عرفينى على أسعد ده يابت ياسوزى ، دا باينه كراكتر قطيع.

- عايزة كراكتر؟ تعالى اوريكى، بس بلاش أسعد، دا ممكن يفرمطنا احنا لاتنين.

لزم علىّ أن أكافئ صديقتى التى ردتنى للحياة بمرحها ، فاصطحبتها فى جولة طويلة سيراً على الأقدام بالشارع الطويل الذى يشطر المدينة ، حتى لسان القنال ، وعدنا من طريق خلفى ، على الكورنيش القديم ، أطلعتها على طريقى السرى الذى اعتدت السير فيه ، جامع الغريب ، قهوة

أسعد.. كنيسة الأقباط الأرثوذكس، لبيت أندريا حتى قررت فى لحظة أن اعرفها بأخت أندريا ، وكان هذا تتويجا لحفاوتى بسهام ، لم تخف ذهولها وهى تتحسس القطع الصغيرة التى تزين البيت ، وكذلك انبهارها بريبيكا وبكل ما تفعله ، حتى جلوسها وهى تبقى نصف فخذيها مستقيمين مع الحفاظ على تحرك الهواء فقط بين الركبتين ، تنهض ريبيكا وتفتح البوفيه ، أميل على سهام هامسة . . .

– كنتى هتعملى إيه لو شفتى أندريا ؟

تبتلع الرد حين تضع ريبيكا سرفيساً من الفطائر الصغيرة بجوار فناجين الشاى على المنضدة الصغيرة الواطئة ، وتجلس لتتحدث وما أروع أن أجد من يشهد على كل الحكايات ، فالآن يعود كل شئ حقيقى

– مسيو عادل ، فاكراه ؟ .... بعت جواب بيقول فيه إبعدى عن طريقى، وإلا مش حيحصل لك كويس ! وكأن هناك كويس حصل لى، ف أى وقت حبيته إتجوزته ، سرقنى خطف بنتى وطلقنى ، إتجوزت أسعد قام جننى وحبسنى وصادر كل اللى اتبقى من كل هذا لم يعننى سوى ابنتى ، أعيش فقط لأسترجعها ، لجأت للشرطة والقنصلية وأخيراً البلطجية ، بطلب واحد بنتى - لا يهمنى كيف ، رحت القنصل جنابك تستطيع مساعدتى ، أبحث عنه وتستجده ، أخطفها كما خطفها ، سأفعل أى شئ مقابل استعادتها ، إبتسم وعطانى فلوس ووصلنى لباب الشارع بنفسه ، كان فاكرنى مجنونة ، أنا مجنونة يا سوزى ؟ اسألى صديقتك . . هى اسمها إيه؟

– سهام .... اسمى سهام .

– هل أبدو لك كالمجانين ؟ أشعر أننى قريبة منها ، أراها تبحث عنى فى صور الأمهات الآمنات بأحضان أطفالهن ، لا أستطيع الرحيل عن هنا

بدونها ، ولم يعد لدى من ألجأ إليه ، فعلت الكثير ، استغثت بالجميع لكنها أيام التخلى التام .

- رفعتها واحتضنتها ، ذلك الحضن الذى نسيت روعته ، وكأن قروناً طويلة مضت قبل أن يحتضنها إنسان ، عانقتنى وتعلقت بى ، كان جسدها يلتئم بروحها وهى بين ذراعىّ تبكى بهدوء طفل عائد من ضياع وتوهان فى الميادين المتشابهة. . .

- بنتى يا سوزى ...... انتى بتعرفى ناس كتيرة ...... قولى لهم بنتى محتاجة حضنى ، تعبت من حضن الخيال ، نفسى المسها ، أعلمها بيانو ، أقرا لها شعر ، أديها لغات تواجه بيها العالم وتختار منها ، ساعدينى يا سوزى، أسعد دايماً كان يقول إنك مهمة وليكى معارف كبيرة ، البنت عمرها ما حبته، كان بيخوفها، مش ممكن تكون راحت معاه بإرادتها ، خطفها وحرمنى منها.

مريم الآن لابد تعدت الثلاثين عاماً، طفلة ريبيكا ، التى رأيتها آخر مرة منذ أكثر من عشرين عاما ، تقفز درجات سلم الباخرة أمام اندريا المثبت إلى مقعد خشبى فى ضماداته ، وأمه تخفى وجهها بغطاء أسود من الدانتيل، بينما العائلة تستهل رحلتها إلى شمال المتوسط المرقط بالجزر الصغيرة ، مخلفين ريبيكا وحيدة ، تثير الربكة أينما حلت ، وتفقد القدرة على الاحتفاظ، حتى بقدرتها على الإنجاب مرة ثانية.

- لا بنت ولا دياولو.

كما قال لها الطبيب الذى قلدته بجدية مثيرة للضحك وهى تمدد سيجارتها فى منفضة رخامية ملأى بالماء ، فهى لم تكن تقدر على سحق حتى نصف سيجارة ، مثلى تماما.

– ولا حتى قطة .... حمضك بيقتل الأجنة ..... هي دي الحقيقة اللي اقدر اساعدك بيها ، ما تتوقعيش تحبلي تاني ،تشربوا عصير برتقان احمر؟ عندي منه كتير، فاكرة أندرية كان بيحبه أد إيه؟

– إلا فاكرة

ردت سهام وهي تنظر إليّ بريبة ، كنا ندخن ونشرب ونضحك حتى نعمى ،ونغوص في حيواتنا المضببة بدخان سجائرنا المتشابك ، فاشلات يمارسن نضالات أخيرة ضد واقعهن المعلق بحائط النهايات ، زواج .... طظ ، عمل.. طظ ، عائلة.. طظ ،كنا نجلس متحلقات ، كشجرات ثلاث عجفاوات ، عيوننا فزعة ، منكسرة و خاوية ، ثلاثتنا مطلقات تجاوزن الأربعين ، سهام تعوض إبعادها بكتابة رسائل الماجستير وأحياناً الدكتوراه . . .

– بمقابل ضعيف ثلاثمائة جنيه للماجستير وأربعمائة جنيه للPh.D.، ولا يتم حتى دعوتي لحضور المناقشة ، أعرف النتيجة مسبقا، ولا أستريح قبل أن أسمع أنها امتياز لا أقل ولا أكثر، أحتفظ بمرتبة الشرف والتوصية بالطبع ، لنفسي حين أنجز رسالة الماجستير والتي تأخرت كثيراً وخضعت لكل التجديدات الممكنة ، بحث علمي ماحصلش.

ريبيكا لم تعد تجرؤ على دخول الفندق الذي يحتله أسعد .... ويدير أعمالا مروعة حسب قولها. . .

– إنه يذبح الناس ويعبئهم في أجولة، يشرب دمائهم كلما شعر بالعطش، كان نفسي اعمله "فور سيزنس"، أنقي زباينه بالمسطرة، واعلمهم ازاي يبقوا كلاس، اوه مون دييه، جي شيرشيه لا فيي.

ثلاث نساء في غيبوبة نعول على ما فقدناه ونراجع دفاترا قديمة ، فقط لندون ما يدين به لنا الآخرون ، من أعوام وعطاءات مجانية ، وندعي أن لدينا ما يستحق الاستمرار والتوازن. أنا شبه موقوفة عن أي عمل غير

افتقادى لأندريا ، لأن أفهم ما لم أعرفه طيلة حياتى ، تماما كما عنى البحث لسهام ، أن تثبت تفوقها لنفسها لا للآخرين ، والفندق لريبيكا ، رمز لمجد عائلة عصفته من الجذور ، تقلبات همجية وعرقية ، كصغيرات لا يقدرن بثمن كنا ونحن نجلس نتبادل خبراتنا التعسة بالبشر، ولكن بجنون يليق بآلهه متفرغة للعناية بأطفال لم ننجبهم.. ريبيكا تطرد الصمت بالذكريات ...

ـ كنت أثق بأسعد، ظننته يأخذ بيدى، ويعيد إلىّ الصواب ، وجدتنى أعيش مع شخص غريب تحت سقف واحد ، يحدق في موج الترهل الهادئ ببدنى ويحرك آلام اليأس فى أعصابى، كان منظماً إلى حد منفر ، لا ينطق إلا لضرورة، علاقاته مريبة ، زوار بسترات صوفية ثمينة وعطور قوية تتردد فى البيت كدوامات خانقة تغيبنى فى الخوف ، لم أكن أعرف عن أى صلة بالكبار، أو بأى أحد ، كنت أظنه ضد الجميع، وحيد مثلى ، أما أن يتبادل النكات وتربيت أكتاف الجميع فذلك ضد كل ما تصورته عليه، كرجل غلام ، لا يقدر على الإيذاء، عرفت رجالة كتار، لكن هوّ الوحيد اللى علمنى العشق، بشرط يكون فى الضلمة، كان يطفى النور، ويغمض عينيه، ابقى ف لحظة أروع وأجمل وأذكى محظية على الأرض. ولما يغرقنا النور، يرجع يحسسنى انى امه – دا ف أحسن الأحوال، أو واحدة مالهاش سعر، عيل من صبيانه اللى بيسرحهم بالسلاح والعملة والمخدرات.

متى حدث ذلك؟ وأين كنت أنا؟ ريبيكا تتحدث عن شخص آخر ، لم تجبنى ريبيكا ، تجاهلت سؤالى وأضافت ثلاثة زجاجات ستيلا للمائدة ، تناولناها بلا أكواب ، وتابعنا الجلسة النسوية.

ـ تحكى عن اجتماعاته التى تتسم بالصرامة والجد ، مع أولئك الناس الذين لا يتشابهون فى غير حاجتهم لمساعدته ، وهو يمنحهم الوعود والوعيد بأن الخيوط الحريرية التى تربطهم بالقوة، معقودة بيديه ، وأنه قادر على

تقويتها أو قطعها ، حسب صدقهم فى إظهار الولاء من عدمه ، وتابعت: بدأ ينتقم من جوز اخته ويعتبره سبب كل المصايب اللى فى الدنيا، لما اختلفوا لاتنين ، ظهرت جرايم وريحة جثث فاحت، أعمل إيه أنا؟ لما اسمع بودانى ان جوز اخته ساعده يتخلص من أخويا؟ الخوف حقيقة يابنات ، يمكن زى الموت، لما بييجى مافيش حاجة بترجع زى ماكانت، مابقاش غير الغضب والهرب للجنان من الحقايق الكاملة.

– أوامرك _تلك كانت كلمته التى تثير ذعرها ، حين يرد عليها رد خادم يهيمن على الوصفات السرية لمطبخ كبير، كان عليها أولاً التخلص من شعورها بالحاجة إليه ، قبل أن تحدد ما تريد وتصبح قادرة على اتخاذ القرار، كيف اطلع هو على أفكارها ؟ ، لم تعلم ، ولكنه سرب إليها شعوراً رهيباً ، بينما يؤكد انه لن يكون عقبة فى طريقها ويبدى النصح والاعتناء ، وفى كل مرة تصارحه برغبتها فى بيع الفندق والرحيل ، كان يرد بأن الوقت لم يحن بعد .

– انتى تعبانة ، ماينفعش تاخدى قرار زى ده .... إستنى شوية .

– لكن انا حاسة انى كويسة ، وكويسة جداً كمان .

– حاسة .... وكويسة ؟ ولا كويسة جداً ؟ انتى حتى مش عارفة تتكلمى .

– لازم امشى ...... يا أسعد .

– يا زيبيكا يا حبيبتى هاتروحى فين ؟ انتى مكانك هنا ، معايا ..... خدى علاجك ونامى شوية .

كنت ابتلع الأقراص لأهرب من مطاردته ، كل المحكومين يعرفون أسباب حبسهم، أما أنا فلم أحتمل انصهارى المحموم فى الفولاذ الجامد لسجن أسعد البارد والمشدود بذلوقة مرعبة ، الرعب الذى ظل يلازم غفواتى المهتاجة بدخول أسعد من إنشغالاته المافياوية ، والمهدئات تدمج الرعب فى

الوحشة والحاجة ، إلى ونس من دم ولحم ، يعود حين يوغل الليل ، محتضناً كيساً بلاستيكياً أسود ؛ يحوى مالا يمكن تخيله ليصعد سرطان الخوف وينزل هاتكاً كل ما يربطنى بأسعد ، أبداً لم يكن حباً ما ربطنى به ، كنت أحتاجه،حين رأيته يحشو مسدسه بالرصاص ، كسرت صمتى وصرخت ، حاصرنى، كمم فمى وأنفاسى ، حتى غبت عن الوعى، وحين استيقظت، لم أجده ، ولم أجد أياً من أغراضه، همت بالبيت ، بربى كنت أطارد الفراغ ، القوى غير متكافئة فما جدوى العقل الآن ، كل ما أريده هو ابنتى والطلاق و العودة إلى الديار، هل تساعدينى ؟ وأنتى يا ما اسمك؟

– اسمى سهام يامدام ، وستحصلين على كل ما نملك من المساندة والدعم.

تكومت ريبيكا فى المقعد يرجها موج النشيج ، ودعناها ورحلنا مجمدتين بالصمت ، حتى قالت سهام بأسى..

– مفيش حاجة مفهومة أد الجنان ، ليه دايما لازم نحكى من البداية؟ المفروض العكس، نبدأ بالنهاية، نرجع خطوة خطوة، على مانوصل للأول تكون كل العقد اتحلت، مش كدة والا إيه ياستنا العاقلة؟

فشهقنا بضحكات متتابعة، لم يوقفها مظهرنا المتحفظ أو النظرات المحتقرة من عيون الغرباء الذين احتلوا المدينة وأسدلوا عليها الحجب.

★★★

الكلمة الآن لها أكثر من معنى ، والوعد قابل للنسيان ، الخسارة لا تهم والحدوتة تظل تتردد مثيرة الغضب على الوعى الممزق بالاستسلام لهذا الصوت الذى يتردد مذكراً بأننى لست وحدى المخطئة دائماً وأن التجربة الفاشلة يعاد تكرارها على شاشة الفراغ التى نقرر عليها أن نحظى ببعض

الراحة ، من الركض على الطرقات الإسفنجية ، نلصق ابتسامة الرضا ، ونحن نزاول السمسرة فى تخليص مصالح الآخرين ، أهو قدر مخصص للنساء يصبغ سردهن بهذا الشجن كلما تطرقن للذكريات؟ هل صحيح أننا متشابهات مهما اختلفت عقائدنا؟ هل هذا صوتى أم هو شجن سهام تحكى هى الأخرى عن نفسها. . .

منذ وفاة الأب والأسرة تمرسها على أن تكون مستخدمة للمهام الصغيرة التى يعف عنها أبناء العمومة بسبب الحر أو بسبب الانشغال بالمذاكرة. . .

– ويقع الدور علىَ وحدى لأحترق بشمس الظهيرة وأهمل انشغالاتى الأساسية بذاتى ، لكن فى ذلك الاستخدام القديم لأعمامى كنت أتكئ على رغبة قوية وحميمية فى الخروج من كل ذلك ، الكل يتعاملون معى على أننى محض يتيمة لا أب لها يحميها بوجوده وبكونه كبير العائلة الذى يرجع إليه فى كل شىء (حتى نسبة الشغت فى اللحم وهم يكيلونه على كفة الميزان غائرة العمق) ليعوض استبدال الورق المقوى بالأكياس البلاستيك ، كان لذلك الغش قوانينه المعلنة والمتداولة بين طائفة كاملة من الجزارين الذين يمتلكون سطوة "عدلى كاسب" فى فيلم السفيرة عزيزة ، تقدرى تصدقينى يا سوزى لو قلت لك أن الجزار له هيبة تثير الجبن فى من يشترى ، سواءً كان فقيراً أو ميسوراً ؟ ، وقتها كان جدى قد عاد لأول مرة من الحج ، وللحاج فى عائلة الجزارين ، مقعدً آخر يتنازل به الأب عن موقعه للابن الأكبر ، والأكثر فهماً لقوانين الجزارة وحكمة تطبيقها ، هذا العرش كان معينا لأبى الذى اجتاز الاختبارات بامتياز فاق قدراته ، أنثى جميلة وفاتنة تشترى اللحم ، فكيف سيسلك معها ؟ ذلك هو الامتحان ، وعلى قلب أبى أن يحتمله

وهو يدق بعنف ضد الرغبة فى الإخلاص للجمال أو للفقر أو حتى حاجة قطة بالغة لقطعة لحم ناعمة ، كل ذلك كبته فى قلبه ، ولم يستطع حتى البوح به لأحد غيرى ، إضافة إلى العداء الذى وجهه الأخوة إليه ، حتى أن أحدهم لكزه بقلبه وهو يمر داخلا محل الجزارة الكبير ، وادعى أنه لم يره ولم يكن يقصد ، ثارت العركة بين عمى وجدى ، بينما أبى يعصر قلبه بأصابعه كى يقشد عنه الألم بلا جدوى ،حتى كف قلبه عن المقاومة ، واستسلم للموت مغمضاً عينيه ، على ربع الذبيحة المعلق لا يزال بالخطاطيف ، ربما استراح لكونه لم يعد مطالبا بحساب نسبة الشغت والدهن فى نصف كيلو لحم تطلبه موظفة متزوجة ، تحمل أعواد الملوخية وحبات طماطم حمراء ، وخضار طازج ، وطبعاً تشترى نصف كيلو لحم كى ترضى بطن زوجها . مات أبى وتركنا فى الطابق الأخير ببيت العائلة ، حيث لا يمر علينا أحد إلا ليمنحنا لفافة من اللحم الزائد عن حاجتهم ، انزع ندف ورق الجرائد الملتصقة بالدم البارد، لاتوجد أىّ نظريات تعوض رائحة الأب.

– الدور على شقتكم فى مسح السلم المرة الجاية ، بس المرة دى خلى سهام تمسحه بدالنا ، أحسن العيال راكبين دماغهم ، مش راضيين يمسحوه ، ياللا يا سهام يا بنتى.

يزعق علىّ عمى ، فأنظر بلوم لأمى وأنا أتجاوزها إلى الحمام ، لأضع الجردل تحت الخرطوم الذى يفجر الماء كالغضب بقلبى ، أبادر قبل أن تبدى هى استعدادها الصادق فى القيام عنى بمسح سلالم الأدوار الخمسة بماء وفير ، فهى وإن لم تكن تصرح يوما، كانت تخشى على مؤخرتى من أعين شباب العائلة، يتعلمون بالمدارس والجامعات، يشتغلون بالجزارة ويخضعون للاختبارات . كان من أولوياتى أن أثبت لهؤلاء وغيرهم تفوقى ، تفوقا

يجعلهم ينظرون إلىّ بإجلال ، فكنت الأولى دائما، وسياسية نشطة تنظم الاجتماعات وتجمع الناس حول أفكار كبيرة وشوفى باقيت إيه .

★★★

« تشوف رشاقة خطوتك تعبدك

لكن إنت لو بصيت لرجليك تقع »

تضبط سهام خطواتها على الرصيف الإسفلتى الذى نتوسط عليه الطريق، كانت تعجبنى خاصة وضوء المصابيح يتجمع عند مقدمة حذائها الكاوتش الوردى فيبدو كغلاف مذهل لنقلة قدم متزنة ، قلت لها معقبة بحكمة باتت تميزنى . . .

– لابد أن تفرحى بما لديك.

– ماشى يا ستنا العاقلة ، سمعتى آخر خبر ، يهوذا طلع برئ ، مش بس كدة المخطوط اياه أعلنوا عنه على الإنترنت بيقول أن المسيح استخدم يهوذا عشان يحصل على المجد ، حتة مصيبة ، مش عارفة هايعالجوها ازاى فى القصايد والروايات وجلسات نقد الذات ، تصدقى ابن الكلب شبهنى بيهوذا ، لما رحت لخالك عشان يساعدنى ويدينى موافقة الأمن على تعيينى فى الجامعة ، مع أنى البنت الأولى عالدفعة ، والجامعة دعتنى ف حفلة أوائل الخريجين ولبست الروب وطاقية السوربون صحيح كانوا باهتين ، لكن الصور اللى خدتها لى أمى مع أعمامى وأولاد أعمامى وشوية ناس مهمين وكمان مع الدكاترة ، بتلمع لسة وبتنطق بانى الأولى عالدفعة ، ولازم اتعين لأنى استحق اتعين ، وكان لازم أدافع عن حقى ، لكن اعمل إيه حظى الهباب كدة ، كل ما اجى ادافع عن حقى وادور عليه ، أخيب واحب ، وانسى نفسى ، وكل حاجة ، ايه السبب ؟ تقدرى تدينى أى سبب للخيبة دى ؟

– ما هو لو فيه سبب ماكانتش تبقى خيبة ، كانت بقت حاجة تانية خالص .

حكت عن طبيعة عملها كمصححة للرسائل العلمية لحد أنها تنتجها من جديد ، طبعاً مع الاحتفاظ بالعنوان الرئيسى والفكرة الهبلة ، قص ولزق لا يؤدى إلى أى تطور علمى ، ولأن دورها لا ينتهى قبل أن يحصل الباحث على الامتياز ، فهى ملزمة بتخليص بعض المصالح بين الأطراف ، لمعرفتهم بأنها على صلات طيبة بالجميع حتى إنها تجوب حجرات الشات بحثاً عن أصدقاء، وقد علمتنى فى هذا اليوم كيف أتجول بها ، قبل أن ترحل مع أول ضوء للصباح ، حتى تستأنف ركضها مرتدية حذاء من الكاوتش الوردى ، وتركتنى أتساءل عن قيمة المجد حين يحصل عليه المرء من حساب الآخرين ، وهو تساؤلى الأول الذى طرحته على أحد غرف الشات مستغيثة بمن يمتلك القدرة على الرد .

كان ايدجيت قد أرسل لى عنوانه الإليكترونى فى آخر رسالة ، من رسائله المتباعدة التى اقتضبت على جمل الرسائل التقليدية ، كما درسناها فى الإعدادية ، ولم تكن محفزة للرد برسالة أكثر اقتضاباً ، أطلقت حروف بريده فى فضاء الغرفة ، ووجدته "أون لاين"، واستجاب بسرعة لدعوتى، تبادلنا التحايا الانجليزية والرطن بكلمات جوفاء ، إلى أن استعدنا شيئا من الحميمية التاريخية .

– سوزى ... إزيك .... واحشانى .

– وإنت والله ..... أخبارك !

– وإيه الأخبار ؟ .

– تحقيق مذهل عن اكتشاف مخطوط قديم ، تم تحقيقه بأجهزة دقيقة

وفيه كلام عن أن يهوذا اتفق مع المسيح على أداء الدور مقابل أن يحصل المسيح على المجد .

– سمعت ، تفتكر فعلا دا اللى حصل؟

– دا كلام قديم ياعزيزتى ، اللغز فى التوقيت، طبعاً .الوقت غير مناسب على الإطلاق لإبراز هذه المعلومة ، فهى ليست لصالحكم ، ولا حتى لصالحنا، تبرئة يهوذا ، ستكلف العالم الكثير .

– سوزى ... رحتِ فين ؟ إنتِ خرجتِ ؟ تبرئة يهوذا لن تسقط جريمتهم ، سيظلون كما هم وربما اكثر دموية ، معارك ، حروب ، اختلال للقوى ، الكل حيدفع التمن ، الخارطة ستخضع لجراحات تجميل عرقية ، رينا على الهاتف إنها مختفية بأحد فنادق باريس ، على أن أخرج لأحادثها ، أندريا فاكراه؟

– أندريا ؟ مش فاكرة غير كلامه ، و خرايط دمه بلون نبيذ أحمر .

– مش فاهم" جوود، باااااى "

★★★

أقضى الوقت فى قراءات تثير جوعى ، أشارك قطة خالى طعامى، حيث أقوم برعايتها لحين يعود من زيارة ابنتيه ، وهى ليست زيارة بالشكل المتعارف عليه ، انه ينتظر بعض ساعة أسفل بناية انتقلت إليها مطلقته ، بعد أن باعت شقة فيصل التى دفع فيها دم قلبه ، و تم الطلاق بينهما بهدوء وبغير الحاجة إلى القضاء أو خلافه مما هددت به ، فقد قرر خالى عمل توكيل لها بصرف معاشه المبكر ، واحتفظ بمكافأة التقاعد بأحد البنوك ، يصرف من عائدها على احتياجاته المحدودة إضافة إلى قيمة ما تقاضاه ببيع الأرض وبيت العائلة وأضاف قيمتهما إلى حسابه ، ليعيش كمحض عاطل على عوائد تقاعده بحجرة جدتى بالطابق السفلى ، لايخرج إلا حين

تأذن له طليقته بزيارة ابنتيه ، ليقوم بتعويضهما عن كل شيء فيشترى لهما ثياباً ، ويتنزه بهما فى أرقى الأماكن وأكثرها كلفه ، لتعودا قبل التاسعة مساءً إلى أمهما محملتين بكل ما تحتاجانه إلا أنهما حتى لا تودعانه من الشرفة التى يظل رأسه معلقاً بها إلى أن تتذكر الأم أن عليها طمأنته بأن البنات صعدتا الطابق السابع بأمان وهى تلوح بيديها بما يعنى أن مهمته انتهت وبإمكانه الرحيل.

خالى مع ابنتيه ومطلقته يؤمن بالحرية اكثر مما ينبغى ، وهو يفتعل لهن شخصية ديمقراطية إلى حد الحياد ، ويترك معى قطته كى أعتنى بها حتى يعود ، فأتركها تدخل من فتحة الباب الصغيرة التى لا تتيح لى رؤيته ، هذه الفتحة لم تحصل عليها سهام التى أرادت رؤيته قبل أن ترحل ، وكنا قد شعرنا بدخوله عند الفجر وهو يهز الجنزير الحديدى الذى يشتبك بالقفل الأسود الضخم حول ضفتى الباب ، ثم وهو يصفق باب الحجرة بقوة ، ربما لو كنت اصطحبت مواء القطة معى كان فتح لها ، لكننى نوعاً ما تكاسلت ، فقد شعرت بأن لقاء سهام بخالى وهو فى هذه الحالة ، سوف ينهى هذا الولع الذى تحدثت به عنه طيلة ما بعد الفجر وحتى تمطينا وتثاءبنا تحت ضوء يوم جديد ، كان صوتها محملاً بتلك الرخامة التى تعمق سيل حديثها عن علاقتهما التى استؤنفت بقوة بعد انفصالها عن أمين .....

– كنت ضائعة ، نفذت ثقتى بنفسى وبكل شيء ، عيون أعمامى وبنيهم تطاردنى وتطلع على فشلى ، جمعتنى الأماكن بخالك ، كان كمأساة يلقى بالتحية ويرحل عنى ، لا أميز اللذة من الألم ، فى ضحكاته التى يمضى بها مودعاً على الدوام ، يذهب بى بعيداً ، ويقلبنى فوق موجة عنيفة من الألوان المخيفة بين الأسود والأبيض ، حتى أصبحت صفحة خفيفة، أترنح هبوطاً

من سماء زرقاء إلى عشب أخضر يمور بروائح الوجود ، بداية جديدة خلتها الأخيرة التى ستمنحنى صبابة وحماية تجدر بمنحة ربانية ، لكنه كان مهموماً بنفسه أربع وعشرين ساعة فى اليوم ، حتى أن العالم لا يتحرك إلا فى فلك أناه المعبأة بالأحقاد ، كان كبطل رواية "صحراء التتار" ، الذى استنزف عمره فى الاستعداد لحرب تبدأ بإزاحته والتضحية به عند كل أزمة سياسية ، لم يتمكن من منحى أى شىء إلا الخوف الحقيقى ، تغضبه التفاصيل المهمة لحياتى ، أصبح تكرار اللوم بمرارة قهوة سوداء ، نرشفها قبل النوم ، كى تجعل من كوابيس الغضب حقيقة تطيح بكل شىء ، لقد أحببته يا سوزى ، أعلم أنه حب خاطئ لا يجوز ، عمالة لا تليق بماركسية قديمة ، والرجل حين يمتلك يفصح عن وجهه البشع ، فتخيلى كيف يكون الحال بخالك رئيس البصاصين ..... ، لكن مقاومتى تضعف أمام فكرة احتياجه إلىّ ، لا أستطيع تحمل الحياة بغير أشخاص يحتاجوننى ، بافكر أنشر إعلان .

رحلت على وعدى باحتمال رؤيتها لخالى فى المرة القادمة ، فهو حين يعود من زيارة ابنتيه يزم الباب وأذنيه عن كل الطرقات مهما بلغ إلحاحها ، كان يمر بنوبة هروب إلى كهفه ، يطلق لحيته، ويعف عن كل الأمور، التى تربطه بالحياة، ومنها بالطبع سهام، ورغبتها الشديدة فى مد يدها إليه بالنجاة ، فوقفت على بابه طويلاً تسأله أن يفتح لها بكل الأداءات الناعمة والتى كانت تليق حقيقة بمحبة مخلصة ، بينما جلست أنا على بسطة المدخل بيأس ، حتى رحلت هى فى الخامسة من صباح ذلك اليوم ، الذى بدأت فيه استعادة علاقتى بإيدجيت ، لأنتقل إلى ذلك الزمن القديم.

★ ★ ★

كان صعباً على قطة خالى أن تشاركنى طعامى ، دارت حوله وتشممته لمرات ، ثم ابتعدت وتمددت فوق شاشة الكمبيوتر تراقب إغفاءة قصيرة لى ووجهى يتوسد أزرار الكى بورد السوداء ، كان الجميع هنا فى غرفتى يتزاحمون على عريى ، وعصام يبتسم مصراً أن ينالنى ، كلهم كانوا هنا ، فقط ليشاهدوا وينعموا بأوقات ممتعة ، اندريا يقف هناك بعيداً خلف الظل المسحوب لجدتى ، إيدجيت العميق يلوح خلف الحصار ، أسعد جمعة الذى يحيا لأجل الناس ، جانب من وجهه مشوه قاتم كأنما شقته شظية عابرة ، أصدقائى رؤوسهم ملوية ، المتربعون على المقاعد الانتخابية يومئون بإشارات غامضة لقمع الباحثات عن الحرية ، حين يرشقن مطالبهن فى شق الصناديق ، والغضب غير المبرر يدفع بالبلطجية لطعن كرامة النساء على أبواب اللجان . حتى يتوارين ، وسهام من بعيد تطارد وغدا ما ، مجذوبة إليه بنظرة كاشفة عن احتقاره الدائم لها ، حتى فى نومها ، وحوار جانبى لأبى ورفاقه فى ساعات ما قبل هتك الحصار.

– مش كل الموت شهادة يا نصر ، ومش كل الشهادة موت .

ومازال لحمى يتآكل ، خيرية تنزف وهى تمد أصابعها لالتقاط عشرة قروش معدنية ، تلصقها بعينىّ ، وتقول بأداء خائر. . .

– المجد لمدن السماء ، العار على مدن الصمت.

كانت القطة تخط على جسدى بأقدامها فى شكل تصاعدى وأنا محنية باستقامة ، وأزرار " الكى بورد " أصبحت تؤلم جانب وجهى ، أسقطتها عن ظهرى ، مسحت جانب فمى وعينى ، كان نوماً مريعا ، ذلك الذى يقتحمه العالم بأكمله ، لأصبح محض مفعول به يصرخ ويستنجد بلا أحد ، بلا صوت ، تحت زحام صراعات دموية بغير دماء .

لن تشبعك الحروف السوداء يا بيضاء الشعر ولن يروقك رماد السجائر، إن أعجبك طعم لحمى ، فكليه بدلاً من خمش أظافرك الغضة فى تفاصيل امرأة حمقاء تستيقظ فى الأربعين ، لم يزرها نوم طبيعى . وعادة ما تتعرى فى حصار كرنفالات أمجاد من تراب . الكسل يؤكد أن الحياة انتهت بى ، بقوميتى وأمن روحى ، كل شىء مقصوف بدوام ، وأنا أردم تراب حفرتى على وجهى وأطرافى ، أنصب عينىّ على الشاهد الخشبى الذى لا يشبه الصليب إلا فى نصفه السفلى ، ومن القرآن آيه وحيدة مكرورة على كل المقابر " إنا لله وإنا إليه راجعون " ، لكننى أحيط بالدمار وأخضع للتشريد،أدعم انهيار المقاومة ، فى عمق الحصار، أركض فى الاتجاهات الثلاث " الأدبية- المثلث- طريق الإسماعيلية " ،كمائن قطاع الطرق تنهب قوافل الحجيج بوحشية ، وفى حالة كهذه لم يفدنى غير الهرب عبر الميناء الشرقية إلى شبح اندريا .

مهما تبهظ التكاليف ، حتى لو لجأت إلى الشيطان ، منحة دراسية للحصول على الدكتوراه من جامعة إقليم سالونيك باليونان ، هناك سأنقذ ما تبقى من حياتى والمحاصر فوق شاشة مهترئة ، تشبه معتقلا اختياريا ، بالليل والنهار ، وجوه تهيمن على كل الساعات ، جيران ، زملاء ، أصدقاء ، زوج سابق بتجليات مهينة ، وعاطفة مرتبكة تجاه الأهل ، اندريا هو تحليل شفرة ، ترد الوعى إلى ذكرى مقبورة فى قلبى المفصوم عنى . يا لها من لغة تبريرية للهروب والبحث فى أراض غريبة عن وطن.

لا ظمأ ولا جوع ، أوقفانى عن مواصلة العمل، بعض الماء الفاتر كان كافياً لسد جوعى ، فى الحصار لم يكن الجوع يكبح البدن عن البدء فى معركة جديدة ، علىّ أن انجح فى قراراتها التى من صياغتى ، لتعيين العالم

وتحديد طبيعة الخصم وتقييم قدرته على العنف والتدمير ، قبل أن يعلن صاحب النبرة فائقة الروعة عن انتهاء الحرب وبدء التسويات السلمية،ليحشد عالما جديدا من الأوغاد المنتفعين بإحباطاتنا ، يفرحون ويتقافزون فوق الجثث المصفوفه على الطريق المأساوى.

★★★

نوقشت خطة بحثى بغضب بالغ من لجنة السيمينار ورفض عنوان رسالتى . . . دراسة صورة البطل فى أدب المقاومة فى مصر واليونان- دراسة مقارنة .

وهو موضوع لم يسجل بأى من جامعات الجمهورية ، اعتبرت اللجنة أن البحث محدود القيمة، ولا يضيف جديدا فى هذا الحقل من الدراسات العلمية، ولم أحصل على درجة القبول من أى من المناقشين ، حتى أن عيناى كانتا تستغيثان بمشرفى الذى كان صامتاً ، ينتف شعيرات ذقنه بإخلاص عجيب ، ذهب بعينيه إلى الفضاء الغارق بالسكون لقاعة المناقشة الفقيرة .

أسوأ ما فى الأمر، كان عيون الأهل وقطع الأثاث وكل الفضاءات المحيطة بى ، الكل يسخر من فشلى ، والذى لكثرة تكراره، يجعلها سخرية سوداء، تثير حنقى وكراهيتى المطلقة للوجود.

– طب وايه يعنى؟ هى دى أول مرة ؟ ياستى طظ ، خيرها ف غيرها.

ذلك أخى ، أما الوغد عصام فينبرى من صفوف القاعة الخاوية ليسلم علىّ ويبتسم وهو يهز السيجارة البيضاء المسددة بجانب شفتيه ، ولسان حاله يقول . . .

– أنت فعلا ضحلة .

وأنا فعلا ضحلة وبنت كلب لأننى أحتفظ بمــرآة مثل تلك – أحطمها الآن – ، ولأننى أبحث عن الوهم وأغلق عينى على المشاهد المرعبة بكل جبن، لكى أرى فقط ما تريحنى رؤيته ، ولأننى أصر على السير بألف إعاقة مزمنة "ربطاها ف رجلى وساحبة " لمجرد أن يشهد الجميع ببراعتى من كل ما فعلته ، ولأننى لم أدرك إلا ما أردت معرفته كما قالت سهام. . .

– أما انت هبلة صحيح ، لاهو انتى لسة فاكرة إن خالك حبس عصام انتقاما لعزتك ، يابنتى اعقلى بقى وسيبك م الأفلام الرومانسية ، ياماما ده زمن الدراما – التراجيديا – الحدث يبدأ صغير ,يتصاعد ، تظهر الأطراف، ويبدأ الصراع ، والشر ينتصر، لسبب بسيط انه مفيش خير، كله شر ف شر ، طب شوفى . . . افتكرى أى راجل ، أول مايعرفك بيبقى عامل ازاى! و طبعا لا يمكن واحدة عاملة سندريللا زى جنابك تفتكر آخر مرة بينكم كانت عاملة ازاى ، لكن تأكدى انها زفت ياستنا " الطيبة " ،خرة ، وكأنه بيحكم عليكى بانك ماتستاهليش الحياة ، عموما دا مش كل حاجة ، المهم تفتحى عنيكى ، وتبقى راجل بالظبط زى ماكانوا أمهاتك بيقولوا لك ، هى دى الفكرة " كى تحكم المرأة ينبغى أن ترتدى ثوب الرجال " ، دا فصل من رسالة الماجستير بنت الكلب بتاعتى ، واللى مش عارفة حتخلص امتى ، وبرضو مش مهم الوقت ، "فأنا أصنع مجدى لما بعد موتى" ، دا بقى مطلع قصيدة ، القصة اللى جاية ، بس وحياة إبنى اللى ماخلفتوش واقعية مية فى المية حتى الأسماء

★★★

. . . البنت التى كان اسمها " لا داعى لذكر الاسم الحقيقى لأنها قد تضر بسببنا " ، فلنقل أن اسمها خيرية ، خيرية كانت تجلس على طرف سوق الخضار الورائى ، تماما خلف بائعى السمك والملوحة الذين يفترشون

الأرض خلف طسوت السمك وصفائح السردين ، خيرية كانت تحب أن تشيع الأسماك الحية من الطست إلى طاولة التنظيف ،تراقب العملية باندهاش لا يتوقف حتى لالتقاط الأنفاس.

فتح البطن ، فصل الزعانف ، كشط الصدف ، إلقاء الفضلات فى بركة من دماء سوداء، حتى تفيق خيرية على صراع القطط على حبل صغير من الأمعاء، وإذا ما أضفنا إلى هذا ، مشهد الأسماك المملحة بعد تعفينها، فان خيرية لن تجد وقتا أو وعيا تلتفت بهما إلى زبائن راغبين فى شراء الليمون ، وهى لم تكن تقصد ذلك، كل ما فى الأمر أن الفتاة اختارت موقعها بحدس بدائى تماما حين ردت على صويحباتها اللواتى تأففن من زفورة الرائحة , وقررن بيع بضاعتهن على الطرف الآخر للسوق. . .

– أصل انتو عبط ماهو أى خد حياكل سمك لازم يشترى ليمون.

– خيرية حصلت بشق الأنفس على الإعدادية ، ولم تلحق دخول مدرسة الصنائع ، لنفس الأسباب التقليدية فى إعلانات التوعية بتنظيم الأسرة ، موت الأب وزواج الأم والأخوة غير الأشقاء عددهم يفوق الأشقاء ، والبيان الصادر من رب العائلة ، وهو ليس الرب الذى يطعم على أى حال....

– ماهو شوفوا ياغنم انتوا ، أنا مش حافضل اعلف فى بهايم، إجرى كل واحد انت وهى وهو وهى ، شوف لك شغلانة تاكل منها ، المهم مافيش بغل منكوا يورينى خلقته من غير مايكون معاه فلوس.

خيرية لم تحلم أبدا بمصير سندريلا ، كانت تعرف مسبقا ، أن أقصى حلم متاح ، أن يغزها محمد الديب بائع الكرنب الذى يفترش الطوار المقابل – بغير قصد طبعا – أسفل السرة فى بطنها أو يمسح على جانب نهدها ، وهو يعينها على رفع أو إنزال مشنة الليمون.

على الطرف الآخر من العالم كان هناك سلام أكثر خطورة من الحرب بين أربعة أقطاب عظيمة ، شربوا من الحشيش ماشربوا ولما التاثوا جوعا ، خرجوا للبحث عن طعام..........

– نجيب سمك ونشويه.

– اوعوا تنسوا الليمون.

– هو مين بالظبط اللى هيروح السوق؟

– كلنا ياسعادة الباشا.

وتعالت ضحكات الباشوات تفسح لموكبهم السوق المزدحم بالباعة والمشترين، حتى توقف العظماء عند بائعة الليمون، التى كانت فى آخر ذلك النهار تشيع السمك الميت حيا فى قفة البائع المستعد للرحيل ، فبدت مثلهم من المساطيل ، خاصة حين انتقل وعيها إلى مشنتها العامرة بكل أحجام الليمون ، التقت الأعين مرات ومرات، وتمت الصفقة بين الأطراف وصاحبة أغلى مشنة ليمون........

– استحمى بالشامبو والشاور.

– خدى دا قميص المدام.

– استنى اظبط لك الميا.

– بسرعة ياروح امك ماتستحليش الحمام.

– ويعنى انا كنت حاعمل ايه، وايه الفرق بينهم وبين كوع محمد الديب ؟ ياللا ، خللينا نشوف الدنيا ، أستحمى زى يسرا ، والبس حرير عريان ، دا مستورد كمان ، ياسلام عليكى يادنيا ، لايق تمام...

– ياللا كلى ياخيرية.

– كباب عمر أهلك ماحلموا يلمسوه.

– ياباشا عيب مايصحش تكلمها كدة.

– خدى اشربى الأول عشان ماتتكسفيش.

لم تبدل خيرية من عاداتها ، إلا القليل ، لم تعد تسمح لمحمد الديب أن يرفع أو ينزل عنها المشنة ، أصبحت تتابع مشاهدها المفضلة باستمتاع لا تخفيه ، تعود بالنقود وبالمشنة فارغة أربعة أيام فى الأسبوع، وثلاثة أيام متبقية للراحة والاسترخاء على مشاهد زهق الروح اليومية.

وحين شعرت بالقرف الحقيقى من رائحة الزفورة ، اختلف العشاق على من يكون الأب ، فاعلها الذى يصحبها للطبيب ويدفع التكاليف ولما كان الأمر معقدا ، تطوعت أنا باصطحابها إلى الطبيب ، أربعة أيام متواصلة ، فى كل يوم نجهض جنين، كاد الطبيب أن يجن وهو يحاول إقناعنا بالإبقاء على الأجنة ...

– أنا حاتابعك واولدك من غير أتعاب.

– ألف جنيه تمن العمليات، غير العلاج.

– اتفضل يادكتور، أنا نازلة اشترى الطلبات.

نزلت السلالم ركضا وأنا معجبة بكونى زوجة عاقلة، حسمت صراع زوجى مع ثلاثة من أقرب الأصدقاء ، وأنقذت الفتاة ، التى لم تصبح راقصة ولم تتزوج من

طبيب ، لكنها عرفت كيف تبيع كل الليمون.

– عرفتى ليه خالك حبس عصام ، وإنها حسابات رجالة مالهاش دعوة بسوزى هانم سليلة سليم بك ؟ أنا باحكى لك عشان أغير الحالة مش عشان اديكى معلومات ، افتكرى ده كويس ، لما تحسى انك وحيدة ومحتاجة لصديقة كلمينى ، سلام .

★★★

لم أتسلم دعوى تجعل وجودى مرحباً وكذلك لم يكن وجود الأساتذة وغيرهم مرحباً به عندى ، لكننى رغم هذا الثوب الذى أرتديه لأول مرة منذ حصلت عليه من عدة عقود ، رغم هذا اللون الصارخ بالحمرة على أرضية بيضاء ، كنت أقوم بإجراء ضمن الإجراءات الروتينية للحصول على توقيعات الموافقة بأقلام تبارك خطتى فى البحث ، بحث مكلل بمنحة مشاركة مع جامعتى ، المكدسة أراشيفها بلغو يسمى رسائل علمية ، حتى لو أصبح لغوى مضافاً إليها ، فسوف أتبع منهجاً شديد الالتزام ، بالطريقة العلمية فى التفكير ، ذلك ما قررته من اللحظات الأولى لوجودى فى السهرة الوردية المرققة برماد سجائر يتصاعد بخانها ممزوجاً بغبار يثيره ركض أبى على شاطئ القنال ، وأنا لا أعرف هل يجدر بى أن أصرخ ؟ أم أجرى خلفه لأخبره بأن ساقه تتدلى من سرواله وتوشك على السقوط من فخذه كالدم النازف بقوة على الأحجار المتشظية ، أو أرجع لمقولة أن الإنسان بمقدوره الجرى بغير ساقين ، كما أن الولادة فى الماء هى اكثر الولادات رقة للأجنة وراحة للأم ، وكلها مرجعيات " نتية " ، فعلاقتى بالحاسب الآلى أصبحت وثيقة ، كذلك كانت علاقتى بإيدجيت الذى لم يكن محض مراسل إذاعىً ، فهو لم يذعنى أى خبر إلا بعد تتويجه بمقولات بوذيه ملائمة .

– صدقينى يا سوزى ، ربما أكون شخصا ضائعا بلا هوية ، أعيش فى اضطراب مقاوماً التآمرك طيلة نهارات العمل ، والاحتفال بشركائه ليلاً ، والنوم مؤجلاً التفكير بعد أيام عمل متصلة وراكضة لتصبح النشأة ذكرى سيئة تقودنى إلى ميناء السويس الذى تركت منه مصر ، وأنا افقد قوميتى ، فى مصر نشأت وعلى الضفة البعيدة للنهر جذورى ، التى شعرت بافتقادها للمرة الأولى والأخيرة حين دخلوا علىَ الدكان ملوثين الأبيض بارتدائهم له ولحاهم باستنباتها ، والأقذر تلك الأسلحة التى لحس جسدى صدأها ، وهى

تنهال على لحمى بقبيح الجهل . هل تعتقدين بأننى مازلت رغاياً كما كنت تقولين بصوتك الخجول ، لم اعد كذلك ، أنا الآن أغادر المائدة حال فشل الصفقة ، محيياً ببرود ، أدفع حسابى فقط وأغادر بعد أن أنهى انتقامى فى وقته ، ولا اشعر بأى شىء بعدها ، لا ألم ولا أسف ، محض شعور بارد ومذاق بلا جدوى الحياة . اليوم حاولت خيانة زوجتى ، ربما للمرة الألف أفشل ، هى فى الهند ، وطنى الذى لا أعرف عنه غير عناوين لكوارث دائمة ، شعرت برغبة فى استدعاء امرأة ، أى امرأة ، ربما للحديث ، أو لبث صورة أخرى عن الحياة ، كانت كارلا مديرة تخطيط البرامج بالمحطة ، دعوتها بالتليفون للقاء على عشاء فاخر مع زجاجة نبيذ معتقة ، جلسنا متواجهين ، سقطت على مقعدها ببطء أتاح لهنديها الاستعراض بشق برونزى داكن تلك المرأة ، كانت تمتلك قوة مخيفة فى الإعلان عن كل شئ ، غرقت فى حالة اختناق انتابتنى فى ابتسامتى ، الإعلامى فنان فاشل ، لا يستطيع التمييز بين الصدق و الكذب ، حتى فى ظل العولمة لا يستطيع إظهار نفسه ، إلا كشخص تافه لا عمق له ، ذهب حديث كارلا إلى أعماق بعيدة عنى ولم ينقذنى من المطاردة غير اعتذارى المهذب لها ، بأننى مضطر للمغادرة حيث أشعر بألم فى صدرى أخشى أن يتحول إلى ذبحة ، دفعت حساب كل شئ حتى اللحم المشوى بالنبيذ و الذى كانت النار تندلع فى شرائحه لثوان وتنطفئ فجأة مخلفة دخاناً أبيض مثيراً لحظات اللقاء الرومانسية الأولى و المكسوة بالحرج بين عشيقين متوقعين ، لابد أنك رأيت هذا المشهد فى فيلم ما . لم أتذوق أياً من اللحم أو أكمل كأس نبيدى ، تركت كل شئ كما هو على المائدة ، وتركت امرأة تنتظر ربما من ينقذ موعداً استعدت له كثيراً وانتهى بخيبة على مائدة مدفوعة الأجر ، سوف أغادر كى أحزم أمتعتى، قررت السفر، فأنا بحاجة شديدة لزوجتى بااااى

– جوود باااى

استعدت يأسى حين أدركت بأننى وسهام لسنا أصدقاء ، على الأقل الليلة ، فهى تمارس عملها وأنا أبحث عن مخرج لمشكلتى بالحصول على اعتماد الخطة والموافقة على المنحة ، بنهاية هذه الليلة على الأكثر ، حيث لم يعد هناك المزيد من الوقت أضيعه .

أتصنت على صخبهم وضحكاتهم ، و الموسيقى الراقصة تخلف اتفاقات سريعة. كان على تصور شىء ما عن هذا العالم قبل أن أقتحمه ، ربما كنت عرفت أين أجلس ، ومع من ؟ أو على الأقل أدرك بوابة الخروج ، إذا ما استدعانى الضجر الهروب من هذه الثرثرات التى تمتزج بالجدة و الشتائم المخففة بلغات أجنبية ، ماذا يُضمَر لى وأنا أتجول ببهجة مفتعلة ، أثريتها بضياءات مناهضة لقتامة روحى ، تحيط سهام توتراتى ، وتلقى بابتسامة مطمئنة ، فأهدأ، أزيح بالابتسام رغبتى فى الإفصاح عن الضجر بلعبة تبادل العناق و القبلات الخاطفة فى جو من الحميمية المصبوغة بحمرة الوجنات ، بعد تناولهم كأس واثنين وثلاثة من زجاجات الويسكى و الفودكا ، وتبقى زجاجة نبيذ أحمر سامقة بقوة على المنضدة الواطئة بجوار الأريكة العالية و التى تتدلى منها قدماى ولا تقويان حتى على الترنح ، وأنا أفكر بطريقة لرفع فلينة النبيذ بغير الفتاحة التى فقدت وربما أن صاحب الدار لم يتذكر يوماً شراءها ، تحركت إلى المطبخ فتحت الأدراج القديمة بصعوبة ، حتى وجدت سكيناً ومدقاً من الخشب المصقول ، بضغطهما دفعت سدادة الفلين إلى عنق الزجاجة، لتتمايل بسكُر بينما النبيذ ينسكب فى الأكواب البلاستيكية وزجاجية وحيدة للدكتور شريف حلمى الذى يؤكد على أن النبيذ يشرب بطرق ثلاثة، إما من صنبور برميل خشبى أو خرطوم ممتد من حانة عتيقة بإحدى حوارى الإسكندرية أو فى أكواب زجاجية مع روبى العمياء

التى كانت تقف بمنتصف الكورنيش ، و تصر على ارتداء النظارة السوداء التقليدية حتى نهاية اللقاء.

– ماشفتهاش أبداً من غير نضارة ؟

– بصراحة ، ماشفتهاش خالص .

– بعد إذنك يا دكتور ، أصل صديقتى سوزى ماتعرفشى أن دكتور شريف مابيحبش العمياوات ، لكن بيفضل يحلم بيهم .

– أهلا سهام ، ازيك ؟ مش تعرفينا بالآنسة ؟

– آنسة ؟ فكرك آنسة يا سوزى ،

هل يوجد مدخل أكثر لطفاً من هذا ؟حين يصرح رجلُ بأن وجهى لشابة لا يتجاوز عمرها الثامنة والعشرين ، محققاً نبؤة أبى التى تردنى دوماً من الصور القديمة إلى مرآة أمى ، أبحث عن نسب الكهولة فى وجهى .

تغادرنا ، تشق طريقها لتؤدئ لى مهمتى ، معتمدة على جلستى الطويلة ورجل يبدو مهما بالنسبة للجميع ، جلستنا تخللتها الابتسامات الحية وإيماءات التوافق ، الأقلام تخط العناوين الإلكترونية وأرقام تليفونات لحالات الاتصال الخاصة و الطارئة ، وأنا أبدو بالفعل كفتاة فى الثامنة و العشرين من العمر ، ولكن ليست نفسها التى كنتها فى ذلك الزمن وأنا أصوب هدفى تجاه عصام ، لم يكن هنا أى هدف ، هذا الرجل حقننى بشعور آمن انتشر بشكل سريع ، لنصبح أنا وهو فقط ، معاً متجاورين ، تتصدم أكتافنا صدفة، ليسرى هذا الوهج الذى يشع برغبة عتية فى احتضان مفاجئ ، ونحن نقطع معاً طريق الكباش جيئة وذهاباً ، ندائى خلف نظارتى السوداء ، يستغيث بعينيه خلف نظارته السوداء ، ونحن نقف متقابلين ربما للمرة الألف فى غدونا ورواحنا ، أنا فى فراغ بين الأسودين ، الحاجب وإطار النظارة ، أتلقى دعوة على استعجال ، ولا يمكنني التأخر عن ثورة جامحة ،

كالطائر الصغير الذى يجرب التحليق بعيداً وعالياً عن أعشاب عشه ، مشاعر أسطورية باغتتنى وخرجت بى مسحورة عن صمتى الدائم ، قطعت انتظاراً مروعاً لرجل يتملكنى كلية ويعتقلنى بفضاء الفهم و الدعم والمساندة، كنت أظنه سيكون أندريا ، فأجدنى أنفلت من طريقى ، لأجد شريف ، الذى يهتز بضحكات قوية تشى بسعادته وامتنانه بجلستى .

شعور بالذنب سحبنى برفق لمتابعة مجريات السهرة التى امتد بها الوقت لتشكل فرقا دائرية على أطراف حجرة الاستقبال الكبيرة و الممتدة إلى النهر عبر الشرفة الكبيرة التى يكسوها زجاج ينعكس التماعه على أرضيتها الخشبية ، أستعيد رحلتى التى ابتدت منذ بحثت فى مفكرة تليفوناتى عن حرف السين لأجد اسم سهام وحيدا ، أغلق المفكرة عليه ، وأخبرها بموافقتى على الذهاب إلى الحفل وهى تجيب: يابنتى دى سهرة عادية ، سويقة محترمة ، الناس بتخلص فيها مصالحها .يالا اجهزى وحصلينى على العنوان ده...

ألقيت بتوترى بين أثوابى المعلقة فى دولابى ، بينما قمت بتجميع هيئتى النهائية بارتداء شال تركته لى جدتى ضمن أشياء كثيرة ، وهو يلائم فستان الصليب الأحمر، الذى نصبته على شماعة الدولاب كثيراً قبل أن اقرر ارتداءه للمرة الأولى ، فكان الأحمر بالأبيض بعتمة الخزانة يلحان علىّ لتجربة كيف سأبدو أنيقة وساحرة ، كما طالبتنى سهام وأن لا أتخلى عن روح المرح كقوة إضافية توثق مظهرى ولهجتى بما ينبغى أن أكون عليه، أنهت المحادثة ، لتكون هناك قبل أى أحد ،

.. ما اهه المخلص لازم يكون موجود بدرى ، لعلمك أنا كرهت شغلة السمسرة دى ، و قررت ادرس اللغة العامية للأجانب ، شغلة مريحة وبتجيب فلوس كتير ، وكمان علاقات كويسة .

تجاوز السائق الزحام بصبر اضطراری حتى واجهنى بهواء الكورنيش البارد وأضوائه الكاشفة ماراً بالسفارة الأمريكية التى تحتل مساحة واسعة من شريط جاردن سيتى ، أو "جردل ستى" على قول مارى منيب . تجاوز التاكسى العساكر المدججين فى الزى الأسود وعوارض الطريق و الهزال .

هنا لو سمحت .

وضعت قدمى على الرصيف وأنا أنش برأسى توتراً ما انتابنى ، استنشقت هواءً بقوة، تأملت السور الممتد إلى مالا يبلغه بصرى ، عبر ومضات الأضواء الصفراء التى غشت ذبذباتها عيناى ، لجأت فى عشية الإحباط هذه إلى بناية عريقة من بنايات جاردن سيتى ، حوى مدخلها برودة نادراً ما احتوتنى ، وقد درت عدة مرات بالمبنى فى محاولة لاكتشاف بوابته ومدى اتساعها لخوفى ، استقبلتنى سهام وقدمتنى إلى الجميع ، تتوقف وتسحبنى من شخص لآخر ، تحكى للبعض أشياء عنى معظمها يتعلق بكونى يسارية قديمة ، وطالبة مجتهدة ، ثم .

– هو اسم رسالة الدكتوراه إيه؟

– دراسة مقارنة لصورة البطل فى أدب المقاومة ....

– شفت يا دكتور ؟ موضوع صعب ، وهى أدها .

– طبعاً .... طبعاً دا كلام فارغ ، لازم تاخد فرصتها ، عينىّ الاثنين

وهكذا الكل يستفيد فى الزحام كما قالت سهام بارتياح، لأنها أنجزت الجزء الأصعب من الصفقة ، تركتنى أستريح على الأريكة ، وانطلقت تتم اللوحة ، وأنا أتفرج .

إنتبهت إلى صوت يؤكد أحقية بوش فى الانتقام الطويل ، من كل من كان هناك يشاهد انهياراته لأن الأيام دول ودولة الآن تدول ، ثم يرفع كأس

الريدواين لسماعة الاستريو التى تشعل زميلة ما ، فترقص رقصاً متقناً بثيابها العملية الضيقة، ويكمل هو ...

كلينتون كان لديه ذوق عالى فى الحريم، وما الذى يرغب الواحد منا فى أربع نساء غير المال والقوة والشهرة والشباب، أنا لم ترضنى أية امرأة ....

يدور بعينيه حول صدر الراقصة المرفوع ضد الجاذبية و المسدد من طاقة قوية تحرك خصرها وتهز بطنها ، بينما ساقاها متعامدتان فوق قدمين صغيرتين .

هل أنا حقاً هنا ؟ أم كان وهماً صاغته المصادفة وثلاث كئوس من النبيذ المحلى ، فهمت الشفرات وادعيت البلاهة كى أعفى حين يصيبنى الدور فى الرقص وأصبح محض هزة منسية ، حضرت إلى هنا برفقة صديقتى التى تفبرك الرسائل مقابل رسوم مبرمة ، أحياناً ما تضاف لها هدية مصحوبة بالشكر على المساعدة فى إعداد الرسالة وتصحيحها وهى تجيب بأنها أفادت علمياً من البحث ، لكنها اضطرت لتعديل بعض الفقرات ، لعبة متقنة مبنية على التفهم لاتفاقية بكلمات غير واضحة ، تعلن بقوة عن فساد العالم ، ذلك يدور بذهنى فقط والحقيقة أننى أضفت لتعريفى بنفسى ، نسبى لمنصب خالى الذى أعرف أنهم يخشونه رغم حلاوة شهر العسل معه، ولم أضف كلمة سابق أو متقاعد بالطبع .

– أنا بنت أخت العقيد عاطف سليم .

أمر بسيط أوجدنى هنا بينهم ، أساتذتى الموقرين ، مثل الذى أوجدنى ببيت خالى ، وكما كنت ببيت أمى ، بعد دفنها لكل صلاحيات أبى مع ساقه، بمدافن الشهداء ، وأخيراً بيت عصام المحكم بزنازين الفوضى وانحدار الروح فى نفق ملغوم بالعيوب وأمراض نفسية منقولة عن فهم خاطئ لمقولة الحرية ، ذلك كان زوجى ، هذا خالى ، وتلك كانت أمى التى انتسبت لسلاله

معلقة على جدار عاكس ، تستهدفه النبتات الشيطانيه ، أنتقل بالصورة إلى فريق آخر على المقاعد الدائرية ، أخترق بأذنى حديثهم ، وأشكل وعياً مغايراً، لما تبثه الأبواق.

- مجد الفراعنة كان ضحية بطليموس الأول .
- التاريخ المكتوب بيخلى المجنون عاقل .
- مئات الآلاف الآن يناهضون التاريخ الرأسمالى .
- حد يقدر هنا يعمل حركة مناهضة للعولمة الرأسمالية أو حتى للتيار الإسلامى ؟
- لا توجد ممارسة ثورية بدون نظرية ثورية
- وهو احنا ناقصين نظريات ؟

تجاوزتنى العبارات واستقرت فوق ظلى الناتئ من زجاج الشرفة التى تعكس عتمة مرقطة بندف الضوء ، أستعيد انتكاسات عقود كانت صاخبة وقوية أطلقنا فيها الشعارات الاشتراكية ، كأشرطة حريرية تحلق بنعومة الخيانات المتعاقبة لشعوب طحنها الظلم واحترقت فى أتون الغفران المسيحى، تنصرم إلى الجاذبية ، نتأمل الغيوم ونبكى قبل المطر وبعده، لنفوت حماماً يطهر عريناً من الخوف، طفا عصام بالأعمدة العظيمة المقابلة لشرفة الحقل، بعد اعتقاله الأخير، لم أعد امرأة ذاهلة تجلس فى المقاعد الخلفية لصالات العرض، مكتفية بمعارف أولية عن كل شىء ، ذلك ما فكرت فيه وأنا أطرد طيفه الصالح تماماً كواسطة انتحار وسقوط مميت فوق السطح الموطئ لأربعة طوابق فى بناية قديمة تحتل مثلثاً واسعاً على خارطة العالم بحدود النهر الخالد ، الذى يتجول بوهن عبر طبقات الوطن، أجول بتلك العواميد الضخام الممتدة لعمق السماء الداكن، كمعبد يتآكل برشح الضوء، أبحث عن شخص ما، تجرع ترياق الخلود من رحيق الحجارة،

وحفظ كل حقائق التحنيط بداخل رأسه الملفوف بوثائق تقيه تحولات الصخر، وكأنني أبسط فرشتي، لأنام في الليل تحت قدميه، وفى النهار أدق بشفرات سحرية، وأنا حافية فوق الأرض البازلتية المسكونة بذكرى بعيدة لقياس قدميه، تتحد قدمي بأثره ، أكتم سراً مسحوباً عنوه من حصارى الصخرى ، نتصل بغير مقدمات أنا وشريف...

– سوزى ...واقفة لوحدك ليه ؟

– مافيش ، لازم مشى باى باى سهام.

– استنى يا أستاذة لسة فيه كلام .

– تعبت ....لازم أمشى .

ليس الموت كأى شيء على الإطلاق ، وأنا كنت كملاكم تلقى لكمات متتابعة في قلبه ، وسقط على أرض الحلبة مستجمعاً قواه للضربة الأخيرة ، جمهورى كانوا سكارى نبيذ الصفوة وأصابع السبيط المقلية وقصيدة عامودية للغزل غير العفيف تلقيها زميلة أخرى ملصوقة بسروالها الوردى وبلوزتها القصيرة التى تحمل أطراف شعر أسود، يضيء وجهها بدوى الملامح ، يمتقع بالمعانى المخجلة فى القصيدة المرتجلة لشاعر كبير، وقد كان اسمها سوزى ، فمنحتنى فرصة سماع وقع اسمى بصوتى، فوجدته غبيا لا وقع له.

★★★

نوعا ما انتهى الأمر، أصبحت الموافقة المذيلة بالتوقيعات أمراً شكلياً ستنفذه سهام وتأتى به حتى بيتى ، ربما تستطيع رؤية عاطف هذه المرة ، وتنجح فى إخراجه من عزلته ، وكانت تشكر دكتور شريف بقوة عرضه لتوصيلنا ، هى إلى مكان ما بوسط البلد وأنا حتى محطة رمسيس ، وكما ودعت التمثال الرابض فى عريه وحزنه ، ودعت شريف بنفس الألم المفاجئ

الذى يشع فى روحى بصيرورة متوالدة لقضايا وهمية تسيل فيها ليالى الذهبية.

تحت المطر المنهمر فوق رأسينا وأكتافنا، فضاء رخيم وخال من كل شيء إلا البرد الذى أشاع الرجفة فى أوصالنا، فرجفنا وانتشينا، وشريف يشهر احتواءاته، وأسقط فى رحبته كشر شف مندى بالثراء، وهو يلملم الهموم والحكايات، يعيد اكتشافى متسائلا بتوجس..

– أأنت هبة أخيرة من سماء ملبدة بالوحدة وفراغ العالم، أم أن أحدهم أطلقك على؟

– طبعا مدسوسة عليك.

حمم من الخوف اتقدت بروحى حين اضاف شريف وساوسه وهو يلمس أسفل ظهرى برفق، صعدت إلى الحافلة المسافرة بى إلى المدينة، كنت أفكر فى موضوعية ارتيابه وأتساءل، إلى متى سأكون محاطة بسوء الفهم وهلاوس الآخرين؟ غنيت همسا "ياظالمنى"و نمت على ابتسامتى بينما الطريق الصحراوى يلتهم الليل ، وقد أصبح من عادتى أن اختار المقعد الثالث والطابق الثالث ومظهر العقد الثالث ، وأشعر بأن لدى أسفل ظهر رائع أتحسسه لمرات ومرات ، تماماً كما مسه شريف.

لم يكن من اللائق أن أعول على حب أحد لى حتى لو كان أبى ، فأدخل البيت عند آذان الفجر، مرتدية ثوباً مكشوفاً وشال من الصوف الأحمر الناعم، بعد أن تخلصت من المعطف الجلدى ما ان تجاوزت غرفة خالى، فانطلقت روائح الدخان والنبيذ من أنفاسى وأنا أقبل خديه، إضافة لحالة من الصبابة مسنى بها سحر اللمسة الأولى من رجل التقيته ، فى تجوالى الباحث عن موقع بالكرة الأرضية، حتى سقطت بأرض المعبد المباركة، ومثلت بين يدى الكاهن الأعظم، أبوح بانكساراتى ...

– ألم يعلموك هناك نقد الذات بالاعتراف بالخطأ ، لا بإلقائه كتهمة على أول عابر ؟

– أهذه محاكمة؟

– قانون الجماعة لا يمتلكه غير المميز والمؤهل للزعامة، انتى فاكرانا كنا بنلعب؟

– زعامة مرة واحدة ؟ وياترى فين شعبك؟

– تاه ، فقدناه بسبب عبثكم بالأفكار ليل نهار ، وجهتم النضال لقضايا ترفيه ، لم يكن وقتها الآن.

– كانت لى مواقف أخرى، لم أكن منهم.

– سعيد بسعادتك، وياترى انتى مع مين؟

كنا نعبر أمام المجمع الذى يتصدر جاردن سيتى كصدر فتوة من فتوات نجيب محفوظ، نزلنا تحت الأرض لأستقل مترو الأنفاق وأنا اشعر بذاتى تتوحد وأصبح الشخص الذى أكونه بالفعل، خاصة إذا ما لحقت بعربة النساء اللاتى يبدون كعابدات سائحات تائبات، بينما تغزونى نظرة شاملة، من شريف المستسلم للهزات ، ونحن معلقان بعيون رجال ونساء، يرمون علينا بحقد وسخرية، ونحن لا نهتم بغير تجاوز لحظة الالتصاق ونفيق قبل أن يلحظ هيامنا أحد من الناس، نتحدث بلا ترتيب، وكل ما نقوله يبدو شديد الأهمية ، نصرخ كأننا مازلنا صغيرين.

★★★

وقد كان لغضب أبى الشديد وهو يوشك على البكاء عظيم القدرة على إيقاظى من غفوتى، لأدرك أننى أمر من قيد إلى قيدين، من تفاصيل أربعين بائسة إلى شريف واندريا اللذين يتنازعاننى كل من جهة ، وأناأشعر بحلاوة القبول بكل شئ حتى لو كان تمزيقى اليومى ، الذى دفعنى مرة أخرى

بالخوف ، إلى بقايا مرآتى ، ربما كان خوفاً من أن يصل صوت أبى لغرفة أخى الذى لو سمع وعرف ، كان سيستدعى خالى وربما يتخلل التحقيق تعذيباً نفسياً ينتهى بصفعة من خالى أو لكمات من كف أخى الذى اعتاد أن يستخدمها بعنف غير مبرر معى و يقول . . .

– باهزر .

– هزارك تقيل يا أخى .

– وإنتى هزارك خفيف؟

– أنا عمرى مامديت إيدى عليك.

– طب مديها كدة......جربى وانا اكسرها لك

– الحنية يا سليم ، ماضربتكش عشان ماأقدرش أوجعك . . .

يصمت أخى طويلا ويلقى بيديه كيفما اتفقتا، ثم يغلق باب غرفته على كوكتيل من شاكيرا والبينك فلويد وعبد الصمد ,سامي يوسف ، محمد منير، مايكل جاكسون ويخننم الوصلة بروبى وأخرى لويتنى سبير ثم قرآن.

يدب الأرض بقدميه محاولاً ألا تصدر أصواتاً ، أو يهتز بشكل صوفى وهو يسكت هدج قلبه بالصفاء ، ثم ينهى الطقس بصراخ شيطانى ودبات هيسترية على أسقف البيت ، هو ليس غبياً على أى حال ، مثلما كنت أعتقده طيلة حياته ،إنه يعرف كل شئ ، عن الأديان ، وعن اعتقادات الشعوب ، ويهفو للرحيل إلى أمريكا التى لم يستطع أن يعثر لها برغم قوتها على تراث حقيقي ، ما الفارق بين الجنون و الجمال ؟هذا الفتى أراه مجنوناً وأراه جميلاً ، إلى أى حد هو معذب بما لا يجهل به ! ويتوه فى فاصل ادعائى بين الفنان و المؤدى ، بين قوانين السن والنوع وبين أناه المعصومة .

أغلق باب حجرتي على صوت أبي وهو يعب شرابه بيأس وأسى ....

- أنا عملت إيه عشان تعملي فيّ كده ؟ كنت فاكر هارمي حملي عليكي أول مرة احس ان رجلي اللي بادوس بيها مقطوعة ، خمرة ياسوزي ؟ وداخلة البيت قبل الفجر زي الغوازي ؟ طب كنت استنى للصبح. الناس تقول عليّ إيه ؟

★★★

لن أدعي هرقلية أو حتى هتلرية ، أكرر على نفسي ، لست معدة تماماً ، ليس بعد ، لأن الزحام مازال شديداً ، ينبغي تصفيف الأمور كلها ، قبل عقد ضفيرة لجؤاتي المشعثه ، برباط شريف الحريري الذي يتردد أسفل ظهري في موجة لطيفة .. لماذا قتل هيتلر فيدرا وأمر بحرقها معه ؟ إذا كنت هتلرية حقا فعلي أن أطلق على مشاعري رصاصة ، وأقاوم ، لأظل محترقة بافتقادي لحضن بشري ، ترطب قلبي أخباره .

- شريف ف مؤتمر بره مصر .

- شريف رجع .

- د . شريف عنده مناقشة في آداب ، بكره الساعة سبعة ، تعالى .

لا أقدر ، أطوف بأدراج المبنى الرخامية وأعود لانسكب في الزحام لا أحتمل المزيد من الصمت ، ثم أخيراً شريف على الهاتف...

- إزيك ، إنتي فين ؟ عايز أشوفك

- ياريت ، لكن ....

- مافيش لكن ، بكرة في نقابة الصحافيين ، الساعة سبعة .

- خليها ثمانية .

ح أستناكى لتمانية الصبح ، ولتمانية بعد ميت سنه .

كل شىء يصبح ذكرى فى أرشيف نقابة الصحفيين الإليكترونى ، الكوارث تفقد أهميتها بعد عدة أيام ، والكذب يتفشى بين أقل من خمسة أعداد ، ولا أحد يحقق، الكل فى النهاية يتخاذل بعد الحصول على المجد، هل تخاذل المسيح بالفعل ليحصل على المجد ؟ هل تواطأ مع يهوذا ؟ كانت تلك شفرة البحث فى دوريات الأخبار الصادرة فى العالم ، ولم أجد رداً شافياً، لا أحد يعرف على وجه اليقين غير أن المخطوط الذى وثق بالكتابة بعد مائتى عام من صعود المسيح ، وجد فى أحد كهوف مصر الصحراوية عام ١٩٧٠ ، ولم يتم التيقن بعد من ديانة مدونه ، وأن هناك كتباً أدبية وكنائسية ، مبنية أساساً على خيانة يهوذا .

– إنت ممكن تحبنى ؟

– أه طبعاً ، واحبك طول عمرى كمان .

– أكيد بتكذب.

وعلى رأى الشحرورة ياناس ياهووه الحب ليه بتعقدوه ؟ وأنا عندى التفسير ، خيبة تقيلة جعلتنى أترك كل شىء وأتواجد فى نقابة الصحافيين قبل السادسة ، وليس فى الثامنة ، أقضى الوقت فى مركز المعلومات للبحث عن أسماء ، تواريخ ، أو أى معلومات ، أدلى بوعد بالحب وكأنه مزحة وأنا أتوجع بكبت ابتسامة الفرح المرتجفة ، وقلبى يخفى رقصه تحت معطف الشتاء الثقيل ؟

لا أذكر فى أى لحظة تخففت وانسال الجمود البارد من أطرافى وأنفى ، لأن الوهج الملتهب صعد يذكرنى بأندريا ، ليغادر نى شريف ، وتصبح حالتى مزرية حين ينبثق الألم من شرفات الودا ع

ألم حقيقى كطعن القبلة الأولى ، شغف وجمال لا يمكن تذكرهما إلا قليلاً الآن، وبعد أن ودعت وللأبد شريف ، حددت هدفى وسارعت بالتصويب ، فالبطء ذنب كبير ليس من وقت لغفرانه ، أسقط أحاسيسى فى الأنفاق المظلمة ، تحرسها طاقة شريف تحت ضوء بعيد ، فى أحلامى ، وفى يقظتى، ألتحم به وهو يرقص ثائراً متوهجاً بأضواء ميدان التحرير ، و الجموع تتظاهر باسم شهداء الحدود ، صراخ ، صور زخمها الدم ، كل شئ يتشكل ويفور تحت النار ، بينما حدقتى المسلمتان بكل شيء وبلا شيء ، تتسعان لمعانقة سخطه وهوسه ، وأمنحه جوازاً مجانياً ليدخل بروحه إلى حجراتى المسرطنة بهياج هستيرى ، وهو لا يقطننى ، زيارة خاطفة ويهجر لأسباب أمنية ، فقد أصبحت بالنسبة له ، وبعد فترة قصيرة – صفحة فى ذاكرة مواعيده ، موثقة ببصمه الصوت على أشرطة تسجيلات أمن الدولة ، ولا تثير حتى ضحك الكباتن الصغار فى السن و التربية ، وكان عادياً أن ينتهى الحلم هكذا . . .

– إنت أكيد حد باعتك تتجسسى علىّ.

– إنت بتتكلم جد؟

– ليه ماقلتيش ان خالك شغال فى أمن الدولة ؟

– ماجاتش مناسب ، لا لا لا ، دى لعنة بقى ، بعد كل اللى حصل لى ، ولسة بتقول خالى؟

– آسف ، بس انتى مش واضحة ، فيه حاجة مش مظبوطة.

– فعلا فيه، بس مش فىّ.

وهكذا دواليه ، إتهام ، دفاع ، إعتذار، كله شغل جنان، غير طبيعى أن ينتهى الحب كدة

– ماحنا قلنا انها خيبة ثقيلة ، يابنتى شوفى مصلحتك، سافرى واعملى الدكتوراه ،شوفى أندريا بتاعك ده ، يمكن تلاقيه جزار بكرش ولغد وعنده دسته عيال ،

– إخص عليكى ، ماتقوليش كده ، اندريا ..... اندريا دا مش ممكن يتغير.

– ان شاء الله حتى تلاقيه رئيس جمهورية ، المهم ترسى على بر، ترجعى بالدكتوراه .

– إن شاء الله

– اذن أستودعك الله ياستنا الحاجة ، حانزل احاول اشوف خالك ، سى عاطف بيه ، يمكن يحن ويفتح المرة دى ، والله ماحاسيبه إلا وانا مراته ، الجزارة ورجل الأمن يتزوجان ، إيه رأيك ؟

– مبروك مقدماً عالخيبة التقيلة.

ضحكنا حتى لم أر غير خيالها يغادر إلى خالى .

★★★

المرج الأخضر المنبسط من الشرفة الأنيقة المحلاة بالتماثيل المنقولة من مخازن التاريخ حديثاً، على حدوده يقف حبيبين راقبتهما وهما يتنزهان على الكورنيش القفر ، يحاولان الالتصاق ولو للحظات ، أوقفهما شرطى قصير، تحقق من بطاقيتهما وردهما بعد أن دس له الفتى ما يشبه النقود الورقية بجيب سترته ، بينما مضيفة مكتب الطيران تمد يدها بالتذكرة ، مؤكدة أن فترة صلاحيتها خمس وأربعون يوماً على الأكثر ويتم قبلها إعلام بالشركة بالرغبة فى التأجيل قبل أسبوع على الأقل ، كان أفضل لو حجزت على باخرة ، فأنا أحتاج الانفراد لبعض الوقت ، قبل أن أحط على جزيرة أندريا، و الحقيقة أن مشهد العاشقين وهما يتابعان سيرهما ، ردنى بسرعة إلى

مدخل مكتب الطيران لكى أؤجل السفر المقرر بعد أسبوعين لشهر كامل، فلدى أمور كثيرة معلقة ....

ثقلاً مؤلما بقدمى ، كان يردنى إلى كل شىء فى مفارقة لم أقصدها ولكننى ترصدتها بين واحد وأربعين عاماً مرت بالكامل ، وبين ٤٥ يوماً مدونة على تذكرة الرحيل لمجهول ظل يحيط بى طيلة عقود من الوعى . . .

أولا:- أن أكون شيئا عظيما أراده أبى.

ثانيا:- أن أتمم ما بدأه أندريا.

لو سألت عما يدور برأسى الآن ، سأقول بأمانة- كل شئ إلا هو ، أننى بالكاد أفرضه على ذاكرتى ، بغير تلك الملامح التى أعرفها ولا تشكل وجها بشريا ، شعر نحاسى، عينين زرقاوين، شفتين لا تنفرجان إلا عن ابتسامة تفيض على وجهه بملائكية حلم يحملنى خلال الضباب ، ليصبح اكتمالى أمرا مرجئا لحين تحققه،"لبن العصفور فى ورق سوليفان".

- لو وقفت أدام المراية كتير حتتجننى وانت مش ناقصة جنان. تلك كانت تعويذة خالى التى أتجاوزها وأعود لأقف بالمرآة فأجد وجوهى الممزقة تردد بإيمان ما كان يقوله له كلما رآنى فى المرآة، شىء بداخلى كان يدرك أننى ورثت جنون أمى ، ولكنى أتجاهل معرفته وربما أستعذبها ، فأمى لم تعتقد ولو للحظة بفكرة الجنون، كانت على يقين من أنها تعرف وترى مالايدركه الآخرون ، ولكننى أمّن لكونى قادرة على معرفة مواطن جنونى ، الذى أوصلنى للحظة مقارنة بين ما فات وما تبقى ، خمسة وأربعون يوماً علىّ فيها التيقن من أن كل شىء على ما يرام .

الخادمة التى ستنظف البيت وتطبخ ، ستأتى فى كل يوم وتبقى ساعات طوال ، على أن تصطحب معها ابنتها الصغيرة كى تساعدها ، فربما يلمح فيها أخى شيئا يذكره بجمال ما للحياة .

الالتقاء بدكتور دياب لمرات ، كي أشرح له . . .

أعترف بأن جيلي أضر بك وبرفقائك ، وأن الفساد الذي كشفناه كان عليكم كما علينا ، ربما كانت خسائركم أفدح لأن العمر مضى بكم دون أن يتحقق شيئ ، أما نحن فأنا أظن أنه مازال هناك فرصة للتعويض شيء ، وذلك ما أسعى إليه ، أن أحصل على فرصتي في الارتقاء بالعلم لا نقله عن الآخرين .

أيضاً كانت هناك عدة قضايا لغوية ونحوية أردت طرحها مع دكتور دياب، فمثلاً كنت أرى أن اللغة العربية العامية، ينبغي أن تتواجد في خطابنا، لأنها اللغة الفعلية لكل الشعب، أما الفصحى فهي معبأة بالقاعات ومنافذ الإعلام ، وأن لغة النص تكون أقوى في الدلالة إذا مافصلناها عن لغة الشارع ، فيومئ بوجهه المحوط بكفيه كزهرة لوتس ترتمي بين فرعين ، قائلاً .....

– والله يا بنتي عندك حق .

ثم ينطلق بمراجعة كل الأفكار ، المتكئة على المنطق ، والمنطلقة من تاريخ نشأة اللغة وارتباطها بالتطور الاجتماعي لشرائح البشر ، وإحقاقاً للحق أقول أن جلساتي الطويلة ، والملأى بالأسرار التي تخص الدكتور وأشخاص، مازالوا يعيشون في الحياة أو في ضمير الشعب ، تلك الجلسات كانت تخرج بي كائناً حراً ومتفائلاً في كل مرة ـ رغم تلك القبضة التي كانت تطبق على صدري وحلقي ، وتخوفي من أن نفقد شخصاً مثل دكتور دياب ، وكل من هم مثله ، عم منير الذي يستعد لإغلاق حانوته ، ملقياً على قارعة الطريق بقطع التحف والأثاث واللوحات الأثرية ، ليغادر البلاد بغير عودة ، فقد انتوى أن يموت بين أبنائه من زوجته المناضلة الوفية ما تزال تغرم به ، وتخبر بكل صراحة بأن .....

– زواجي به أنقذ حياتي وحياة أولادى ، كان من المحال أن أجد رجلاً خيراً منه لى ولأبنائى.

كلتا الزوجتين قالتا نفس الكلام عن الزوجين اللذين كانا يحبان أن يؤكدا انهما شيوعيين حقيقيين ، لديهما تقاليداجتماعية ، جعلت كل منهما يقول...

– لم أنطق بكلمة أحبك إلا لزوجتى ، لا قبلها ولا بعدها .

★★★

لم اعرف كيف أنسحب أسعد من الدائرة بهذه الخفة وهو الرجل الوحيد الذى يقول منذ صباه باحبك يا سوزى .... ماقلتهاش ومش هاقولها من بعدك .

وهو الذى هدأ من رغبتى فى الانتقام ، حين طلبت منه أن يساعدنى فى إيجاد بعض البلطجية ، لضرب الولاد الذين فعلوا ما فعلوه بأندريا ، وقد كنت فى الواقع أريد التخلص من ذلك الشعور بالذنب ، الذى ظل يلازمنى ويتضاعف كلما رأيت عملات معدنية تذكرنى بخيرية ، وكلما رأيت سيقاناً تركض تذكرنى بأبى ، وكلما رأيت مسافراً مقهوراً أو معبئاً فى ثياب السفر، أتذكر أندريا، ولم أكن اعرف من أين يأت اسعد بهذه المقولات المقنعة والمخيفة فى آن حين يقول وهو يصحبنى على شاطئ القنال والموج يبخ بزبد بارد يتناثر كالشظايا فوق وجهى. . .

– العدل يا سوزى ؟ لن يتحقق بغير استعادتك لطاقتك وإنسانيتك العدل صفة الإنسان القوى وحده ، لا ذلك الذى يستنزف قواه فى الكراهية ، الشىء الوحيد الذى سيريحك هو الرضا ، فلا ينبغى أن تملئى قلبك برمال الكراهية ، لن تجدى غير الوحدة وجنون الغضب .

يطل وجه أسعد أمامى وقد بلغ نهاية مفجعة مقررة على وجه أخته حميدة، وهى تبكى ...

– التحاليل قالت ورم خبيث ، مسرطن على الأنف والأذن والحنجرة ، مش عارفه حتى ازاى اقول له لازم يعمل مسح ذرى ، طبعا حيعرف انه سرطان ، تعبت مش قادرة اتحمل لوحدى انا عارفه انك الوحيدة اللى تقدر تخفف عنه عشان خاطرى يا سوزى ، لازم تبقى جنبه .

تراجيديا لا بأس بها ، مفارقه حادة تفصل جبل الأعوام الفانية عن بخار الأيام القليلة المتبقية .

أنا لا أعرف حتى من منا بدأ الاتهام بالكراهية أنا أو اسعد ؟ هذه دائما ذلتى ، طريقتى التى أنتجتها مع خالى،حتى عصام لم اعد أجد مانعا من التعامل معه بلطف كلما جمعتنا اللقاءات فى حرم الجامعة ، أو فى مآدب مناقشات رسائل الزملاء فنبدو لكل من يرانا وكأن أحدنا لايرغب فى حسم ما بينه والآخر من متعلقات ، تزوج بابنة أحد الأساتذة الكبار ، كلنا نعرف أن زمالتها لنا كانت غير متكافئة لأنها حصلت على الامتيازات بمعرفة بعض من الأساتذة الذين يدينون بالصداقة وخلافه لأبيها الذى يمضغ مقولاته الخطابية خاصة وهو يخاطب عميد الكلية ، ويتشدق مثل داعر يعرض أردافه بميوعة لاتتفق وحجم بنيته . . .

– والله العظيم يا دكتور انا باحبك ، ومستعد اعمل اى حاجة عشان ابقى جنبك.

وحين تلتقى عينىّ بعصام أجده يخفى خجله من حموه بابتسامة مبهمة، ثم يحرك شفتيه بكلمة –بحبك–، فأغض ، كى لا تصبح احتمالات الخطر قوية .

تلتقى عيناى بأسعد ، أكتشف صلابة الحصن الذى عزل فيه إنسانيته ، بداخل عينيه اللتين تطلقان استغاثة S.O.S مطولة أو هما تتوحشان

بضراوة موت الأفيونات التى سرت فى دمه وشكلته بطريقة خاطئة ، تصحبنى حميدة رفيقة خبراتى النبيلة وأدخل إلى عالم أسعد معقد التسرطن ، دولة صغيرة بداخل وحدة الوطن ، حلقة فى تنظيم محكم لسلسلة غليظة من العصابات ، تحوط حدود المدن ، وفوق أسوارها يقف بصاصون صغار ، لم يصبهم الدور فى المجانيات ولا كذا وكذا لمستحقى الدعم ، وصغار آخرون يستقبلوننا بابتسام وهو يتلقون تدريبا فطريا لوظائف محفوظة فى التاريخ خد واجرئ .

فى حضرة أسعد الذى لم يعرف بعد أنه سيموت ، وأننى حين أسافر وأعود بعد عامين قد لا أجده ، وإن لحقت به سيكون هزيلا متساقط الثقة وشعر الرأس ، وحين تنتهى قدرة أمواله على إبقائه على الحياة ، سيموت مجنونا ومضحيا بالرجل الذى كساه لكى يتخلص من الألم ، إذا كان اندريا مسيحا ، فمن منا كان يهوذا الاسخربوطى ؟ أنا ؟ أم أسعد ؟ ثبتت براءة يهوذا بأنه لم يبع وإلا فلم رمى بالعملات المعدنية الرومانية وانتحر ؟ ذلك الذى أعلن أن المسيح سار فوق ثلج نهر طبريه وليس مائه لا يهم، فيهوذا كان مسيحيا مخلصا ولم يكن يهوديا مرابيا ، ألقى فى النهاية بنقوده ولحق بمسيحه .

أسعد يمتلك ، الفندق والمسبحة وسيجارة المزاج التى أكدت حميدة أنها سبب ابتلائه ، وأنا أؤكد لها همسا أن السرطان أصبح مرضا شائعا فى كل بيت ، وليس له أسباب مؤكدة .

كان فى جانب الغرفة صندوق خشبى أكثر قدما من أسعد ، ممتلئ لحافته بأسلحة خفيفة وعملة رائجة تتمطى بشهوة عاهرة أبدية مختومة بالقوة والثقة بالإله – دولارات – ، خضراء كأوراق الربيع .

ترسانة كاملة قائدها اسعد الذى فتح صندوقه لعينىّ ، ربما لى شيئا مختلفا عما أراه . ولم يكن هو اسعد الذى عرفته فى زمن ما ، كمرشد وصديقا مخلصا من اضطرابى وتعاساتى ، هو الآن سلطة خبيثة محكومة بالموت ، فى كنف سلطة أعلى يخدمها بقمع وإرهاب كل من يقول لا ، هو رسالة تهديد دائمة لمن يلوك السيرة القذرة لوزراء التقاوى الكيماوية من بلاد واء الواء ، والذين أطعمونا نفايات تشيرنوبل .

– ما هى برضه حاجه تبرجل العقل .

تقول حميده ونحن فى انتظار أن يفرغ لنا أسعد من حالة طوارئ أخيرة، كان يصرخ فى شعبه الذى يتصارع على مصالحه الفردية ، التاريخ بعمقه يتكرر فى غرفة الاستقبال المحتفظة بالتفاصيل غير المتطورة ، أنا وأسعد وحميدة كنا نشكل نتوءا غريبا على هذا المكان المحتفظ بقدمه لحد إثارة خوفى من انهياره فوقنا بين لحظة وأخرى ، كنت كأمثولة مثيرة للخزى بانتسابى لأسعد ، الخارج بعشوائية من طابور ضحايا اللجوء بقوانين العدل التى بثها بأعماقى وألهم بها روحى ونحن صغيران ملهوفان على الحياة ، كنا نحلم بالانتساب للصفوة أو المجانين الذين يستثنيهم القانون من عقوباته ، لكننا بأعماقه خطاءين ، ومحكومين بأن تذبحنا نصال معارفنا التى تجعل من الآلام العنقودية تعاسه تليق بأمثالنا .

أسعد يرتدى جلبابا ابيضا يخفى وميضا محفزا طبقة أوزونية من الدمع لان تفترس حدقتى ، وتعكس جانب وجهه المتورم، وهو يسد فتحة انفه اليسرى ويداوم تجفيفها بمنديل قماشى من نفس المناديل التى يستعملها أبى ويحزن إذا لم أكوها له بعد غسلها على الحوض بظهر يدىّ ,سأذكر أم اشرف الخادمة بأمر هذه المناديل ,وأؤكد عليها بأن تعتنى بغسلها يدويا وكيها و طيها أربع طبقات متساوية تماما عند الأطراف، فى تجفيف عينيه

ومسح فمه ، أسعد بالفعل يشبه أبى وهذا التضخم الذى يشوه نصف وجهه يشبه فى احمراره الرائق دائرة فخذ أبى غير المستوية فى الاستدارة , هل كان على أن أذكر تلك المقاربة مرة بعد الألف منذ وعيت على أسعد وإلى الآن ؟ أتمنى المغادرة ، كى أحتفظ بكل شىء كما كان ، الاختلاف القديم الذى تنتهى إليه لقاءاتنا ، التوقف مودعة أسعد " زى زمان " ،وأنا أدرك أنه سيكون هنا ، ودائما ، بانتظارى

– أسعد يا صديقى أشكرك على كل شىء لطيف .

– برضوا صديق؟ صديق صديق – المهم أطمن عليكى

– أنا بخير .. .

– لو عزت حاجة ،أى حاجة ؟

– طبعا حاجى لك ,انا لى مين غيرك؟

– لطيف ,لطيف

ولطيف كانت تعبير أسعد بالموافقة والإعجاب والدعاء فهى تعويذته الصالحة لكل مناسبة ,هو الآن يجأر بقوة بدائيه كشخص محدود التاريخ يهشم المرض الخبيث عقله وملامحه ,هل يهتم الموت المطل بكونى الآن أهرب من مشارف الجنون والعمى ,إلى الكوة الزجاجية بآخر الردهة الممتد أمام غرفة استقبال الفندق الذى حصل على تنازل ملكيته من ريبيكا ,مقابل حصولها على الطلاق الرسمى وتقول قاطعة عليه الفرحة بنقل الملكية

–أندريا ليه نصيب زيى فى الفندق ,وأنا حتى ما أعرفش هو ممكن يعمل إيه؟

سلبت ريبيكا بهذه الجملة حلم أسعد بقطع الطرق فى خطوة واحدة، ردته إلى ضرورة الاستمرار فى التمهيد والتوطئة ,قمعت قدراته الطارئة فى عقد الصفقات–بيع ، بكام ؟ إشتريت– فى الماضى لضرب أندريا حتى

ينقل ملكيتى إليه ، والآن يتفق على خروج ريبيكا من طاعته بنقل ملكية الفندق إليه، بعد أن حوله لمغارة معتمة لعملياته الواسعة التى إكتسبت شرعيتها من فوضى القوانين.

يظل قاطعا الحجرة ,بعصبية ,يطفق جلبابه ساقيه ,وهو يبين لسوزى أن انقلابه فاصلا وقاطعا ,و أى رغبة فى استعادته ستعامل على أنها تهديد ، سيرد عليه بقبضة من حديد، رغم انه فى هذا الوضع مريضا مثير للتعاطف والأسى ، أردد الكلمات للروح التى تخصبنى فى أسعد ، فتصطدم بدكتاتور ينتزعه الموت بقسوة من عرشه المؤمن بالسلاح والمخدر، ولا يرى أنه مصلوب على بوابة الخروج من التاريخ ، ومحاصر بالخراب ، من حكم على أسعد بموت مهين ؟ أهم مثلاؤه من السلاطين الذين سيلوحون له بمحارم بيضاء مبقعة بصرخات الشعوب؟ الذين لن يتوانوا عن صنع ضبريح يتسامرون حوله بالأساطير، عن ذلك الذى صعد إلى السماء قبل الشنق، لاتصدقوا الشيوخ فإنهم عملاء يستخدموننا ، وابكوا على الدكتاتور بكاءكم على الشاعر وابكوا بالمثل على ضحايا العالم الجديد.

أسعد الأصغر بين زعماء المقاومة الموزعين باقتدار على خارطة الحصار وقد تواجدت بينهم تشتعل روحى أملا بهذا المرح الذى يملأ رجالا معدون للموت وهم يقودون بجدة حربهم العشوائية ، كنت اقرأ خرائطهم المرسومة بالفحم على المناضد والجدران ، " النصر أو الشهادة " ، مثاليون بالفطرة، عقيدتهم واحدة،" النضال حتى الموت" ، وهم يخطون بحدس لا يخطئ ، كتابا عريقا عن الفداء ، وليس ليهوذا - قديم بالطبع- وجود بينهم ، فيهوذا الآن برئ ، كما أقرت المؤسسة الأدبية للفن القديم فى سويسرا بعد أن أظهرت أن المخطوطة التى نسخت ثلاث مائة مرة ، يقول المسيح ليهوذا " ستتفوق عليهم جميعا لأنك ستضحى بالرجل الذى كسانى «فيساعد فى

تحرير روح يسوع بمساعدته على التخلص من جسده البشرى . هذا الجزء الذى حفظته لكثرة ما قرأته محاولة التأكد من عدم وجود مؤامرة محكمة لصالح شعب إسرائيل ذلك ما كنت سأقوله لأسعد عندما فاجأنى .

– طلباتك يا ست الكل ؟

– ولا حاجة ، وحشتنى ، جيت أشوفك ، مش كدة يا حميدة

– كده يا سوزى ، انا لازم امشى ، العيال شغالين علىّ رنات .

تقطر عيناه غضبا على أخته التى أتت بى إليه ، أدور فوق الإضاءة الشاحبة للجدران المدرعة بأسلحة عتيقة وآيات قرآنية.

– اصلك عمرك ما جيتى من غير ما تكونى عاوزة حاجة يا مدام .

ليس هناك شعور أشد بالإهانة ؟ بالفعل هناك الكثير ، لكن أسعد يعلم موقفى من كنية " مدام " بهذه الطريقة التى تذكرنى بإعلانات افتتاح محال التجميل المشبوهة بعبارة "بعد عودة المدام من الخارج" والخارج غالبا ما يكون الخدمة فى بيوت أثرياء النفط ، هو يسبنى عمدا ، وعلى أن أبدو كالبلهاء ، فوظيفتى محددة بأن أخبره بطبيعة الورم ، وعليه تلقى علاج المسح الذرى بأقصى سرعة ، قبل أن يفوت الأوان وتسرع فرصة النجاة إلى الاستحالة أتذكر تلك الضحكات التى كانت تنتهى بصمت مفاجئ ، وتجوال طويل لعيوننا وحميم فوق أخبار حرب فيتنام حماقة معتدين ، تطلق أنوفهم فى صلوات الأعياد بالأقصى الذى ....، وفى الانتخابات التى ....

العالم يسير الآن بطريق مسدود ، بقوة لن تهدأ قبل خضوع الجميع لجراحات "NEW LOOK"، وشفط كل تاريخ عرفوه ، ويلقى الأطباء المخضرمين بكل نضالات خضناها فى حوض الأحماض ، لتذويب كل ما يعوق ردتنا إلى عصر الظلام ، بينما الثوريون شغوفون بفكرة التنظيم

المحكم لتجميع القوى الصغيرة فى اجتماعات سرية ، يلوكون فيها الأفكار والمصطلحات التى تفسح المجال للعداء والانقسام .

كل رجالى " أسعد وخالى وعصام وأبى" اتفقوا على احترام جيفارا وتقديسه ، لكن أحدا منهم لم يكونه .

أفيق من تأملاتى التى تليق باجتماعات التعاطى فى منزلى الخرب ، تتوتر أمعائى بتذكرها ، يرتد انتباهى لحميدة التى تنهض دامعة .

– لازم أمشى ، عايزة الحق جوزى قبل ما يسكر ويعمل فضيحة جديدة ، ما بيصدق، أنا أخرج من هنا وهو هاتك ياشرب ، خليكى معاه ماتسبهوش، لازم يعرف مش حاقدر اقول له.

تهمس بأذنى، فأرد بصوت واهن .

– حميدة ، لوحدى ما أقدرش . . .

يكون أسعد قد سمعنى ، فيقول . . . . .

– ما تقدريش على ايه يا استاذة ؟ انت فيه حاجة تعصى عليكى ؟

تطرق حميدة بوجل كى تخفى دموعا مصفدة بالشفقة على مصير تعرفه سلفا ، تخرج دون أن تجرؤ على مصافحته ، يقول لها بقسوة .

– شرفتينا الشوية دول يا مدام ، سلمى عالمعلم وخلينا نشوفك ، احنا برضو اخوات ، ولوانك اول مرة تعملى حاجة كويسة كدة .

مشيرا إلىّ وتاركا أخته تغادر بشهاقها الباكى ، وتبقى بيننا كلمات ، يتعين علىّ استدعائها فى مواجهة جهل اسعد بطبيعة الألم الذى ينطلق من نصف وجهه المبتسم بخبث ، يمدنى أسعد بسيجارة متورمة ، التقطها بوجل من يخشى لمس ميت .

– هو إنت خلاص ؟ ماتعرفش تعيش من غير ماتقل أدبك ؟ عمال

تمسخر فىّ أنا وأختك ، ماتحترم نفسك ، بعدين أنا بطلت الحاجات دى من زمان .

اذدرد السيجارة الملفوفة بإحكام ، وأنا أنظر له وابتسامتى تتسع ، لتصبح بانتهاء السيجارة ونصف كوب الشاى ، ضحكات هستيرية لا تتوقف . . .

- مش أنا حاسافر اليونان ؟ حادور على اندريا ؟ وانت يا صاحبى ميت ميت ، يخرب بيتك يا أسعد ، سرطان مرة واحدة ، كنت فاكرة نفسى حاموت قبلك وقبل كل اللى باحبهم لكن الظاهر زى ما قال عصام لازم اتفرج على الموت من برة ، قبل ماالجهز له ، فاكر لما اتفقنا زمان ننتحر جماعة لما نوصل أربعين سنة ؟ تعرف ايه اللى شاغلنى ؟ حاجتين العمى بيشوفوا ايه فى أحلامهم ، واللى بيموت بيلاقى مين أدامه وهو بيطلع آخر نفس ، داهية لو كان بيقابل نفسه ، مش يهوذا طلع برئ يا أسعد ؟ والمسيح يا عينى أستخدمه ؟ الله يرحمك ياحبيب قلبى .

وبكينا

★★★

المختتم

وكأن ستارة أسدلت على شخص قديم كنته ، لأصبح أخرى ، لدى من القسوة ما يعادل القدرة على القتل بابتسام ، وأنا أطلق على أسعد أعيرة القتل السريع ، عزمى على السفر لأندريا ، ونتيجة التحاليل التى تؤكد إصابته بالسرطان

شعور يدق بالذنب على أعصابى ، أبرر بأننى لم اكن فى وعيى ، وأننا تحت الخدر سنقول أى كلام ، ولا يمحى الذنب كالعادة ، بينما اسعد يغسل يديه وروحه ، يرد ملكية الفندق لآل جورجيانى ، ويوزع أمواله على الفقراء المحتاجين لمسح ذرى وعلاج بالكيماويات وليس لديهم تامين علاج اقتصاد . أدعى مبررات كافية ليقين لا ريب فيه بأننى أفعل الصواب للمرة الأولى فى حياتى ، بإعجاب يبلغ حد الإثارة أفكر فى شروط المنحة التى هيئتنى للرحلة العظيمة بعد مسلسل التنازلات طيلة ما يقرب من نصف قرن ، خسرت فيها الكثير وأنا أحرص على إرضاء عصام وخالى فى سجنهما القامع لذاتى ، ولما أخبرنى به أبى عن نفسى ، قررت للمرة الواحدة وأربعين البدء من جديد وأن أعرف أين سأكون فى الصيف القادم .

التقيت بشريف ، أخبرته بخطتى البحثية الجديدة – يهوذا فى الأدب المصرى والأدب اليونانى – دراسة مقارنة ، وقال بابتسامة لم أدرك مقدار تهكمها بسبب النظارات السوداء التى ارتديناها ، ونحن نجول حى الحسين بالدور المعتقة التى تبخ برودة الخريف ، والشمس محاصرة خلف المآذن تلمع أشعتها على الطرقات المفتوحة ككنز من الضوء يسمى " مصر عتيقة " مفتوح على درر ولآلئ محلقة "

– ممكن تستنى وتعملى المقارنة نفسها بين الشعر " والقصة، او الرواية والمسرح، كدة يبقى موضوع جديد ، ويبقى لك تلاميذ يرجعوا لرسالتك .

– فعلا عندك حق لكن ده ح يحدد البحث دايما فى الشخصيات المؤثرة فى الثقافة الشعبية ، انا عايزاها تكون مرجع عالمى .

– يا اااه ، دا إحنا اتغيرنا خالص .

– سنة والا اتنين وح ارجع .

– انتى عارفة بعد سنتين ح نبقى ازاى ؟

– ح نبقى ازاى يعنى ؟ ح نتحول ؟

– براحتك ، إنتِ فى الآخر بتعملى إللى عاوزاه.

نستقل سيارته الصغيرة المخصصة لركوب اتنين، وفى المقعد الخلفى محتويات بيت صغير، طعام سريع ، كتب وجرائد ومجلات، وسادة صغيرة طرية، بطانية ناعمة، أوراق وزجاجات الأدوية . . .

حين نصل إلى موقف سيارات الأجرة ونقرا بصمت لوحة " أجرة سويس " يتعمد شريف ألا يلمسنى وأنا اصعد إلى المقعد الثالث ، اجلس وأديم النظر إليه عبر الشرفة الزجاجية المغلقة ، أتمتم بالكلمات ولا يسمعنى ، اقفز من السيارة ، التصق بكتفه وامسك بيده، المسها خلسة بأسفل ظهرى ، بسرعة أدس كفى المشتبكة بكفه بين فخذينا، تلمع عيناى وأقول باستغاثة :...

– ممكن تحبنى بجد؟ ما تردش دلوقتى .

– أحبك؟ هو أنا مجنون؟

– أكيد مجنون.

يبتسم ويصمت ليصبح أهم شخص بالنسبة لى ، بينما العربة تتحرك بى بعد أن صعدت بمقعديها الأماميين ، أدفع الأجرة مضاعفة ، لأتجنب وضع

حقيبتى بينى وبين جار السفر ، فليست لدى رغبة فى سماع حتى الأنفاس .

هنا أسباب تدفعنى للرحيل ، هى نفسها أسباب بقائى ....

أولا : البحث عن اندريا ، ولم تمنحنى الكتب الثقيلة أية تغطية لأسباب رحيلى فى طائرة الفجر المتجهة إلى أثينا ، ومن هناك أعبر البحار إلى الجزيرة الصغيرة فى مشهد بلا عدسة تلتقط رحيلا يجمد الزمن ولو هنيهة تفصل بين حيوات ما قبل الرحيل وبعده.

ثانيا : أخى يحاصرنى وأنا أغلق شقة الطابق الثالث على الفوضى الأخيرة الخالية من الإضاءة ، السلم كان ضيقا ، معتما وبلا درابزين ......

– ما تمشيش يا سوزى ، المرة دى محتاج لك بجد ، لازم تساعدينى.

توشك حقائبى على السقوط بإرادتى فوق البسطة الضيقة ، وسليم يواجهنى بثيابه البيتية المهدلة بشكل ينعكس على جفاف وجهه ولحيته القصيرة، ملامح بائسة لمن خرج للتو من كل معاركه المرحلية مجهدا وكهلا وهو فى سن السادسة والعشرين .

ثالثا : شريف ، لم أعد أعرف إن كان علىّ الالتصاق به أو الابتعاد عنه.

أخيراً: أبى الذى يسحب عينى من سلطة عينى أخى المتوسلتين بعنف ، أفيق وألجأ إلى التحايل ، وأنا. . . مسبقا أعرف أن دوافعى ضعيفة ...

– لازم أسافر ، عايزة اصلح حياتى يا ناس ,

– تصلحى ايه وحياة ايه؟ كل اللى عاوزه تعمليه ممكن يتعمل هنا .

– فيه حاجات صعب تفهمها .

– زى ؟

أبى يجلس بينى وبين وأخى ، وظلال رؤوسنا تلتصق ببعضها على الحائط ، بينما وجوهنا تشيح بقوة خوفى من الاستسلام لإرادة أى آخر ، معركة صغيرة بنادقها وسيوفها وعصيها من كلمات تتطاحن بهدوء خريفى لمنتصف ليل أجيال ثلاثة تحاول أن ترسخ مواقفها عند لحظات الوداع الذى بدا وكأنه للأبد .

– أرجوكم حاولوا تقدروا ، دا مستقبلى ما بقاش عندى وقت يضيع فى التردد ، مش أنت يا بابا قلت حددى هدفك ونشنى ؟

أسرع هربا من مطاردة الشعور بالذنوب ، أتعثر ، تسقط حقائبى على السجادة التى أفقدها الزمن تماسكها ، أقع على ركبتى ، يرفعنى أخى برفق ، بينما يهم أبى بذلك ، ويتراجع حين يتذكر ساقا ناقصا ، كاد كل شئ ينفجر حين جلست على أريكة جدتى التى تتسع لاثنين ، لولا أن أبى تدخل حاسما العركة بتجاوز مريح ، لى....

– على الأقل كلى حاجة قبل ما تمشى .

نظر إليه أخى غاضبا ثم مستسلما ، أدار ظهره ،دخل مجرته زاعقا فى الفراغ . .

لا تريدين التراجع ، لتكن مشيئتك ، ولكن تأكدى أن عليك تحديد جغرافيا لك بيننا وإلا لن تعودى مقبولة لأحدنا ، ولا تلومى غير نفسك يا أختى .

غاب فى تفاصيل حجرته الموجعة بأغانى البينك فلويد ، وصراخ الأضواء الملونة على شاشة الكمبيوتر، يختزل هيئته فى العتمة ورائحة عرقه ، خلف الباب الخشبى الذى صفقه بقوة ، وغاب كشبح خلف الأصوات .

هذا المشهد يتكرر، ذلك ما يؤكده عقلى المجهد، فى مواجهة أبى أحاول الانتفاع بتصوره القديم لى ، وأنا أطرد من عينى امرأة كانت تحدق

بابتسامة شكر لسقوطى المروع فى حفرة من خزى ، اذكر أبى باتفاقية أبرمها لى منذ ثلاثة عقود فى بيان قصير ....

– أنت حرة ، خوضى تجاربك ، لكن حافظى على نفسك.

أسأل بيأس كلما شرعت فى اختيار ينزع عنى حريتى بامتنان شديد منى ، وعلى طريقتى للحياة رغم كونها معلمة سيئة لامرأة ، تقرر أن تبدأ من جديد كل يوم ، وهى تضرب وجهها بماء بارد من صنبور شحيح ، وتدمى أسنانها بعنف الفرشاه التى تنساها لدقائق وهى تدور فى فمها بطعم البن المطحون ، وحين يلفنى الليل تتأكد خيبة الاختيار ، واصطدم بفقرة " جيم اوفر " .

يجذبنى إليه وهو يهز فخذه وطرف سرواله المتدلي على الفراغ ، ويقول ......

– تعالى على رجل بابا . ولاتزعل يابطل إعمل اللى تشوفه صح.

الصح الذى يعرفه أبى ليس كالذى أدركه ، ذلك هو الشئ المفقود بيننا ، وجدته فى ابتسامة الرضا التى دفنت آلام أبى بصدرى ، الرحلة كانت نافذة وحيدة فى حصارى ، ربما أعود منها دون أن احصل على شئ ، ربما كان عاديا التراجع فى مرات فائتة، ولكن هذه المرة كالمشيئة ، ولن أطيق الإعراض عن المعرفة مهما بلغ شقائى ومهما اقترب شبهى لأمى التى ظنت أن قوى عليا تآمرت عليها بكامل طاقتها.

ماذا فعل بنا العقل ؟ حتى أصبحنا خارج مؤسسات الأمان ، ثوار مطاردون كمجرمى حرب نناضل بيقين من يعرف مسبقا ، أن خلايا الثورة مهزومة بالخيانات المتبادلة ، ونحن غير قادرين على إنهاء المعركة بالقتال حتى الموت لأننا متشاغلون بالبحث فى الرمال عن ساق أو ذراع ضحينا بهم من قبل للاشىء ، فننسحب من مواقعنا ونصبح محدودين بالنظر تحت

أقدامنا ، نمرر كل الكوارث وكأنها الأنفاس الأخيرة للعالم ، وننتظر الرحمة من الآخر البعيد .

ودعت أبى بعد أن دققت على باب أخى بلا جدوى ، نزلت السلالم ببطء ، وأنا أضم حقيبة بدفء إبطى والأخرى بيدى المتجمدة ببرودة انتهاء المقاومة، أمر بباب الغرفة التى سكنت بها جدتى لفترات طويلة ، كانت تتنقل كحقيبة من بيت خالى إليها ، ماتت بها وهى كفيفة على صورة قديمة للجميع، فكانت كلما مررت بها ، حتى بعد حصولى على راتب شهرى - تغلق قبضتى على بعض الجنيهات كى اشترى بها ما أريد ، من قال إن للموت وجها طيبا يكسوه الرضا لم ير وجه جدتى متقلصا بابتسامة دميمة، وهى ترفع جسدها فوق الفراش جاذبة الموت من لا مكان ، توسط أمها بعنف وهى تقول :

- شدينى يا اما ، شدينى.

وقد جذبها الموت بهدوء،

الآن خالى فى مكانها ، لا أعرف مما دار بينه و سهام ، إلا انه تبدل بشكل قوى فى أيام ، وأصبح يخرج كثيرا بأناقة وجدية احمد مظهر فى "الأيدى الناعمة" ، وعلمت بشكل ما أنهما يخططان لافتتاح مكتب استثمارى للتسويق والخدمات العقارية ، يتعامل مع الأفراد والهيئات الأجنبية ....

يمسنى بعض ألم عاشه خالى فى انسحابه ، أدق على الباب بأظافرى ولم أكن رأيته لزمن ، لم يفتح رغم التقاط تصنتى لحركته ، خلف الباب المذموم عليه وقطته التى سجنها معه ، ليعوضها عن تفويت مواسم التزاوج ، بدغدغة رقبتها ورأسها ومسح بوز حذائه بمؤخرتها ، أعاود الدق يكفى ملصقة شفتى بالثقب الداكن .

- أنا مسافرة يا خالو وعايزة أسلم عليك .

– مع السلامة يا سوزى خلى بالك من نفسك ، الولد عصام حيحاول يأذيكى . . . أغادر البيت ، أعيد لف السلسلة الحديدية وأضغط القفل الأسود الكبير ، أشم فى يدى رائحة الصدا البارد ، وبينما أهم برفع حقائبى ، أجد أسعد فى انتظارى وكل وجهه ابتسامة شاحبة، يميل بجسده ليلتصق بى تماما فيما يحاول حمل حقائبى، أشعر بجسدى يتحول إلى جمرة تتقد. . .

– إيه المياصة دى يا أسعد؟

– أبدا والله ، أنا بس واخد كمية مسكنات كبيرة ، مش قادر أحس بجسمى.

– إنت كدة بتنتحر، قلبك ممكن يقف.

كانت عيناه تلتمعان بفرح لم أعهده ، وهو يقول. . .

– عاوز أشوف البلد كلها معاكى ، عشان خاطرى، مش ح أخرك.

– ماشى ياعم الرومانسى.

سرنا معا ، شوارع المدينة محاصرة بعتمة غريبة، فيما الليل ينسحب، والنهار لا يعد بشئ ، غير قطرات مطر خفيفة هبطت على وجهى ، وجه أسعد كان جميلا، وعيناه تشعان ببريق نادر.

– إنت حلو النهارده ليه؟

– عشان باحبك.

عبرنا ميدان الأربعين إلى الكورنيش ، مرورا ببيت أندريا، والكنيسة، وجامع الغريب، والقهوة المغلقة على الدخان وعدة الشاى، وقفنا مخلفين المدينة والحكايات، واجهنا صحن الشمس يصعد من البحر، كانت وجنتاه وجبهته تلتمع بلون النبيذ الأحمر ، وعيناه غابتا نخيل ساعة السحر، أين كان يخفى ذلك الجمال؟

– عايزك تعرفى قبل ما تسافرى ، إن أندريا هو اللى قال لى أعمل معاه كده ، قال أنه لازم يسافر يعمل مستقبله ؟

العيلة رابطاه وأنتى حتعطليه ، لكن لو حصل له زى إيدجيت ، حيسافر على طول .

هو اندمج ، كان عاوز يعمل بطل ويغلب العيال المأجورين ، ضربهم جامد، وهم ما كانوش فاهمين ، لحد ما العركة قلبت جد ، إتلموا عليه وكسروه ، شربوا تراب الشارع دمه ، هو كان عايز كده ، الواقعية ، عشان يصدق أنه ضحية ، نفس الدور اللى عشنا العمر دا كله نلعبه ،

احتضننى أسعد بقوة ، وأنا أحاول تجميع سؤال ما بلا جدوى ؟

عائلة من الشجن الملائكى نزلت خطأ على الأرض لتحيط بوداعنا، وبينما أتساءل أين سنكون العام القادم، يسقط رأس أسعد جمعة على كتفى المشوه بجرح قديم، ويموت، مسدت رأسه برفق، وخلفى صخب البحر يصم مسامعى..

١٥ يناير ٢٠٠٥

٢٣ فبراير ٢٠٠٧

«مع الشكر لكل الأصدقاء الذين كانوا إلى جانبى.»

أحـــــدث إصـــــدارات روايـات الـهــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٨٧	ظل الأفعى	يوسف زيدان	مارس ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٨	أبناء الديمقراطية	ياسر شعبان	ابريل ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٨٩	مجموعة شهادات ووثائق لخدمة تاريخ زماننا	صلاح عيسى	مايو ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٠	الحب فى زمن العولمة	صبحى فحماوى	يونيه ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩١	عطر البرتقال الأخضر	شريف حتاتة	يوليو ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٩٢	أنا الذى رأى	محمود سعيد	أغسطس٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٣	الجميلة حتماً توافق	رأفت الميهى	سبتمبر ٢٠٠٦	٥,٠٠
٦٩٤	نعناع الجناين	خيرى شلبى	أكتوبر ٢٠٠٦	٦,٠٠
٦٩٥	واحة الغروب	بهاء طاهر	نوفمبر ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٦	شهرزاد على بحيرة جنيف	جميل عطية إبراهيم	ديسمبر ٢٠٠٦	٧,٠٠
٦٩٧	مأوى الروح	محمد عبدالسلام العمرى	يناير ٢٠٠٧	٧,٠٠
٦٩٨	٦١ شارع زين الدين	سعيد نوح	فبراير ٢٠٠٧	٧,٠٠

الهلال

من هناك

كتاب جديد للكاتب والناقد الكبير:

د. جابر عصفور

يصدر: ٥ إبريل ٢٠٠٧م

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

عن الكاتبة

❑ أمينة زيدان

كاتبة مصرية – صدر لها :

– «حدث سراً»، (مجموعة قصصية) المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٥ ، طبعة أولى . وعن الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠١ ، مكتبة الأسرة.

– «هكذا يعبثون» (رواية) الهيئة العامة للكتاب عام ٢٠٠٣، مكتبة الأسرة ، إبداع المرأة .

❑ لها تحت الطبع :

– «مفتاح الحياة» (رواية)

– «فوضى» (مجموعة قصصية)

❑ حصلت على عدد من الجوائز:

– المركز الأول فى مسابقة أخبار الأدب «قصة قصيرة» ١٩٩٤، وترجمت هذه القصة ضمن كتاب صادر عن الجامعة الأمريكية باللغة الإنجليزية.

– أفضل مجموعة قصصية للعام ١٩٩٥ من معرض الكتاب .

– مسابقة دول حوض البحر المتوسط للعام ١٩٩٧ ، أحسن عمل من مصر ترجم للإيطالية .

أشهر الحوادث والقضايا

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨ ، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .